حالات نادرة (2)

قصص غريبة
تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي



مكتبة | 758
سُر مَن قرأ

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

حالات نادرة (2)

العنوان

حالات نادرة (2)

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



ردمك: 9789921737998

رقم الايداع: 1516/2019

تصميم وإخراج

نوفا بلس للنشر والتوزيع



نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
www.novapluskw.com

مكتبة | 758
سُر مَن قرأ

حالات نادرة (2)

قصص غريبة تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات

م . عبدالوهاب السيد الرفاعي



نوڤا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الفهرس

مقدمة ضرورية

أعتقد أنها الثانية فجرا.. هذا طبيعي.. ففي النفوس الكئيبة والوحيدة.. تكون الساعة دوما الثانية فجرا!!!.. ما زلت مستلقيا على الفراش متسائلا إن كنت نائماً أم مستيقظاً.. إنها واحدة من تلك اللحظات التي يختلط فيها الحلم بالواقع، وتظل تتساءل عن مكانك في هذا الكون.. وهذه -بالمناسبة- أجمل لحظات حياتي.. فمن خلالها أشعر أنني أسبح وحيدا بين المجرات في الفضاء اللامتناهي تاركا هموم الأرض بأكملها خلفي.

لكن.. اللحظات السعيدة لا تدوم أبدا مع الأسف.. فها أنا قد استيقظت فعليا بسبب امتلاء مثانتي.. أتساءل إن كان ذهابي إلى الحمام أمرا مستحقا أم لا.. إذ لا يوجد أسوأ من أن تترك فراشك الدافئ وسط الظلام لتذهب وتجلس على مرحاض بارد قد يطير كل أثر للنوم من عينيك.. لكن.. يبدو أنه لا مفر من ذلك.

نهضت من الفراش فعليا متجها إلى الحمام شاعرا أنني قد استيقظت تماما ولا أرغب في العودة إلى النوم.. خاصة وأنه لا توجد لدي أي مسؤوليات أو التزامات لهذا اليوم كونه يوم إجازة.. لذا لن أعاني أي إرهاق وأستطيع الذهاب إلى الفراش لاحقا متى شئت.

أفرغت مثانتي وكلي رضا عن الكون.. ثم قررت بعدها الذهاب إلى المطبخ لأعد لنفسي شيئا خفيفا آكله كوني لم آكل منذ غداء أمس.. فخرجت من الحمام وسط السكون الذي يخيم على البيت حتى تكاد لا تصدق أنه سيتحول إلى خلية نحل بعد استيقاظ الجميع.. ورحت أصنع لنفسي ساندويتش بسيطا وضعته في (المايكروويف) بشرود.

رحت بعدها أراقب العداد الزمني للتسخين والثواني تمر بهدوء.. قبل أن أضغط على زر إغلاق (المايكروويف) بسرعة قبل ثانية واحدة فحسب من انتهاء وقت التسخين.. أحب أن أفعل ذلك دوما.. فهذا يشعرني وكأنني بطل أنقذ العالم من انفجار قنبلة!!!.

ممسكا بصفحة الطعام الصغيرة متجها بطريقة آلية إلى غرفة نومي حيث بدأت ألتهم الساندويتش وأنا جالس على الفراش وأشاهد الشباك بوجه حزين منَحَني شخصية الحالم وجعل عينيّ تمثلان البراءة نفسها.. أحب نفسي كثيرا حين أكون حزينا.. لأنني أشعر حينها بعمقي الإنساني.. ماذا؟!.. تظنون أنني غريب الأطوار؟!.. جميعنا غرباء الأطوار يا أعزائي لكن على درجات مختلفة.. فنحن لا نمتلك شخصية محددة.. إننا مجرد قطع صغيرة من كل الشخصيات التي التقيناها في

حياتنا.. تأكدوا من ذلك.. لهذا نتصرف بغرابة أحيانا.. وبذكاء أحيانا أخرى.. و.. إلخ.

السماء تمطر في الخارج في مثل هذا الوقت من شهر نوفمبر.. لكنه ذلك المطر الهادئ الخفيف الذي يزيدك استرخاء.. أتذكر في طفولتي عندما كنت أشاهد قطرات المطر وهي تتدحرج وتتسابق على نافذة غرفتي.. فأرى باستمتاع أي منها سيصل إلى النهاية أولا.. يا لها من أيام رائعة لن تعود.. من المؤسف حقا أنني في أيام الطفولة كنت دائما أريد أن أكبر.. لكني أدركت الآن أن أقلام الرصاص المكسورة والدرجات التي لم أحققها أهون بكثير من قلب مكسور وأحلام لم تتحقق.

بعيدا عن هذا الاستطراد الممل.. ماذا سأفعل الآن؟!.. هل أذهب إلى النوم؟!.. أشاهد التلفزيون؟!.. أقرأ كتابا ما؟!.. لا أشعر بأي رغبة في ذلك.. أنظر حولي في الغرفة باحثا عن شيء أفعله.. لتقع عيناي بالصدفة على مذكراتي التي نشرتها لكم منذ سنة.. فأبتسم بشرود.. وأتذكر كيف كنت أخشى الإقدام على هذه الخطوة كون الكثيرون قبلي نشروا مذكراتهم ومعظمهم فشل.. وكون فكرة نشر المذكرات أصبحت مكررة مملة كما تعلمون.

لكني لا أعرف كيف تجرأت وفعلتها رغم كل بوادر

الفشل.. ولا أعرف أيضاً كيف تحققت المعجزة وتركت مذكراتي في نفوسكم ذلك الصدى الطيب.. حتى أن الكثيرين منكم طالبوني مباشرة بجزء ثانٍ.. يبدو أنني سأحقق طلبكم وإن كنت قد تأخرت قليلا.. فقد تهت في طريق الحياة طوال العام الماضي.. لكني قررت أن أعود إليكم أخيرا.. نعم.. ستكون فكرة جيدة أن أستكمل لكم مذكراتي.. خاصة في مثل هذه الساعة.. فعندما يكون الظلام دامسا.. تستطيعون أن تشاهدوا روحي جيدا.

لقد أطلقت على الجزء الأول من مذكراتي اسم (حالات نادرة).. ومن المنطقي أن أطلق على الجزء الثاني منها اسم (حالات نادرة 2).. لكني سأحتاج بعض الوقت لاستخراج تلك الذكريات من مكانها المظلم في عقلي حتى أرويها لكم بكل صدق وأمانة.. أشعر أن حياتي تستحق موسيقى خلفية من شدة إثارتها.. تماما كما يحدث في الأفلام.. بل إنني أدندن أحيانا ببعض الألحان فعليا حين أمشي في ممرات المستشفى أثناء ساعات عملي شاعرا أنني أعيش فيلما أجنبيا وأنني بطله الأوحد.

لكن.. قبل أن نبدأ.. أرجوكم دعوني أعرفكم بنفسي مرة أخرى.. أعرف أن هذا سيكون مملا.. لكن.. تذكروا أن هناك الكثيرين ممن يقرأون هذا الجزء من مذكراتي ولم يقرأوا الجزء الأول منها.. صحيح أن أحداث الجزئين غير مرتبطة ببعضها

إطلاقا كوني أتحدث عن قصص منفصلة في كل مرة.. لكن هناك رابطاً واحداً يجمعها.. هذا الرابط هو شخصي المتواضع بطبيعة الحال.. خاصة وأن لي دوراً ما في كل قصة تقريبا.. لذا فهناك بعض المعلومات الأساسية التي يتحتم معرفتها عني.

تعرفون بالطبع أنني طبيب نفسي أبلغ الـ 35 من العمر لحظة كتابة هذه السطور.. وأعمل في مستشفى الطب النفسي منذ أكثر من 5 سنوات.. ذلك المستشفى الهادئ الذي لا يعج أبدا بالمراجعين كما هو الحال مع باقي مستشفيات (الكويت) الأخرى التي تذهب إليها وتنتظر ساعات وربما أيام كي يأتي موعد فحوصاتك.

فالطبيب النفسي لا يعالج سوى حالات الإدمان.. والاكتئاب.. والوسواس القهري.. والبارانويا.. إلخ من الأمراض النفسية التي لا تكون مستعصية عادة ولا يهتم أصحابها بعلاجها أصلا في كثير من الأحيان.. أما بالنسبة لي فالأمر يختلف تماما.. إذ تمر علي بين الحين والآخر حالات بالغة الغرابة بالفعل.. ويندرج بعضها تحت بند (ما وراء الطبيعة).. وبعضها الآخر مرتبط بجرائم وقصص غريبة لا تخطر تفاصيلها ببال أحد على الإطلاق.. لذا أنا واثق تماماً أنني رأيت -رغم قصر فترة عملي- ما لم يره طبيب نفسي مخضرم في أي مكان في

العالم!!!.. وربما لاحظتم هذا بأنفسكم من خلال الجزء الأول من مذكراتي والمغامرات المذهلة الغريبة التي مررت بها.

وربما تتذكرون أنني لا أفضل الإفصاح عن اسمي أبدا.. خاصة وقد اعتدت أن يناديني الجميع -بما فيهم أقاربي- بلقب (دكتور) حتى بت لا أسمع اسمي كثيرا على لسان الناس.. كما أنني أمقت الشهرة كثيرا.. ولست أبدا من هؤلاء الحمقى الذين يفعلون كل شيء في حياتهم ليكونوا مشهورين ثم يلبسون النظارات السوداء حتى لا يعرفهم أحد!!!.. تناقض بشري لا يختلف عن التناقضات العديدة التي تمر علي في المستشفى يوميا.

هذا كل ما يتعلق بعملي.. أما بخصوص حياتي الشخصية.. فأنا أعزب حتى لحظة كتابة هذه السطور.. تسألونني عن السبب؟!.. يحق لكم هذا.. فشاب في الـ 35 من العمر يفترض أن يكون متزوجا ولديه أطفال.. لكنني في الواقع ما زلت أعزب.. وأظن أنني لن أتزوج أبدا رغم أنني أعيش حياة العشاق وأتلذذ كثيرا بالحزن كحال كل عاشق.. ربما لأنني أعرف أن الزواج سيكشف كل أسرار شريكة حياتي.. وسيقتل هذا جانب الغموض الساحر الذي نراه دوما في الأنثى.. دعكم من أنني على يقين أن جميع البشر من النوع الذي نحبه أكثر لو رأيناه

أقل.. باختصار.. زجاجة المياه الغازية تظل باردة جذابة إلى أن تشربها.. هذا واقع يدركه كل متزوج.. ولحسن الحظ أدركته أنا قبل أن أقع في فخ الزواج.. كما أن الزواج يقذفك فجأة في أحضان الواقع بعد أن كانت حياتك حلما جميلا.

نسيت أن أذكر أنني أعيش حاليا في بيت العائلة.. وهي لا تختلف عن أي عائلة كويتية أخرى.. فلا يوجد ما يستحق الحديث بشأنها.. كما أنني أصغر إخوتي الذين تزوجوا واستقروا جميعا.. لذا فمسؤولياتي العائلية محدودة للغاية.. خاصة وأن شقيقي الأكبر يسكن مع زوجته وأطفاله في بيت العائلة أيضا.. ولا ننسى شقيقي الثاني المتزوج حديثا والذي يعيش مع زوجته في نفس البيت.. لذا لا يوجد لدي من أهتم لأمره وأتابع احتياجاته سوى والدتي -أطال الله في عمرها- بعد أن توفي والدي منذ سنوات طويلة.

أما بخصوص هيئتي الخارجية.. فلا أعلم جدوى وصفها لكم.. لكني على كل حال سأعيد ما قلته لكم في الجزء الأول من مذكراتي.. وهو إنني متوسط القامة.. عادي الملامح.. نحيل الجسد إلى حد ما.. أبدو صغيرا في السن إلى حد ما أيضا بسبب شعري الأسود القصير الذي يخلو تماما من الشيب.. كما ترون.. فهيئتي الخارجية لا تختلف عن أي شاب كويتي ولا أعتقد أنها ستثير انبهار أي فتاة.

لن أتحدث كثيرا عن سبب اختياري لدراسة الطب النفسي.. فقد ذكرت الأسباب في الجزء الأول من مذكراتي أيضا.. وكلها أسباب شخصية قد لا تكون مقنعة للكثيرين منكم.. لكني أجدها مقنعة للغاية بالنسبة لي.. ورغم ذلك.. أعترف أن ما اكتشفته في مجال عملي مخيف للغاية.. فقد تبين لي أن هناك نوعين من الناس في هذا العالم.. الذين يفضلون أن يفصحوا عن أحزانهم للآخرين.. والذين يفضلون أن يكبتوا أحزانهم في داخلهم.. نعم.. لا يوجد سعداء أبدا!!!.. لقد كنت أظن أن هذا شعوري وحدي.. لكن اتضح أنه شعور جميع الناس تقريبا.. فحتى لحظات السعادة البسيطة التي أعيشها لا أستمتع بها لأنني أعلم أنني سأعود إلى الحزن مرة أخرى.. رغم أنني أحاول دوماً أن أعيش حياتي بهدوء وسكينة.. كل يوم على حدة.. لكن أحيانا كثيرة تهاجمني الأيام كلها دفعة واحدة وتتركني ضعيفا منهارا!!!.

هناك ميزة واحدة فقط في حياتي.. وهي أنني أصبحت أفضل ممثل في العالم.. لأنني أختفي وراء أكاذيب لا تظهر أبدا حقيقتي أمام الناس.. حتى أنني لم أعد أتساءل لماذا يجن الناس أحيانا.. بل أتساءل لماذا لا يجنون؟؟!.. فمن الصعب معرفة ما هو الخطأ في هذا العالم عندما لا نجد فيه شيئا صحيحا!!!.

دعونا من حياتي الشخصية ومشاعري وخواطري الخاصة.. ولنتحدث عن الأهم.. عن محور هذا الكتاب!!!.. سيكون كالجزء الأول تماما بالطبع.. إذ سأتحدث عن المراهقات في (الكويت) مرة أخرى.. أرجو ألا يكون هذا مملا.. فلا ذنب لي إن كنت في معظم الأحيان التي أستمع فيها إلى قصة غريبة.. أجد من ترويها لي وتعيش أحداثها هي فتاة في سن المراهقة.. ربما لأن المراهقات يعشن تحت ضغوط اجتماعية شديدة.. خاصة في مجتمعاتنا الشرقية التي تتعامل بحذر شديد مع أي فتاة في هذا السن وتعتبرها قنبلة موقوتة ستنفجر في أي لحظة وتسبب العار للعائلة.. وهذا ما يجعل معظم المراهقات يعشن في زوايا مظلمة من مجتمعنا وتكون لديهن أسرار عديدة يخشين الإفصاح عنها.. لذا فمذكراتي التي بين أيديكم هي انتقاء لأغرب الحالات والقصص التي مرت علي في المستشفى وقد نقلتها لكم على لسان بطلاتها المراهقات دون تحريف أو تزييف لما سمعته.. هل ستكون القصص مسلية هذه المرة أيضاً؟!!.. لا أعلم.. لكني أعلم أنها غريبة للغاية وتستحق أن تصنف أيضا تحت مسمى (حالات نادرة).

وهذا -بالمناسبة- يجعلني أتساءل.. ما الذي يسمعه زملائي الأطباء النفسيون في نوباتهم الليلية؟!.. هل كل منهم مثقل بالأسرار مثلي يا ترى؟!.. هل كل منهم استمع إلى قصص مذهلة

على لسان مرضاه كما أفعل أنا؟!!.. لا أعلم.. فكل منا يعتبر أسرار مرضاه أمرا مقدسا مفروغا منه ولا مجال للخوض فيه.. لكني أحيانا أشعر بالفضول.. وأحلم بتلك الأحلام الطفولية.. أن أكون خفيا كي أدخل غرفة كل طبيب نفسي في العالم وأستمع لشكاوى مرضاه وأعرف أسرار الناس!!.

أو.. ربما أكون طبيباً نفسياً فريداً من نوعي.. منحوساً بشكل أو بآخر.. فلا يستمع لقصص غريبة أو يعيش تجارب مذهلة أحد سواي.. على كل حال.. هذه تساؤلات لن أعرف إجابتها أبدا إلا لو ظهر طبيب نفسي آخر ليسرد لنا مذكراته كما أفعل أنا!!!.

و.. لن أطيل عليكم.. لتدور العجلة مرة أخرى.. ولنبدأ الآن مع 6 قصص منفصلة تدور أحداثها حول 6 مراهقات تتراوح أعمارهن بين 16 – 22 عاما.. حيث جلست مع كل منهن على حدة محاولا الاستماع إلى مشاكلهن.. فكنت أشهق أحيانا من هول المفاجآت التي أسمعها.. وأفكر بعمق أحيانا أخرى للعثور على حلول لتلك المشاكل وسط نظرات الأمل التي تمطرني بها كل مراهقة وكأنني أملها الأخير في هذا العالم.. وأحيانا أخرى أشعر أنني كالخروف لا أعرف كيف أتصرف لغرابة ما أسمعه.. لكني في كل الأحوال.. أحاول مساعدة كل

من يجلس مقابل مكتبي قدر المستطاع.. فلا يمكن لأحد أن يتصور فرحتي حين أتمكن من مساعدة الناس.. لأنني موقن تماما أن أفضل الطرق لرفع معنوياتك هي أن ترفع معنويات غيرك.. وهذا أحد أسباب دراستي للطب النفسي.

دعوني آخذ نفسا عميقا مرة أخيرة لأستجمع ذكرياتي وأفكاري قبل أن أرويها لكم.. حسنا.. أرجوكم اقتربوا قليلا كي لا أرفع صوتي.. ودعونا ندخل إلى عالم تلك الحكايات.. إنها حكايات من الأعماق.. ليست أعماق البحار.. ولا أعماق الكون.. بل هي أشد تعقيدا.. إنها أعماق النفس البشرية.. وحالات خاصة منها.. حالات نادرة.. بجزئها الثاني!!!.

الدكتور (.........)



مجهول في شقتي!!

تحكيها: نادية

عزيزي القارئ..

هذه القصة تستحق أن أدرجها في مذكراتي دون تردد.. فهي بحق (حالة نادرة).. وقد أشعرتني بشيء من الخوف والرهبة.. فأحداثها غريبة للغاية ولا تعرف كيف تفسرها إلا إذا أنهيتها.. هل ستشعر بصدمة في النهاية كما شعرت أنا؟!.. لا أعلم.. لكني أعلم أنك ستستمتع بأحداثها.

لقد طلبت من بطلة القصة (نادية) أن تكتب قصتها بنفسها كجزء من العلاج.. وهو ما أفعله أحيانا كثيرة حين أشعر أن بطل القصة يحمل هموما مثقلة من الأفضل أن يطرح بعضا منها على الورق.

فلتقرأ القصة.. ولنرَ إن كنت ستصاب بالدهشة كما حدث معي!!.

الدكتور (.........)

لم يكن الأمر سهلا حين انتقلت للإقامة بمفردي في تلك الشقة الصغيرة بمنطقة (السالمية).. فمجتمعنا لم يعتد أبدا أن تهرب فتاة من بيت العائلة للإقامة وحيدة.. ودائما ما يُربط فعلا كهذا بالفسق والفجور وغياب رقابة الأهل وانعدام غيرة الأب.. لكني لم أكترث لما سيقال عني.. لقد فعلتها هربا من مشاكل عائلية عصفت بي لعدة سنوات وسببت لي قلاقل واكتئاباً نفسياً لا حدود له!!!.

فقد بدأت الخلافات بين والدَيّ منذ حوالي 8 سنوات حول عدة أمور يتعلق معظمها بمغامرات أبي الغرامية وتبريره الدائم لها باتهام أمي بإهمال احتياجاته.. مع خلافات أخرى حول أمور عديدة أجهل تفاصيلها.. وقد ظلت تلك الخلافات تتفاقم منذ ذلك الوقت وتسوء يوما بعد يوم.. مع ازدياد الوضع المادي سوءا بسبب شهادة والدي المتواضعة التي حصل بها على وظيفة أكثر تواضعا وبراتب لا يكفي نمط حياة الرفاهية الذي اعتادت عليه كل أسرة في (الكويت).. خاصة مع وصولي لمرحلة المراهقة وازدياد احتياجاتي!!!.. وكان هذا جزءا آخر من أسباب خلافات والدَيّ المستمرة.. فحين يسوء الوضع المادي في الأسرة.. تكبر جميع الخلافات مهما كانت صغيرة في الأساس.. لتصبح الأجواء حولي مشحونة دوما ولا تطاق.. فلا يمكن لأحد أن يشعر بالأمان والاستقرار في مكان

يكثر فيه الصراخ والشجار.. والضرب!!!.. نعم.. فقد وصلت الأمور أحيانا كثيرة إلى اعتداء أبي على أمي بالضرب.. بينما كانت هي بالمقابل تفعل كل شيء لاستفزازه بعناد غريب!!!.

لقد كانت أمي تخرج غاضبة أحيانا كثيرة بعد شجارها مع أبي.. وتذهب لتقيم في بيت العائلة قبل أن تتدخل الوساطات لإعادة الأمور إلى مجاريها.. فيتراءى إلى مسامعي كلام أبي الذي يقسم أمام خالي أنه لا يخون أمي سوى لأنها مقصرة كثيرا في حقه.. في حين تصرخ هي وتدافع عن نفسها بأنها تعمل هي الأخرى وتساعده لإعالة أسرتنا الصغيرة.. كما أن هذا ليس عذرا للخيانة وإلا لأصبح لها الحق أيضا بخيانته كونه يهملها بدوره أحيانا كثيرة.. مع كلام كثير عن حقها في شراء ما تريده من ثياب وكماليات وأنها ليست أقل من صديقاتها.. إلخ.

كنت أرى ما يحدث أمامي من انقسام أسري وخلافات.. فأتحسر على أيام الطفولة الجميلة حين كنت أشعر بالأمان الدائم ورعاية والدَيّ المستمرة لي.. فأتساءل.. ما الذي تغير؟!.. لماذا لم يعودا يطيقان بعضهما؟!.. لماذا كلما تتغير الحياة من حولي أجدها تتغير للأسوأ؟!!.. لماذا أصبح أبي قليل الصبر ولا يتعامل مع أمي إلا بالضرب.. ولماذا تفعل أمي كل ما بوسعها لتستفزه؟!.. فهي قد دمرت بدورها الصفات السامية التي كانت

موجودة في شخصية أبي.. كهدوئه وتعامله مع المشاكل بحكمة قبل أن يفقد كل تلك الصفات مع مرور الأيام بسبب خلافاتهما المستمرة وكثرة طلباتها ورغبتها أن تعيش بما يفوق مستوى الأسرة المادي.. وهو ما تفعله الكثير من النساء بالطبع.

مشاكل متشابكة متداخلة أوصلت مرحلة الخلاف بين والدَيّ إلى درجة مخيفة من انعدام الاحترام.. إذ بدأت بالشتم.. ثم الضرب.. ليصلا بعدها إلى أسوأ مراحل خلافاتهما.. وهي إثارة عيوب كل منهما أمام الآخرين وكشف أدق أسرارهما للناس!!!.. وعندما تصل الأمور لهذا الحد فسيختفي دور العِشرة.. ويبدأ انفلات الأعصاب ورفع الكلفة والاحترام بين الطرفين.. عندها يستحيل أن تعود الأمور كما كانت!!!.. ويكون الحل الأخير هو.. الطلاق!!!.

وبالفعل.. فبعد بضع سنوات.. ضعف كثيرا تأثير الوساطات العائلية.. وبدا أن الخلافات بين والدَيّ لن تنتهي أبدا.. إلى أن انتهى الأمر أخيرا بالطلاق رغم أنني حاولت بدوري أن أبقي تماسك الأسرة وأعيد الأمور إلى مجاريها بعد أن كبرت وأصبحت قادرة على النقاش والتدخل.

أعترف أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لي.. فرغم أن طلاقهما قد تم وأنا في الـ 20 من العمر وفي سن يسمح لي

بتحمل مسؤولية نفسي.. إلا أن انهيار أسرتنا الصغيرة وتفككها إلى الأبد قد أثر بي بشكل كبير دون شك!!!.. فقد أصبت بحالة اكتئاب شديد زاد همومي النفسية هما جديدا.. ووجدت نفسي فجأة أمام خيارات جميعها صعبة.. فكان علي أن أختار بين الانتقال للإقامة مع أبي في بيت جدي الذي يعيش فيه أيضا عمّي المتزوج وأولاده.. وأن أسكن في غرفة إحدى بنات عمّي كون البيت ممتلئا على الآخر ولا توجد فيه أي غرف إضافية.. أما الخيار الثاني فهو السكن في بيت عائلة والدتي.. والأمر ذاته ينطبق عليه.

لقد حاولت أن أقنع أحد والدَيّ أن نستأجر شقة لنعيش فيها بعيدا عن بيت العائلة على أن أتحمل أنا جزءا كبيرا من الإيجار كوني أنهيت دراستي الثانوية بنجاح رغم كل الظروف.. وحصلت بعدها على وظيفة إدارية لا بأس بها في أحد البنوك وبمرتب لا بأس به أيضا.. لكن كل منهما رفض تلك الفكرة تماما وأصر على السكن في بيت عائلته.. وأن علي اختيار السكن في أحد البيتين.

في النهاية.. وبعد شد وجذب.. لم أجد بدا من السكن مرغمة مع والدي في بيت العائلة.. فكانت أياما صعبة بحق.. إذ لم يكن يسمح لي فيها بأي خصوصية تقريبا كما هو متوقع..

هناك دائما من يجلس في صالة البيت.. هناك دائما من يجلس في الغرفة الفلانية.. فلا تجد مكانا تذهب إليه وتكون فيه وحيدا سوى الحمام.. نعم.. الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي.. لكنه يحتاج الخصوصية أحيانا كثيرة.. وإذا لم يحصل عليها فستغدو حياته جحيما!!!.

لذا فقد ساءت حالتي النفسية كثيرا!!!.. خاصة بعد أن لاحظت الاستياء على وجه ابنة عمي التي أشاركها غرفتها.. وهذا حقها بالطبع.. فأنا وهي لم نكن يوما صديقتين.. وبدا أن كل منا تعيش في عالمها الخاص.. حتى أنني سمعتها أكثر من مرة تشكو والدها (عمّي) وجودي معها وتطالب بغرفة خاصة لها.. فكنت أخبر أبي بذلك.. لكنه ظل يطلب مني أن أصبر فحسب.. أصبر إلى متى؟!.. لا أعلم.. فلم يكن لديه حل آخر!!!.

كان هذا قبل أن أسمع بالصدفة ابنة عمّي تتحدث مع شاب عبر هاتفها النقال.. حينها ثارت وغضبت وراحت تلعن الزمن الذي حرمها من خصوصيتها.. و.. راحت تردد ذلك الكلام الذي لا يمكن أن تعود بعده الأمور كما كانت عليه!!!.. عندها شعرت بإهانة بالغة بالطبع وقمت بالرد عليها بإهانات مماثلة.. فتطور الأمر إلى صراخ.. ثم اشتباك بالأيدي.. يليه تدخل أبي وعمي وباقي أفراد العائلة.. ولم تفتني بالطبع

نظرات الضيق والاحتقار من زوجة عمي التي كانت بمثابة الوقود لحريق قلبي!!!.

وانتهى بعدها الأمر بوقوفي أمام والدي في غرفته بشعر منكوش نتيجة الشجار.. وأنا ألهث وأبكي.. وأقسم وأرتجف غضبا بأنني سأبحث عن شقة لأعيش فيها حتى لا تهان كرامتي أكثر من ذلك!!!.

كانت هذه المرة الأولى التي أواجه فيها أبي بهذه الطريقة.. حتى شعر للحظة أنني سأصاب بانهيار عصبي لو رفض طلبي.. فوافق على مضض.. وإن كنت واثقة أن موافقته تلك قد جاءت فقط لامتصاص غضبي حينها.. ثم سيرفض الفكرة تماما بعد أن تهدأ أعصابي.

لكني قمت باستغلال موافقته الشكلية هذه على أفضل وجه.. فبعد أيام قليلة.. خرجت بهدوء وفي وقت متأخر من الليل دون استئذان -حاملة حقيبة ثيابي فقط- إلى مكان جديد عثرت عليه بالصدفة.. شقة صغيرة نظيفة مؤثثة تحوي غرفتين وفي مجمع سكني قديم في منطقة (السالمية) لكنها بدت لي قصرا فاخرا وأقرب إلى فندق 5 نجوم.. خاصة وأنها في دور مرتفع يجعلك تشعر بأمان طفولي محبب وانعزال جميل عن العالم سيشعرني بخصوصيتي ويعيد إلي كرامتي.

كنت واثقة أنني بهذه الطريقة سأضع أبي أمام الأمر الواقع.. خاصة حين اتصلت به فعليا مع ساعات الصباح الأولى وأخبرته أنني انتقلت للإقامة في شقتي الجديدة!!!.. و.. لكم أن تتخيلوا وقع ذلك الخبر عليه!!!.. فقد راح يشتم ويتوعد ويقسم أنه سيأتي ويجرني من شعري إلى بيت العائلة.. في حين اتصلت أمي بدورها وراحت تتحدث عن العار الذي سألصقه بها ومن هذا الكلام الممل المكرر!!!.. كيف عرفت أمي بالأمر؟!.. لا أعلم.. ربما من خلال أبي الذي لم يجدني حين استيقظ مبكرا واتصل بها ليسأل عني.. لكن هذا لم يهمني كثيرا.

الغريب أن وجودي بعيدا عن والدَيّ أعطاني القوة لأتحدث عبر الهاتف بثقة وجرأة واضحة وأخبرهما برغبتي في الحياة وحيدة.. وأنني أخذت منهما ما يكفي من المشاكل وعدم الاستقرار.. وأن القانون في صفي الآن كوني أعمل ولدي حياة مستقلة تماما.. فلا يحق لأحد أن يملي علي أوامره.. ولا أعرف في الواقع مدى صحة كلامي.. لكني كنت أتحدث بثقة غير مكترثة بالأمور القانونية.. المهم أن كلام أبي وتهديده كان متأخرا.. خاصة وأنني قد انتقلت فعليا للسكن في تلك الشقة.. إذ لم أحتج أن أنقل معي سوى ثيابي فقط كون الشقة مؤثثة كما ذكرت.

عشت أيامي الأولى في شقتي بهدوء وقد وجدت أن حياتي تتحول للأفضل وبسرعة ملحوظة.. فأذهب إلى عملي.. وأقضي بعدها معظم الوقت مع صديقاتي خارج الشقة ولا أعود إلا في التاسعة أو العاشرة مساء.. وكان هذا بمثابة العلاج النفسي الذي طالما بحثت عنه.. فكنت أستمتع أيما استمتاع بالذهاب إلى التسوق أو للسينما.. حتى أنني قد خططت مع إحدى صديقاتي للسفر لأوروبا في فترة الصيف!!.

لم يكن ينكد علي حياتي ويثير غصة في حلقي سوى أبي الذي أقسم على المجيء إلى مقر عملي في البنك ليضربني ويجرني من شعري أمام الجميع ويأخذني إلى البيت.. وقد أخافني هذا كثيرا في البداية.. فكنت أترقب حضوره يوميا.. إلا أنه لم يفِ بقسمه هذا.. حتى بدا لي وكأنه تقبل الأمر الواقع بعد مرور 4 أيام فحسب على سكني وحيدة.. وشعرت أنه ربما يكون سعيدا بخروجي من بيت العائلة.. فعلى الأقل انتهت المشاكل والخلافات التي كان يسببها وجودي في غرفة ابنة عمي.. لكنه فعل كل ما فعله من غضب وقسم فقط ليثبت أن أمرا كهذا غير مقبول لديه!!!.

بالطبع كل ما قلته لم يكن سوى مقدمة أشرح فيها سبب انتقالي للسكن وحيدة في شقة.. حسنا.. متى بدأت الأمور

تتخذ منحىً مختلفاً؟!.. متى بدأت قصتي فعلياً؟!.. كان هذا في صباح يوم السبت وقد مضى على انتقالي للشقة الجديدة أقل من أسبوع.. أتذكر أنني استيقظت من النوم وخرجت من غرفتي بثياب النوم المريحة التي أرتديها.. أتثاءب بكسل لذيذ مستمتعة بالهدوء الذي أعيشه مؤخرا.. ثم اتجهت بعدها إلى المطبخ لأعد لنفسي طعام الإفطار.. لأجد مفاجأة مخيفة غريبة أطارت كل أثر للنوم من عيني في لحظة واحدة!!!.

حسنا.. عندما دخلت المطبخ.. وجدت أن شخصا ما قد اقتحم شقتي وقام بإعداد وجبة خفيفة لنفسه أثناء نومي وتناولها على طاولة المطبخ!!!.. هكذا بكل بساطة.. ووقاحة!!!.. بل إن ذلك الدخيل لم يقم حتى بتنظيف الأطباق لإخفاء أثر اقتحامه لشقتي مثلا!!!.. فهذا طبق وجدت عليه بقايا فول.. وآخر يحوي بقايا البيض المخفوق!!!.. حسنا.. أنا لم أتناول عشائي في شقتي بالأمس.. بل كنت مع صديقاتي.. وعندما عدت في المساء دخلت المطبخ لأخذ علبة مشروبات غازية.. ولم أعد لنفسي أي وجبة!!.. أنا واثقة من ذلك.. الأمر واضح.. هناك من تسلل إلى شقتي في وقت متأخر من الليل أثناء نومي.. وأعد لنفسه طعاما التهمه بكل راحة بال ثم خرج!!!.. أعرف كيف يبدو عليه الأمر من غرابة.. لكن هذا ما حدث!!!.

لا يمكن أن أصف لكم شعور الخوف الذي سيطر علي وجمدني في مكاني للحظات.. هل تتخيلون شعور المرء حين يكون نائما في مسكنه الذي يعده أكثر الأماكن أمنا في العالم.. ثم يستيقظ ليجد أن أحدهم اقتحم خصوصيته وأعد لنفسه وجبة عشاء تناولها بكل برود وخرج؟!!.. لا يمكن أن أشرح لكم كيف انهار حاجز الأمان في حياتي فجأة.. خاصة وأنني لم أنتقل للإقامة هنا إلا منذ أقل من أسبوع فحسب!!!.

توجهت إلى الهاتف بذعر حقيقي للاتصال بالشرطة.. لكن.. تذكرت أن من فعل ذلك ربما لا يزال مختبئا في مكان ما في الشقة!!!!.. اقشعر بدني من هول الفكرة.. فتصرفت بسرعة.. إذ ارتديت أول ما وقعت عليه يدي في الدولاب وأخذت هاتفي النقال ثم خرجت وكأن شياطين العالم كلها تطاردني!!.. وما أن نزلت إلى الطابق الأرضي حتى اتصلت بالشرطة وأخبرتهم أن أحدهم قد اقتحم شقتي وأن عليهم المجيء حالا!!!!.

ظللت أنتظر وصولهم عند باب العمارة والقلق ينهش قلبي.. أفكر بتلك الحادثة الغريبة غير المفهومة التي لم أقرأ أو أسمع عن شيء يماثلها يوما.. و.. بعد ربع ساعة تقريبا.. كان يقف أمامي رجلا شرطة لا أعرف رتبتهما.. لكن ثيابهما

العسكرية أشعرتني ببعض الأمان.. ورحت أتحدث معهما وأخبرهما عن الاكتشاف الغريب الذي عثرت عليه في شقتي.

كان كلامي غريبا بالفعل.. وبدا من ردود أفعالهما وأعينهما المتسعة أنهما لم يسمعا بحادثة كهذه من قبل.. بل وأخبرت الشرطيين أيضا عن قلقي من أن المقتحم قد لا يزال مختبئا في مكان ما في الشقة.. فاستأذنا مني الدخول ومعاينة المكان بنفسيهما.

لحظات قليلة قبل أن أقودهما إلى داخل الشقة حيث راحا يفتشان كل ركن منها.. حتى إنني سمحت لهما أن يدققا ويبحثا في أكثر الأماكن خصوصية في حياتي وهو دولابي.. لكن.. لا شيء بالطبع.. فأخبرني أحدهما أنه سيسجل بلاغا.. وأن علي الاتصال بهما مباشرة إذا ما تكرر الأمر!!!.

فتحت فمي لا شعوريا.. وقلت برعب حقيقي:

- فقط؟!.. هذا كل ما ستفعلانه؟!!

رد أحدهما بشيء من الحزم:

- لا يوجد ما نستطيع فعله يا سيدتي.. لقد فتشنا الشقة كلها كما ترين ولم نجد فيها أحدا.. كما أننا سنأخذ معنا الطبقين اللذين وجدتيهما على المنضدة في المطبخ

لمعاينة البصمات.. ولو كانت متطابقة مع مجرم له سجل عندنا فسنعثر عليه بالتأكيد.. لكن.. ضعي في الاعتبار أن ذلك المقتحم ربما يكون أحد أقاربك مثلاً وقد دخل شقتك أثناء غيابك.. لم لا تسألينهم؟!.

قلت بحدة مفرغة كل انفعالاتي:

- أقاربي وصديقاتي لا يعرفون مكان سكني.. فأنا لم أنتقل للإقامة هنا إلا منذ بضعة أيام فحسب!!!.. ولم أدعُ أي أحد إلى الشقة من قبل!!!.

قال ببساطة:

- لا يوجد ما يدل على أن هناك من حاول كسر قفل باب الشقة للدخول.. لذا فكلمة (مقتحم) قد لا تكون صائبة هنا.. من دخل شقتك يا سيدتي يملك المفتاح على الأرجح!!!.

صرخت بعصبية:

- حتى لو كان يملك المفتاح كما تقول.. ألم يكن الأجدر به دخول الشقة أثناء غيابي؟!.. لا يوجد أي معنى ليدخل ويعد لنفسه وجبة عشاء يلتهمها ببساطة دون أن يضع في الحسبان أنني قد أستيقظ في أي لحظة من نومي وأكتشف وجوده!!!.. بل ولا يفكر حتى بإزالة آثار اقتحامه.. كتنظيف الأطباق مثلا وإعادتها إلى مكانها.

هز كتفيه بما يعني أن كلامي منطقي.. لكنه وفي نفس الوقت لا يوجد ما يستطيع عمله.. ثم تنحنح.. وقال متجنبا النظر إلي:

- المعذرة.. لدينا أعمال كثيرة ويجب أن نخرج الآن.. اتصلي بنا لو حدث أي شيء آخر مريب!!!.

قالها وخرج مع زميله مسرعين دون أن ينظرا إلي حتى لا أستوقفهما.. رحلا وتركاني وحيدة.. عاجزة.. وهناك دمعة كبيرة متجمعة في عيني.. لم تلبث أن نزلت بهدوء شديد.. ترى.. كيف سيكون حالي الآن؟!!.. هل سأتمكن من النوم بعد هذه الحادثة الصغيرة المخيفة؟!!.. أترك الجواب لكم.. أنتم تعرفون صعوبة الأمر.. وتعرفون ما يعنيه انهيار الأمان اللذيذ الذي يشعر به المرء عادة في مسكنه الخاص.

لذا لا يمكن أن أنكر ذلك الشعور المخيف الذي سيطر علي في اليوم التالي رغم أنني قضيت أكثر الوقت خارج الشقة من شدة الخوف.. إذ عدت من عملي في البنك عصرا.. وأخذت حماما ساخنا جددت به نشاطي.. ثم خرجت مرة أخرى مع صديقاتي ولم أعد إلا ليلا وفي وقت متأخر هذه المرة.. فقط لأتجنب البقاء وحيدة في الشقة.. تسألونني لماذا لا أخرج من هنا وأقيم في مكان آخر مثلا؟!.. لأن ما حدث هز إحساسي

بالأمان في كل مكان في العالم.. فمن يدري ما سيحدث لو انتقلت للسكن في شقة أخرى!!!.. إنني أعيش في منطقة (السالمية).. وهي منطقة تجارية مزدحمة آمنة لا تحدث فيها تلك النوعية من الجرائم.. فما بالكم بحادثة اقتحام غريبة كهذه وكأنها رسالة صريحة بليغة من المقتحم يبلغني فيها أنه قادر على اللحاق بي أينما أذهب!!!.. هذا ما يوحي به الأمر.. ربما لهذا لم أفكر بالانتقال لمكان آخر.

نعم.. أعرف أن هناك تفسيرا واضحا لتلك الحادثة وهو ما يراود كل من يقرأ قصتي.. لكن.. ليس هو التفسير الصحيح.. لست أنا من فعل كل هذا دون أن أشعر بنفسي.. أنا لست مجنونة ولا أعاني من فصام في الشخصية.. وواضح أيضا أن الشقة ليست مسكونة بالأشباح مثلا.. فلا توجد أشباح تعد لنفسها وجبة عشاء!!!.. ولا أعتقد أن أبي أو أمي فعلا ذلك لإخافتي بتلك الطريقة الطفولية.. فلو وصل أبي إلى شقتي سيجرني من شعري إلى البيت بكل تأكيد.. ربما خجل من اقتحام البنك وضربي أمام الناس.. لكنه لن يخجل من فعلها لو عرف مكان شقتي.. دعكم من أنني مقتنعة تماما أنه مرتاح في قرارة نفسه لسكني وحيدة وابتعادي عن بيت العائلة كما ذكرت سابقا.

المهم أنني لجأت إلى آخر الحلول عالمة أنه حل غير مجد أصلا.. وذلك حين سألت حارس العمارة إن كان قد لاحظ شيئا غير مألوف.. لكن.. الحارس شيخ في أرذل العمر يقضي أغلب وقته في غرفته ولا يستطيع أن يميز أحدا من سكان العمارة.. إذ عرفت أنه قد خدم مالك العمارة لسنوات طويلة.. ويبدو أن العشرة لم تهن على المالك فأعطاه وظيفة الحارس.. وإن كان إطلاق لقب (حارس) على رجل قد يموت لو دفعته بيدي أمرا مضحكا.

قضيت بعدها الليلة التالية من تلك الحادثة وحيدة في شقتي عاجزة تماما عن النوم.. متدثرة تحت اللحاف وفي وضع جنيني يثير الشفقة.. حيث ضممت ركبتي إلى صدري من شدة الخوف ورحت أرتجف بقوة.. و.. لن أكذب وأدّعي أنني لم أفكر في العودة للسكن عند أبي أو أمي.. لكني كنت أتذكر دوما أنهما قد لا يسمحان لي بالخروج مرة أخرى والإقامة بمفردي إذا ما ساءت الأمور عندهما.. وربما سيضع أبي قيودا كثيرة على حياتي ليحيلها جحيما أكثر مما كانت عليه.. فكان هذا الهاجس الأكبر الذي يمنعني من الاتصال بهما.

و.. نمت أخيرا من شدة الإرهاق.. خاصة وأن علي الاستيقاظ مبكرا للذهاب إلى العمل.. أنتم تعرفون جيدا

طبيعة العمل في البنوك.. عمل صارم كجميع القطاعات الخاصة تقريبا.. وليس من السهل الحصول على إجازة مرضية مثلا كي أتفرغ للتفكير بما يحدث حولي.. هذا ترف غير متاح لموظفي القطاع الخاص.

المشكلة أن الأمور لم تقف عند هذا الحد.. إذ استيقظت من نومي القلق لسبب ما.. شيء غريب جعلني أنتفض من فراشي واستيقظ فجأة.. ما هو؟؟!.. لا أعلم.. ظللت أتقلب في مكاني بتوتر.. قبل أن أخرج تماما من عالم الأحلام وأتذكر سبب استيقاظي المفاجئ.. نعم.. نعم.. لقد سمعت صوت أحدهم يفتح باب غرفتي.. ثم يغلقه بهدوء!!!.. بالفعل.. هذا ما أيقظني.. إذ شعرت بأنوار الصالة تدخل غرفتي المظلمة فجأة.. لكنها اختفت سريعا حين أغلق ذلك الدخيل الباب!!!.. هل هو موجود في الغرفة الآن؟!!.

سيطر علي الرعب تماما حتى شعرت أن وزني قد زاد فجأة وأصبحت عاجزة عن النهوض من الفراش.. بل وعاجزة حتى عن رفع اللحاف من على وجهي لأرى إن كان هناك أحد في الغرفة!!!.. أخذت أنفاسا عميقة ووضعت يدي على قلبي بعض الوقت محاولة التنفس بانتظام.. ثم.. استجمعت شتات نفسي وأبعدت اللحاف عن وجهي ببطء وجسدي يرتجف

بأكمله.. أنظر حولي بتوتر شديد وقلب منقبض وقد اعتادت عيناي الظلام.. لكن.. الغرفة خالية تماما.. هل كنت أحلم؟!!.. لا أعتقد.. من الذي فتح باب غرفتي إذا؟!!.. من الذي يتلاعب بي بهذه الصورة الغريبة؟!!.. نهضت من فراشي وقد بدأت ألعن اللحظة التي تجرأت فيها على الخروج من بيت العائلة والإقامة هنا وحيدة.. فمهما كانت المشاكل هناك.. على الأقل سأكون بمأمن مما يحدث حولي.

أمشي ناحية الباب بجسد مرتجف يتصبب منه العرق بغزارة رغم برودة الغرفة بفعل جهاز التكييف.. ثم.. أضع أذني على الباب.. أحاول أن أكتم أنفاسي وأسترق السمع؟!.. هناك صوت مريب.. أحدهم يتحدث.. صوت هامس مخيف.. هذا صوت الجن؟؟!!.. لا يوجد تفسير آخر.. الشقة مسكونة.. التصقت بالحائط وأنا أرتجف بقوة.. هل أتصل بالشرطة مرة أخرى؟!.. سيكون موقفي سخيفا للغاية لو وصلوا ولم يعثروا على شيء!!!.

مهلا.. الهدوء يسود الصالة تماما الآن.. هل خرج المقتحم؟!!.. آمل ذلك.. استجمعت شجاعتي وفتحت الباب بحذر شديد وبيد مرتجفة.. ثم مشيت ناحية الصالة ممسكة بمبرد للأظافر وجدت أنه السلاح الوحيد المتوفر في غرفتي.. وكانت صدمة جديدة!!!.

لقد كانت الصالة خالية تماما.. لكن التلفزيون يعمل!!!.. وهذا -بالمناسبة- أكبر مخاوفي منذ الطفولة.. جميعنا لديه مخاوف طفولية.. هناك من يخشى الظلام.. وهناك من يخشى المرايا.. أما أنا فكنت أخشى كثيرا ذلك المنظر.. أن تخرج إلى الصالة في وقت متأخر ليلا لتجد التلفزيون يعمل وحده ولا يوجد من يشاهد!!!.. ولو كان بالي رائقا للمزاح لضحكت من سخرية الموقف.. فاللقطة التي لمحتها كانت لفيلم (الصرخة) الشهير.. ولفتاة تركض هاربة من قاتل ما يرتدي ذلك القناع الأبيض المخيف الذي أصبح علامة فارقة في أفلام الرعب!!!.. وكأن التلفزيون يجسد الواقع الذي أعيشه الآن.. وهذا ما ضاعف مخاوفي إلى حد لا يمكن تصوره.. فراح قلبي يخفق بعنف وبشكل لا يوحي أبدا أنني كنت نائمة منذ لحظات قليلة!!!.

ماذا فعلت بعد ذلك؟!.. عدت إلى غرفة النوم وأخذت هاتفي النقال.. ثم توجهت بثياب النوم إلى باب الشقة.. سأنزل إلى الدور الأرضي لأشعر بالأمان وأتصل بالشرطة مرة أخرى من هناك.. يجب أن يجدوا حلا لمن يقتحم شقتي بهذه الوقاحة.. وإن لم يفعلوا فسأخرج منها.. لا أستطيع أن أعيش هذا الرعب بعد الآن.. أسبوع واحد تقريبا جعلني أكره الحياة بأكملها في هذا المكان الملعون.. لكن.. عندما اقتربت من باب الشقة للخروج.. رأيت شيئا أصابني بحالة هلع حقيقية!!!.

أنا لم أشعر بالخوف في حياتي مثل هذه المرة.. إذ رأيت مقبض باب الشقة يدور.. أحدهم يريد أن يدخل!!!.. أرى مقبض الباب يستدير ببطء شديد.. هل تشاهدون أفلام الرعب؟!!.. أنا لا أحبها كثيرا.. لكن ذلك المشهد عالق في أذهاننا جميعا.. حين تنتبه الفتاة الوحيدة فجأة إلى أن أحدهم يريد أن يدخل شقتها.. فتذهب بكل غباء لمعرفة هوية المقتحم المجهول!!!.

حسنا.. أنا لم أتصرف بهذا الغباء.. بل فعلت شيئا ربما يكون أغبى.. لكن هذا ما خطر بذهني حينها.. إذ أمسكت بهاتفي النقال وجريت كالمجنونة لأختبئ في دولاب غرفة النوم بين الثياب.. ثم أغلقت على نفسي الباب.. هل هو تصرف غبي؟!!.. بالتأكيد.. فأول ما يبحث عنه اللص عادة -لو كان المقتحم لصا- هو دولاب الثياب.. لكن.. من يقتحم شقتي ويعد لنفسه وجبة بكل برود واستهتار هل سيمنعه عني اختبائي في الدولاب؟!!.. بالتأكيد لا.. وهل من اقتحم شقتي في المرة الأولى هو نفس الشخص الذي دخلها قبل قليل ويحاول أن يدخلها الآن؟!.. لا أعلم.

أشعر أن حتى اختبائي في الدولاب لا معنى له.. لكن.. ربما هو ذلك الشعور الطفولي بالأمان حين كنا نخبئ وجوهنا

ظنا منا أن أحدا لن يرانا بهذه الطريقة!!.. الفارق أنني هذه المرة لم أشعر بالأمان بالطبع.. لذا فقد كنت منزوية على نفسي في زاوية الدولاب أرتجف بعنف وأنا أضغط على أرقام هاتفي بتوتر شديد.. ثم:

- ألو..

قلتها بهمس أكاد أنا نفسي لا أسمعه.. حاولت أن أرفع صوتي قليلا كي يسمعني الطرف الآخر:

- أرجوك أنقذني.. أحدهم يحاول اقتحام شقتي.. النجدة.. النجدة!!!.

رد الطرف الآخر بسرعة:

- على مهلك يا سيدتي.. ما هو عنوانك؟!.. أخبريني بسرعة وسأرسل دوريات الشرطة إلى مكانك.. حاولي أن تختبئي لحين وصول رجال الشرطة.

قلت بهمس وبتوتر بالغ:

- عنواني هو (......) أرجوكم أسرعوا.. اقتحموا الشقة فحسب دون طرق الباب.. فلن أتمكن من الخروج من الدولاب لأفتح لكم.. مهلا.. مهلا.. إنني أسمع وقع أقدام أحدهم وهو

يقترب.. إنني....

لم أكمل عبارتي.. بل خرست تماما وأنا أسمع الصوت على الطرف الآخر من الهاتف يقول بحدة:

- مهلا.. عنوانك مسجل لدينا.. لقد اتصلت بنا سابقا.. وأرسلنا لك الشرطة لكنهم لم يعثروا على شيء.. لا وقت لدينا لهذا العبث.. لا تتصلي مرة أخرى وإلا قبضنا عليك بتهمة إزعاج السلطات.

هذا الأحمق لا يصدقني.. لكن.. لم أجد الوقت لأرد عليه.. حتى إنني اضطررت لضغط زر إنهاء المكالمة كي لا يسمع المقتحم صوتي.. يا إلهي.. أشعر بوقع خطواته.. أكاد أسمع أنفاسه تقترب من باب الدولاب.. هل يبحث عني؟؟!!.. هل يحاول الوصول إلي.. أم أنه يريد أن يسرق مقتنيات شقتي فحسب؟؟!.. أطرح سؤالي مرة أخرى.. هل هو نفس الشخص الذي أعد لنفسه وجبة والتهمها في شقتي؟!!.. هل هو نفس الشخص الذي اقتحم شقتي منذ قليل وقام بتشغيل جهاز التلفزيون ثم خرج؟!.. لا أعلم!!!.. تصرفات غريبة مخيفة من ذلك المقتحم المجهول!!!.

هل سأنتظر هنا حتى الصباح؟؟!!.. وهل سيأتي الصباح أصلا؟!!.. يجب.. يجب أن أتصل بالشرطة مرة أخرى لإقناعهم

بالقدوم وإنقاذي.. سأفعل ذلك حال ابتعاد ذلك المقتحم بكل تأكيد.. لكني لا أفهم.. لماذا توقف عند باب الدولاب كل هذه المدة؟!.. وكأنه.. وكأنه يريد إثبات وجوده بكل وقاحة!!!.

كم مضى من الوقت وأنا غارقة في تلك الخواطر عاجزة عن اتخاذ قرار سليم؟!.. ربما ربع ساعة.. لكنها بدت لي شهرا!!!.. خاصة وأن جسدي قد غرق تماما في العرق.. قبل أن.. قبل أن أسمع صوت وقع أقدام تدخل الشقة دون حذر هذه المرة.. يبدو أنهم رجال الشرطة.. الأصوات تقترب كثيرا من باب الدولاب.. ثم:

- سيدتي.. سيدتي.. نحن رجال الشرطة.. أخرجي أرجوك!!!.

أخيييرا.. دفعت باب الدولاب من الداخل بيد متوترة متعرقة.. لأجد.. لأجد 4 من رجال الشرطة بالفعل.. شعرت حينها بأمان وزفرت بقوة وقد تنفست الصعداء بعد لحظات مرعبة كادت أن توقف قلبي!!!.. أخيرا الهواء الطلق ينساب على وجهي كالبلسم.. لكن.. حدثت مفاجأة لم أتوقعها أبدا.. حين أمسك أحد رجال الشرطة بيدَيّ.. ووضعهما في الأصفاد دون أي اعتراض مني لهول المفاجأة!!!.. بل وكانت علامات الغباء وعدم الفهم واضحة على ملامحي.. لماذا يقيدني أنا؟؟!.. لا أعلم.. وقبل أن أطرح هذا السؤال.. انتبهت إلى وجود امرأة

شقراء برفقة رجال الشرطة.. لا.. لم تكن شرطية.. بل ترتدي ثيابا غريبة شاهدتها مرارا لكن لا أذكر أين.. ثم سمعتها تقول للشرطة بصوت متوتر يشوبه الذهول وبلغة انجليزية:

- لقد أخبرتكم أن أحدهم يعيش في شقتي!!!!!.. لقد أخبرتكم أن أحدهم يعيش في شقتي.. لكنكم لم تصدقوني .. هل تصدقوني الآن؟!!!!.

ما الذي تقوله هذه المجنونة؟!.. إنها شقتي أنا.. هل هي النصابة التي اقتحمت شقتي سابقا.. هل هي التي قامت بتشغيل جهاز التلفزيون؟!!.. هل هي التي فتحت باب غرفتي أثناء نومي وخرجت بسرعة؟!!.. اللعينة.. يبدو أنها أقنعت رجال الشرطة أنها صاحبة الشقة وأنني أنا من اقتحم شقتها!!!.. التفت ناحيتها بحدة.. وهممت بالهجوم عليها بيدي المكبلتين وأنا أصرخ:

- من أنت أيتها اللعينة؟؟!!.. إنها شقتي أنا.. كيف تمكنت من الكذب على رجال الشرطة وإقناعهم بأكاذيبك؟!!.. كيف؟؟!.

لكنهم لم يسمحوا لي بالاقتراب منها.. بل أمسكوا بي بقوة في حين تراجعت هي إلى الخلف وهي تنظر إلي بذعر!!!.. و.. اقتادني رجال الشرطة إلى المخفر أخيرا.. حيث رحت أقسم

للمحقق إنها شقتي أنا.. وأنني قد اتصلت في رجال الشرطة قبل هذه المرة وأخبرتهم أن أحدهم اقتحم شقتي.. بل وسجلت قضية بالفعل.. لكن.. كان المحقق ينظر إلي.. وينظر إلى مجموعة من الأوراق الموجودة أمامه دون أن يرد.. حتى أنه جعلني أنتظر في غرفته حوالي ساعة أو ربما أكثر.. قبل أن يتحدث أخيرا.. ويأمر رجال الشرطة أن يأخذوني إلى مستشفى الطب النفسي وسط اعتراضي وصراخي وبكائي شاعرة أنني مظلومة إلى أبعد الحدود.

وها أنا بعد بضعة أسابيع من وصولي للمستشفى وإقامتي فيه.. ما زلت أجهل سبب وجودي هنا.. وما زلت أجهل تفاصيل تلك القصة الغريبة.. لكني أعرف يقينا أن تلك الفتاة بثيابها الغريبة كانت نصابة.. أنا واثقة من ذلك.. ولا أعرف حتى الآن كيف أقنعت رجال الشرطة بأنها صاحبة الشقة على حد قولها.. وأنني أنا من كنت أعيش في شقتها على حد قولها.. لا أعلم لماذا صدقوها ولم يصدقوني رغم صراخي وبكائي وتوسلاتي لهم أن يستمعوا إلي ويأخذوا بكلامي.. ورغم أنني رجوتهم أن يتصلوا بأبي وأمي كي يتأكدوا أنني لست مجنونة.. لكن كل هذا لم يجدِ.. بل وجدت أفراد عائلتي الذين يزوروني في المستشفى ينظرون إلي بأسى وكأنني مجنونة بالفعل.. حتى إنني بدأت أشك في سلامة عقلي وأتساءل:

من أنا إذاً؟!.. من أنا؟!!.. هل أنا مجرد روح خاوية ضائعة؟!!.

لكني أطرد تلك الأفكار الانهزامية سريعا.. فأنا لم ولن أتوقف أبدا عن محاولة إثبات أنني صاحبة تلك الشقة.. ولن أتوقف عن إقناع الجميع بصدق كلامي.. وها أنا أكتب قصتي كاملة كما طلب مني الطبيب.. آملة أن تصل إلى الناس.. آملة أن يصدقني أحد منكم.

عزيزي القارئ.. ربما تكون أحداث القصة السابقة قد اتضحت أمامك إلى حد ما.. إلا أنك تحتاج على الأرجح لمزيد من الشرح.. وهذا حقك.. فالأمور ما زالت مبهمة وغير واضحة بصورة كافية.. لقد حاولت التحدث مع بطلة قصتنا (نادية) أكثر من مرة لأفهم منها تفاصيل ما حدث.. فكانت تصاب بحالة هستيريا وتصرخ وتشتم الجميع وتتهمني أنا بالجنون وأنها عاقلة تماما.. لذا وجدت أن الحل الأفضل هو أن أطلب منها أن تكتب لي قصتها.. وقد طلبت من أفراد عائلتها أن يقنعوها بذلك.. فكتبت قصتها بالفعل وها أنا أنشرها لكم.

لقد استمعت إلى كلام رجال الشرطة الذين زودوني بملف حياة (نادية) كاملا.. وقرأت التحقيق الذي أجري معها.. لأعرف أخيرا أنها كانت تعيش في تلك الشقة مع والديها بالفعل..

قبل أن ينفصلا منذ بضعة شهور ليعيش كل منهما حياته الخاصة.. وعرفت أيضا أنها عانت الكثير قبل طلاق والديها.. ولم تتوقف تلك المعاناة حتى بعد طلاقهما وانتقالها للإقامة مع والدها في بيت العائلة.. هذا ما ذكرته هي بنفسها في قصتها التي قرأناها معا.. وبسبب تلك المشاكل والاضطرابات المستمرة التي عاشتها بين خلافات والديها وشجارهما الدائم.. أصيبت المسكينة مع مرور الوقت بمرض نفسي يطلق عليه اسم: (الشرود الهستيري) (Fugue)*.

وكما هو واضح من الاسم.. تتمثل أعراض هذا المرض في الشرود أحيانا كثيرة.. فلا يرى المريض من الواقع سوى ما يريد ويرغب أن يراه فقط.. أما الباقي من الحقائق والتي يكرهها ولا يرغب أن يعيشها.. فتجده لا شعوريا يلغيها من عقله ويحاول أن يكوّن لنفسه عالماً من الأوهام بما يتناسب مع ما يريده من اطمئنان.. لقد كانت (نادية) تحن كثيرا لأيام الطفولة قبل بدء مشاكل والديها التي انتهت بالطلاق.. لذا.. وبدافع نفسي من عقلها الباطن.. وبسبب إصابتها بهذا المرض.. ذهبت لشقة والديها القديمة التي أقامت معهما فيها قبل طلاقهما.. لتقيم فيها مرة أخرى!!!!.. وقد كان هناك خطأ

---

* مرض نفسي حقيقي.

فادح وقع فيه حارس العمارة.. إذ لم يغير قفل باب الشقة أبدا.. لكننا سنفهم السبب حين نتذكر ما قالته (نادية) في قصتها عندما ذكرت أن الحارس رجل كبير في السن منحه صاحب العمارة تلك الوظيفة فقط كنوع من العرفان بالجميل.. المهم أنها -وبسبب مرضها النفسي- ظنت أن الشقة لها.. خاصة وأنها ما زالت تحتفظ بالمفتاح كذكرى.

لقد كانت (نادية) تسكن في شقة مأهولة أصلا.. تعيش فيها فتاة أخرى!!!!.. فلم ترَ مثلا أن دولاب الثياب تغير وأصبح يحوي ثيابا أخرى ليست لها.. ولم تنتبه إلى أي تغييرات في المكان بعد طلاق والديها وتركهم جميعا للشقة.. لأنها لا ترى سوى ما تريد أن تراه وتشعر خلاله بالاطمئنـان.. لكنها رأت بقايا العشاء والعبث بجهاز التلفاز كما علمنا لأنها متغيرات حدثت بعد أن كونت في ذهنها الصورة التي تريدها للشقة!!!.

كيف لم تكتشف الفتاة الأخرى أن (نادية) تعيش في شقتها طوال أسبوع؟؟!!.. لأنها أوروبية الجنسية تعمل مضيفة في إحدى شركات الطيران.. هل تذكرون حين قالت (نادية) أن الفتاة التي كانت برفقة رجال الشرطة ترتدي ثيابا غريبة؟؟!.. نعم.. كانت ترتدي ثياب مضيفة الطيران وقد عادت من عملها للتو.. فقد قامت تلك المضيفة باستئجار

الشقة المؤثثة.. ولم تكن تزورها كثيرا بسبب طبيعة عملها الذي يتطلب سفرها الدائم.. لذا لم تدخل الشقة سوى مرتين فقط منذ انتقال (نادية) للسكن فيها.. في المرة الأولى دخلت الشقة وأعدت لنفسها عشاء بسيطا.. التهمته وخرجت بعدها لقضاء الليلة مع مجموعة من صديقاتها المضيفات.. فعلت ذلك دون أن تدخل غرفتها ودون أن تعلم أن هناك من يقضي ليلته فيها!!!.. فقد كانت معها حقيبة سفرها والتي تحوي كل ما تحتاجه لقضاء الليلة مع صديقاتها.. ومن ثم السفر مرة أخرى في اليوم التالي كحال المضيفات.. شعور مروع أن تتناول وجبة العشاء في شقتك بأمان دون أن تعلم أن هناك فتاة مختلة عقليا تنام هادئة البال في غرفة نومك ظنا منها أنها في شقتها!!!.

أما في المرة الثانية.. فقد وصلت المضيفة من السفر متأخرة وقامت بتشغيل جهاز التلفزيون.. ثم دخلت غرفتها لتصاب بحالة ذعر لا حد لها حين لاحظت في الظلام وجود فتاة مجهولة نائمة بكل براءة وبساطة في فراشها!!!.. فخرجت وهي في حالة رعب واتصلت بالشرطة لتبلغهم بذلك.. نعم.. تماما كما تظنون.. عندما جاء رجال الشرطة في المرة الأولى بوجود (نادية).. ظنوا أنها هي صاحبة الشقة!!!.. لكنهم انتبهوا بعد ذلك أن المتصلة في المرة الثانية تختلف رغم أن العنوان واحد..

بل وكلمتهم بلغة أجنبية وأعطتهم اسما آخر يختلف عن اسم (نادية) بطبيعة الحال.. رغم أن الفتاتين أكدتا أثناء الاتصال أن كل منهما تعيش وحيدة في الشقة!!!.

لذا هرع رجال الشرطة لفهم ما يحدث في هذه الشقة.. ليجدوا (نادية) مختبئة في الدولاب.. وعرفوا أنها إما أن تكون نصابة.. أو -على الأرجح- مختلة عقليا.. وتأكدوا من ذلك سريعا من عقد الإيجار الذي يحمل اسم المضيفة.

عزيزي القارئ.. يقولون إن الصدق والحب دائما يكونان في خانة واحدة ومن عالم واحد.. لكن.. ماذا لو كان الإنسان يحب الأكاذيب؟؟!.. لقد أصيبت (نادية) بمرض نفسي جعلها تعشق الأكاذيب كونها تبعدها عن واقع حياتها المؤلم.. فعندما يصبح الحاضر سيئا.. يهرع الإنسان ليعيش في الماضي.. ولا يوجد حينها أجمل من العودة إلى مكان قديم لم يتغير.. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستبعده عن الواقع المر.. وهو أن كل شيء حوله يتغير.. وإلى الأسوأ!!!.

جارنا الذي يدفن القطط!!

تحكيها: مجهولة رفضت الإفصاح عن اسمها

لا أذكر اليوم الذي بدأت فيه أحداث هذه القصة.. لكن أتذكر جيدا أن الساعة كانت تتجاوز الحادية عشرة مساء بقليل.. حين كنت جالسا في مكتبي وقد بدأت أخشى ساعات العمل المتأخرة كونها دائما ما تحمل في طياتها مفاجآت وقصصا غريبة لا تخطر ببال، وتصيبني شخصيا بكوابيس تجعلني عاجزا عن النوم.. حتى إنني حاولت أن أزيل هذا التوتر الذي بات يصيبني مؤخرا بمحاولة الاسترخاء وتخفيف الإضاءة في مكتبي.. ومن ثم الاستماع إلى موسيقى كلاسيكية هادئة كانت في السابق تجعلني أشعر أنني أطير بين النجوم.. لكني فشلت بالاندماج معها شاعرا أن حياتي تصطبغ كلها باللون الرمادي بسبب تلك الأسرار المخيفة التي يلقيها الناس على مسامعي طالبين مني إيجاد حلول لمشاكلهم.. حتى لتشعر أن الخير قد اختفى تماما من عالمنا.

إن العمل كطبيب نفسي أشد صعوبة من عمل الضابط في المخفر.. فهناك على الأقل يحاول المتهم تحسين صورته وادعاء البراءة.. وأحيانا يكون على حق.. أما في مستشفى الطب النفسي فالأمر يختلف تماما.. ستستمع إلى ضحايا.. وإلى جلادين.. وجميعهم يحكون لك قصصا حقيقية تقض مضجعهم وتوتر حياتهم.. وكل هؤلاء يطلبون منك المساعدة ويتطلعون إليك كأمل أخير لحل مشاكلهم!!!.

المعذرة لو كنت قد استطردت قليلا بعيدا عن أحداث القصة.. ماذا كنت أقول؟!!.. نعم.. كانت الساعة تتجاوز الحادية عشرة مساء.. حين شعرت بطرقات رقيقة على باب مكتبي.. فأوقفت تشغيل الموسيقى قبل أن أتنحنح وأسمح لمن يطرق الباب بالدخول عالما أنه على الأرجح زائر جديد يحتاج إلى مساعدة.. وليست الممرضة مثلا أو أحدا من إدارة المستشفى.. فهؤلاء لا يدخلون غرفتي في هذا الوقت.. ولو احتاج أحدهم شيئا لاتصل بي.

المهم.. فُتح باب مكتبي.. لأفاجأ بفتاة منتقبة -أو (منقّبة) كما نقول في (الكويت)- فتاة منتقبة تزورني وحدها في هذه الساعة المتأخرة؟!!.. أمر يثير علامات الاستفهام بكل تأكيد.. كانت نحيلة الجسد إلى حد ما.. قصيرة نسبيا.. هذا كل ما أستطيع قوله بشأنها.. إذ لم أستطع أن أستشف أي انطباع من عينيها وحدهما.

رحبت فيها باحترام كعادتي وطلبت منها الجلوس.. فجلست مباشرة في المقعد المقابل لمكتبي والذي جلس عليه آخرون قبلها.. ثم.. بدا لي أن إخفاء وجهها قد منحها راحة نفسية للحديث وقول كل ما تريده دون خجل .. إذ تحدثت فجأة دون مقدمات وبصوت رقيق للغاية:

- دكتور.. أنا لست منتقبة.. لكني ارتديت النقاب خوفا من كشف شخصيتي!!!.

هذا أمر معتاد.. قلت مبتسما ومكررا تلك الجملة الخالدة التي أقولها لكل مريض تقريبا:

- أنت في مستشفى.. هذا مكان للعلاج لا يفترض أن يخجل منه أحد رغم النظرة السيئة لمستشفى الطب النفسي في مجتمعنا!!!.

بدا أن كلامي لم يعنِ لها شيئا.. لذا فقد نظرت إلي بعمق.. ثم قالت:

- هل تعدني بالسرية وألا تبوح بقصتي لأحد مهما كان ما ستسمعه مني؟!!.

قلت مبتسما مكررا مرة أخرى ما أقوله دائما:

- هذا من صميم عمل الطبيب النفسي.. حتى لو ارتكبت جريمة فلا يحق لي الإبلاغ عن مرضاي وخيانة الأمانة.. قد يكلفني هذا مهنتي.. إنك بمأمن هنا.. تأكدي من ذلك.

بدا لي وكأنها تتنهد بارتياح خلف نقابها.. قبل أن تقول:

- لا أجد حرجا من إخبارك بقصتي إذا.. إن أحداث

قصتي قديمة إلى حد ما.. بدأت وانتهت منذ حوالي عامين.. لكن ما زالت تفاصيلها تطاردني حتى اليوم.. إن الكوابيس تنتابني بشكل مستمر أثناء نومي.. بل حتى في يقظتي!!!.. هل سمعت في حياتك عن كوابيس اليقظة؟؟!!.. لقد تحولت حياتي إلى كابوس يا دكتور.. أريدك أن تساعدني أرجوك.

أومأت برأسي متفهما متعاطفا.. وأشرت لها أن تكمل.. ثم:

- حسنا يا دكتور.. بدأت أحداث قصتي منذ عامين كما أخبرتك.. كنت حينها في الثامنة عشرة من العمر.. في مرحلة الثانوية العامة.. أنت تعرف الأجواء المسمومة التي تصاحب فترة الاختبارات النهائية.. مستقبلك بأكمله يتوقف على تلك الأيام القليلة.. فتفقد التركيز وتفقد كل لذة في الحياة.. وكأنك أمام اختبار نتيجته هي موتك أو حياتك.. حتى لتشعر أنك لن تصل أبدا إلى الحياة ما بعد مرحلة الثانوية!!!.. ولا يخفى عليك بالطبع حالة الاستنفار من قبل والدَيّ.. فلو شاهداني ذاهبة إلى الحمام تجدهما يصرخان بي ويطلبان مني العودة للمذاكرة.. حياة تذاكر فيها 10 ساعات يوميا ليست بحياة.. إنها كابوس حقيقي!!!.

كنت أنظر إليها دون تعليق وأنا أعلم جيدا أن كل ما

قالته هو مقدمة فقط للقصة الحقيقية.. فلا يمكن أن تزورني في مثل هذه الساعة المتأخرة للشكوى من اختبارات الثانوية العامة وتأثيرها على نفسية الإنسان!!!.

صمتت الفتاة للحظات قبل أن تردف:

- كنت أذاكر حتى الخامسة أو السادسة فجرا ثم أنام.. لأستيقظ مرة أخرى مع أذان الظهر لأستكمل المذاكرة.. لم أكن أحصل على أي راحة سوى في ساعات النوم أو أوقات الأكل.. مع ساعة أو ساعة ونصف إضافية للراحة كحد أقصى.. تلك الفترة القصيرة من الراحة كانت هي البداية الحقيقية لقصتي!!!.

شعرت بأنفاسها تحتبس.. وأن عينيها قد اغرورقتا بالدموع فجأة.. حسنا.. ستبكي الآن بحرارة.. و.. بالفعل:

- هيء هيء.. هيييييييييه!!!.

أعطيتها علبة المحارم الورقية متعاطفا.. فأخذت منها ما تريد وأدخلت بعض المحارم تحت نقابها لتتمخط.. و(بففففففف) أفرغت أنفها.. ثم راحت تمسح دموعها.. وأكملت بعد لحظات قليلة:

- كانت فترات الراحة من المذاكرة غالبا بين الواحدة

والثالثة فجرا.. أشاهد التلفزيون.. ألتهم بعض الحلويات.. أو حتى أتصفح الانترنت.. لكن.. في تلك الليلة تحديدا.. لم أفعل هذا.. بل وضعت سماعتين صغيرتين في فتحتي أذنيّ.. وأطفأت أضواء غرفتي.. حيث رحت أستمع لموسيقى هادئة للغاية جعلت عينيّ تتجهان لا شعوريا إلى شباك غرفتي لأتذكر أن هناك عالما حقيقيا لا يكترث لاختباراتي.. لكن.. انتبهت فجأة أنني لا أشاهد العالم.. بل حديقة منزل جارنا الخارجية فحسب!!!.. نعم.. كانت غرفتي تطل على حديقته.. وهي حديقة مهملة إلى حد ما.. يحيط بها حزاما من الشجيرات المتشابكة التي تجدها حول حديقة كل بيت تقريبا في (الكويت).. لذا لم أكن أشاهدها إعجابا بتنسيقها مثلا.. بل لأن هذا المنظر الوحيد -إلى جانب النجوم- المتاح أمامي.. أفكار وخواطر متضاربة تمر في ذهني.. قبل أن تنقطع فجأة وأعود إلى عالم الواقع عندما شاهدت أحدهم يخرج من بيت جارنا!!!.. لم يكن الأمر ليثير اهتمامي لولا أنني لمحت أن هذا الشخص هو جارنا نفسه ويبدو من حركته أنه متوتر للغاية!!!.. خاصة وهو يلتفت يمينا ويسارا بصورة مريبة.. الغريب أنه كان يحمل كيساً أسوداً كبير الحجم نسبيا وهو يترنح مما يوحي أن الكيس ثقيل الوزن.. ثم.. فعل آخر ما كنت أتوقعه.. إذ وضع الكيس على الأرض.. واختفى لحظات قليلة ليأتي برفش.. ويبدأ بعدها بالحفر!!!.

قلت باستغراب حقيقي:

- الصورة واضحة معبرة بليغة ولا تحتاج إلى تفسير.. كل هذا يوحي بجريمة قتل ولا شيء آخر!!!.

أشارت إلي بإصبعها وهي تقول موافقة:

- بالطبع يا دكتور.. كنت أعلم أن الرجل حديث الزواج نسبيا ويعيش مع زوجته في هذا البيت بصفة الإيجار وأنه لم ينجب بعد.. وأعلم أن هناك خادمة أثيوبية الجنسية تعيش معهما.. فما الذي سيأتي به من الداخل ليدفنه أصلا؟!.. زوجته؟!.. الخادمة؟!.. لا يمكن أن يدفن شيئا عاديا لا يثير الشبهات.. وإلا لما رأيته متوترا ينظر حوله بقلق؟!.. بل من الذي يخرج في مثل هذا الوقت المتأخر ليدفن كيساً أسود مريباً ثقيل الحجم في حديقة منزله؟!!.. أسئلة تنتهي كلها عند إجابة واحدة لا تحتاج إلى ذكاء!!!.

زفرت بحرارة وهي تقول:

- الإجابة واضحة كما ترى.. هناك جثة في هذا الكيس.. جثة زوجته.. أو الخادمة.. وإن كنت أستبعد الخادمة لأنه سيتخلص منها عند أول مشكلة ويرسلها إلى مكتب الخدم دون الحاجة لقتلها.. أو حتى إلى المخفر لو ارتكبت جرماً ما..

لذا فقد دار بذهني مباشرة أن الرجل قد قتل زوجته!!!.. صحيح أن الكيس بدا صغير الحجم نسبيا لكي يضع فيه جثة إنسان.. لكن.. ماذا لو قطّع الجثة إلى أجزاء مثلا؟؟!.. هذا احتمال وارد.. وما زاد شكوكي هو نظرات القلق التي كان يوجهها حوله كل لحظة وهو يحفر ويحفر.. حتى إنه راح يحدق بنافذة غرفتي لفترة طويلة كونها النافذة الوحيدة التي تطل على حديقته.. مما جمدني تماما في مكاني خوفا من الإتيان بأي حركة قد تكشف وجودي.. لا تنس أن غرفتي كانت مظلمة.. لذا كان من المستحيل تقريبا أن يراني.. لكني كنت أراه بوضوح شديد.. المهم أنه ظل يكمل حفرته متسترا بالشجيرات المتشابكة التي تحيط بحديقته.. لذا فلا أعتقد أن أحدا رآه غيري.. ثم.. حمل الكيس بحذر شديد ووضعه في الحفرة.. ليملأ الحفرة بعدها بالتراب بسرعة دون توقف!!!.

وضعت يدها على رأسها وكأنها تشعر بالصداع من هول ما رأت.. ثم:

- هل شعرت بالخوف؟؟!.. بالقلق؟؟!.. لا أعلم.. لكني نسيت تقريبا كل ما يتعلق بالاختبارات.. ونسيت حتى عالمي بأكمله وأنا أراقب جارنا هذا.. لقد كنت أشاهد شيئا غير مألوف.. شيئا لا يحدث في (الكويت).. لكنه حدث أمامي في حي سكني

بسيط وبوضوح شديد لا يحتمل الشك.. المخيف أن جارنا لم يتوقف عن اختلاس النظر لشباك غرفتي بين الحين والآخر!!!.. ربما ليتأكد من أن الأنوار لا تزال مطفأة وأن لا أحد يراقبه.

استحوذت قصتها تماما على اهتمامي.. فسألتها بشك واضح:

- أشعر أن هناك أمرا مريبا.. القصة أكبر من جريمة قتل وإلا لكنت طلبت رجال الشرطة.. أليس كذلك؟!!.

بدت مترددة مرة أخرى لتكمل.. لكنها حسمت أمرها وأكملت متجاهلة سؤالي:

- لا داعي أن أخبرك بحالة الرعب التي أصابتني.. خاصة حين انتهى من ملء الحفرة.. إذ أضاء مصباحًا يدويًا صغيرًا وراح يوجهه ناحية الحفرة بعد ردمها.. على الأرجح ليتأكد من إخفائه لأي أثر لها.. المشكلة أنه وجّه مصباحه اليدوي إلى شباك غرفتي أيضا وبحركة مفاجئة!!!.. فانحنيت سريعا تحت النافذة وقلبي يدق بعنف.. هل رآني؟!.. هل رآني؟!.. هل رآني؟!.. سؤال ظللت أردده إلى أن بدأت الشمس تشرق وتصبغ العالم بلونها.. حينها شعرت برغبة عارمة في النوم بعد السهر حوالي 24 ساعة.. فمهما كنت قلقا وخائفا.. ستتغلب عليك غريزة النوم.. خاصة وأنني شعرت بمأمن في بيتنا بطبيعة الحال.

سكتت قليلا.. ثم قالت أمام نظراتي المتصلبة:

- عندما أيقظتني أمي في فترة الظهيرة.. لم تكن حادثة الأمس قد خرجت من ذهني بعد.. ووجدت أن كل ما حدث يوحي بجريمة قتل واضحة المعالم ولا تحتاج إلى ذكاء.. لكني أرجأت موضوع إبلاغ والدي والاتصال بالشرطة.. فهي خطوة قد تسبب لي ولعائلتي حرجا بالغا لو تبين أنني مخطئة.. نعم.. لا ننكر أن هناك احتمال ضئيل لا يتجاوز 1% أن الرجل قد دفن شيئا عاديا قد لا يسعني خيالي لمعرفته.. لذا قررت بعد الاغتسال وإزالة آثار النوم من عيني -وبعد دقائق من التفكير- أن أقوم بمغامرة صغيرة قبل الاتصال بالشرطة.. إذ خرجت من البيت دون أن ينتبه أحد من أفراد عائلتي.. وتوجهت إلى بيت جارنا وسط الشمس الحارقة.. كنت أريد مواجهته مباشرة بما رأيته.. أريد التأكد أولا قبل الاتصال بالشرطة.. رحت أختلس النظر إلى الحديقة بتوتر شديد.. وأستذكر ما حدث فيها فجر اليوم.. قبل أن أجد نفسي أمام الباب.. لأضرب زر جهاز المناداة.. لحظات من الصمت والترقب وأنا أنظر حولي بقلق!!!.. إذا رآني والدي أو أحد أشقائي فيجب علي اختراع أي حجة.. لأنني خرجت دون إذن.. ولأنني لم أزر بيت جارنا هذا من قبل ولا تربطني بزوجته أي علاقة.. لكني لم أفكر بالعواقب.. فالفضول كان أقوى من أي شيء آخر.. و.. قطع

سيل أفكاري صوت أحدهم يسأل من خلال جهاز المناداة عن هوية الطارق.. كان هذا صوت الخادمة كما بدا لي.. إذا هي لا تزال حية كما توقعت!!!.. سألتها عن صاحبة البيت.. فأخبرتني أنها ليست موجودة!!!.. ثم.. يبدو أن أحدهم أخذ منها سماعة جهاز المناداة.. يا إلهي.. إنه جارنا.. سمعته يتنحنح.. ويسأل بدوره عن هوية الطارق!!!!.

راحت تنظر إلى السقف وتستذكر ما حدث.. فسألتها بلهفة بعيدة تماما عن وقاري كطبيب نفسي.. وكأنني طفل صغير يستمع لقصة مثيرة تقصها عليه جدته:

- ماذا حدث؟!.. هل خرج ليقابلك؟!.. هل قام بتهديدك؟!.

هزت رأسها نفيا.. وأكملت:

- سألته عن زوجته.. لكنه رد باقتضاب وأخبرني أنها ليست موجودة.. ثم سألته إن كان بإمكانه الخروج لأنني أريد التحدث معه بأمر ما.. وقد كان هذا تصرفا جريئا للغاية لم أظن يوما أنني قادرة على القيام به!!!.. فشعرت به مترددا إلى حد ما.. قبل أن يحسم أمره ويخبرني أن أنتظر قليلا.. لحظات.. قبل أن أجده أمامي مرتديا الزي الوطني (الدشداشة) وهو ينظر إلي بتوجس أثار شكوكي كثيرا.. وكأنه.. وكأنه يعلم أنني كنت أراقبه في الأمس.. لكني أخبرته بهدوء أن والدتي أرسلتني

إليهم لأدعو زوجته على العشاء عندنا مساء الغد لمناسبة عائلية.. وهي حجة اخترعتها للتو وظننتها ذكية للغاية.. فهي رسالة واضحة له أن أهلي لديهم علم بوجودي هنا كي لا يقدم على أي تصرف أحمق.. كاختطافي وقتلي ربما!!!.

خطفت أنفاسي وهي تسكت.. قبل أن تكمل بتوتر شديد بدا واضحا من صوتها:

- أخبرني بقلق واضح أنه سيبلغ زوجته بأمر الدعوة.. وبدا وكأنه يهم بالدخول وإغلاق الباب.. لكني رفضت هذا الرد المقتضب!!!.. وقررت مواجهته علانية بعد أن شعرت بقلقه وخوفه.. فأخبرته -والعرق بدأ يتصبب مني بسبب حرارة الجو- إنني شاهدت كل شيء فجر اليوم من شباك غرفتي.. وأنني سأبلغ الشرطة لأنني أعتقد أنه قتل زوجته.. ماذا كانت ردة فعله بعد هذا الكلام؟؟!!.. لا شيء.. بل نظر إلي نظرة طويلة مترددة دون أن يرد.. ثم دخل وأغلق الباب خلفه بصفاقة!!!.. عندها فقط حسمت أمري.. لن أنتظر أكثر.. سأذهب إلى البيت وأخبر والدي بكل شيء وأطلب منه أن يتصل بالشرطة.. الأمر واضح كما ترى يا دكتور.

سألتها باهتمام:

- وهل اتصلت بالشرطة؟!!.

ردت بأسى:

- نعم.. عندما عدت إلى البيت.. أخبرت الجميع بما حدث.. فوجه لي أشقائي ووالدي لوما قاسيا بسبب مغامرتي الحمقاء هذه على حد وصفهم.. وأنه كان يجب علي إبلاغهم في الأمر منذ البداية.. ثم.. أخرج شقيقي الأكبر هاتفه النقال من جيبه.. وضغط على 3 أرقام ليخبر شرطة النجدة عن اشتباه في حدوث جريمة قتل.

تنهدت بعمق.. ثم أردفت:

- لم يتأخروا كثيرا.. كانت هناك 3 دوريات شرطة تقف بجانب بيتنا مما أثار حفيظة الجيران الذين خرج بعضهم بفضول واضح ليرى ما يحدث.. رغم حرارة الجو في مثل هذا الوقت الذي يصادف ساعة الغداء والراحة بعد عودة الناس من أعمالهم.. دخل رجال الشرطة بيتنا وطلبوا مني أن أخبرهم بكل ما رأيته.. وبالطبع أخبرتهم بكل التفاصيل وأنا أبكي.. شاعرة أن القصة تأخذ منحنى جديا.. فقد أكون شاهدة في المحكمة مثلا في قضية قتل.. وهو أمر عسير للغاية لفتاة في مثل عمري كما تعلم.. و.. استمع إلي رجال الشرطة دون مقاطعة.. ليطلب مني أعلاهم رتبة أن نذهب إلى بيت جارنا لمواجهته وبحضور والدي أيضا.. لم ننتظر لحظة واحدة.. إذ

توجهنا مباشرة إلى بيت جارنا.. ليطلب منه رجال الشرطة عبر جهاز المناداة أن يخرج إليهم.. فخرج في غضون ثوان قليلة وهو في أسوأ حال ممكن.. إذ بدا واضحا أنه قلق متوتر.. بل وشعرت أنه سينهار ويعترف في أي لحظة.. سألوه عن زوجته.. فأجاب بعد تردد أنها غير موجودة.. وعندما حاصروه بالأسئلة لمعرفة مكانها.. أخبرهم أنه تشاجر معها منذ يومين وخرجت غاضبة إلى بيت عائلتها ربما.. ولم تعد منذ ذلك الحين.. وأن أمرا كهذا معتاد بينهما.. فهما يتشاجران كثيرا منذ زواجهما قبل 3 أعوام تقريبا.. وقال أيضا إنها ليست أول مرة تخرج فيها زوجته بعد شجارهما.. لذا فقد أقسم أنه لن يسمح لها بالعودة هذه المرة ولن يسأل عنها!!!.

هل يعقل أن تكون القصة بهذه البساطة؟!.. كان هذا أول تساؤل يطرأ في ذهني.. ربما تكون بهذه البساطة بالفعل وقد أُكتُشفت جريمة جارهم.. وربما قلب الفتاة الرقيق لم يحتمل الموقف كوننا نعيش في مجتمع لا تحدث فيه أمور كهذه كثيرا.. لذا قد تشعر أنها بحاجة إلى جلسة علاج نفسي لأعيد إليها صفاء ذهنها.

لكن الفتاة قطعت خواطري وهي تقول:

- بعد كلام جارنا عن زوجته.. سأله رجال الشرطة بصرامة

عن سبب خروجه المريب في وقت مبكر جدا من صباح اليوم وعن الكيس البلاستيكي الكبير الذي دفنه في حديقة بيته.. فخرس تماما والعرق بدأ يتصبب منه بشكل واضح بسبب التوتر.. أو بسبب حرارة الجو.. لا أعلم.. ليجيب فجأة على سؤال الشرطة بأسخف إجابة ممكنة!!!.. إذ قال متلعثما إنه يكره القطط كثيرا وقد وصل عددها إلى حد مخيف في مناطقنا السكنية وفي حيّنا تحديدا.. لذا فهو يضع السم بين الحين والآخر في طعام يقدمه للقطط كي يتخلص منها.. وقد قتل بالأمس -على حد قوله- 4 منها اجتمعت لتأكل الطعام المسموم الذي تركه لها في حديقة منزله.. فوضعها بعد ذلك في كيس بلاستيكي أسود ودفنه في الحديقة في وقت متأخر لأنه كان عاجزا عن النوم وأراد أن يشغل وقته بعمل مرهق سيسبب له التعب دون الشك ويساعده على الإصابة بالنعاس!!!.. هل تصدق هذا الهراء يا دكتور؟!!.. كلام سخيف لا يصدقه عقل بالطبع.. المشكلة أنه قال هذا الكلام وهو يرمقني بنظرة نارية أخافتني كثيرا.. وقد لاحظها رجال الشرطة بكل تأكيد!!!.

سألتها ببساطة وقد عرفت أنني أشهد نهاية القصة:

- من المؤكد أن رجال الشرطة قاموا بالتنقيب في الحفرة والتأكد من كلام الرجل.. أليس كذلك؟!.

ردت بسرعة:

- لقد طلب رجال الشرطة التحدث مع الخادمة أولا علها تعرف شيئا.. لكن اتضح أنها كانت نائمة في غرفتها في الجانب الآخر من البيت ولم ترَ أو تشعر بأي شيء!!!.. وعند سؤالها عن صاحبة البيت.. كررت نفس الكلام عن الشجار الدائم بين مخدومها وزوجته وأن الزوجة قد خرجت منذ ليلتين بعد شجارهما ولم تعد!!.. في النهاية.. لم يجد رجال الشرطة بدا من استخراج أمرا سريعا من النيابة عبر الهاتف لنبش الحفرة والتأكد من كلام جارنا.. وفي أقل من ساعة.. كان العاملان اللذان استعانت بهما الشرطة يعملان بسرعة ملحوظة لنبش الحفرة والوصول إلى ذلك الكيس البلاستيكي المشبوه.. لكن.. لكن.. كانت أمامنا أكبر مفاجأة وآخر ما يمكننا تخيله!!!.. نعم.. لقد كان جارنا محقا في كلامه!!!.. فقد أخرج رجال الشرطة الكيس الأسود وفتحوه.. لنجد منظرا في غاية البشاعة.. 4 قطط ميتة بالفعل.. اللعين!!!.. كان محقا في كلامه رغم كل ما توحي به الأحداث.. وقد وضعني في حرج بالغ أمام الجميع!!.

كان هذا آخر ما توقعت سماعه.. فسألتها بحلق جاف وعينين متسعتين:

- ماذا حل بزوجته إذا؟!.. أين ذهبت زوجته؟!!.

راحت تحدق بي من وراء النقاب وقد شعرت بشيء من التوتر بسبب تلك النظرة العميقة.. ثم.. ثم فجرت مفاجأة أخرى لم أتوقعها أبدا!!!.. مفاجأة جعلتني أشعر بحيرة بالغة من الكم الهائل من القصص الغريبة التي أسمعها وأعايشها!!!.. ففي كل مرة أظن أنني عشت أغرب قصة.. أجد بعد أيام قليلة قصة تفوقها غرابة.. لا أعرف ما هو سقف الغرابة الذي سأصل إليه.. إن كان للغرابة سقف أصلا!!!.. فقد قالت الفتاة فجأة بعينين مغرورقتين بالدموع:

- حسنا يا دكتور.. سأخبرك بالسر الذي أخفاه جارنا عن رجال الشرطة.. يقال إن أفضل طريقة لإخفاء الحقيقة هي أن تضعها مكشوفة أمام أعين الجميع.. أليس كذلك؟!!!.. بالطبع تعلم الآن أنه قد اتضح لأفراد عائلتي ولرجال الشرطة أنني حمقاء وقد وقعت في حرج بالغ لكل ما سببته من قلاقل.. وأن جارنا كان محقا في كلامه وإن كان تصرفه في قتل القطط ودفنها غريبا للغاية!!!.. لذا فقد طلب منه رجال الشرطة العودة إلى بيته.. وطلبوا مني ومن والدي الأمر ذاته.. ولكن.. الواقع أن هناك قصة أخرى كانت تدور خلف الكواليس وبذكاء واضح!!!.. لاحظ أن أحدا من رجال الشرطة لم يبحث أو يسأل عن الزوجة ليتأكد أنها على قيد الحياة بعد أن تبين لهم أن جارنا لم يدفن سوى بعض القطط الميتة.

صمتت تماما.. ثم قالت وهي تمسح دمعة انحدرت من عينيها:

- لقد كان جارنا يخفي زوجته في بيته طوال اليومين الماضيين وفي غرفة نومه تحديدا!!!.. كان يحقنها باستمرار بمخدر قوي المفعول كي تظل نائمة ولا تفضح خطته.. نعم.. إنها خطة جارنا البسيطة والذكية بنفس الوقت لقتل زوجته.. فقد قام بدفن القطط الميتة في حديقة منزله في تصرف مريب غير مفهوم جعلني أتصل بالشرطة.. وعندما جاءوا لنبش الحفرة.. تأكدوا من أن جارنا صادق في كلامه وأنه قد دفن القطط فيها بالفعل.. لذا فستكون الحفرة بعيدة تماما عن الشبهات عندما يرتكب جريمته الحقيقية ويقتل زوجته دون أي مقاومة منها بسبب تأثير المخدر.. ليقوم بدفنها في نفس الحفرة بعد تقطيع جسدها لعدة أجزاء.. وبالطبع لن يبحث رجال الشرطة مرة أخرى في الحفرة بعد أن تأكدوا بأنفسهم مما هو مدفون فيها!!!.. كانت هذه طريقة بسيطة عبقرية كما ترى ليقتل زوجته دون أن يلفت انتباه أحد لمكان الجثة.. وما زال رجال الشرطة وأهل زوجته يبحثون عنها حتى يومنا هذا دون أن يعلموا أنها مدفونة في حديقة بيتها الخارجية!!!.

اتسعت عيناي بدهشة هائلة جراء تلك الحيلة البسيطة

التي تنم عن عقلية إجرامية مخيفة.. لكن.. مهلا.. سألت الفتاة بحذر شديد:

- وكيف عرفت كل هذه التفاصيل؟؟!.. أخبريني.. أرجوك لا تدعيني أفكر كثيرا.. إنني أشعر بالتعب من كثرة التفكير في قصتك هذه!!!.

وضعت يدها على قلبها وكأنها تشعر بالألم.. لتقول دون أن تنظر إلي:

- لأنني.. لأنني.. لأنني كنت أعيش قصة حب مع جارنا!!!!.. واتفقت معه على قتل زوجته ليتزوجني أنا!!!!.. كان اتصالي برجال الشرطة هو مسرحية فحسب قمت بتمثيلها ببراعة بالاتفاق معه.. فعلنا هذا لجذب انتباه الجميع إلى الحفرة كي يروا بأنفسهم ما هو مدفون فيها ولا يفكرون بنبشها مرة أخرى.. كما ترى.. لم يكن أحد ليتخيل أن كل ما حدث كان اتفاق بيني وبين جارنا الذي عشت معه قصة حب إلى أن تقدم لخطبتي منذ شهور قليلة وتزوجني!!!.. لقد أخبرتك بتفاصيل القصة تماما كما أخبرتها لرجال الشرطة الذين صدقونا تماما.. وها أنت قد صدقتني أيضا.. مما يدل على أنها خطة عبقرية بالفعل.. لكني لست فخورة بذلك.. لست فخورة أبدا!!!.

كان هذا أقوى بكثير مما أحتمله.. حتى أنني شعرت بتوتر عجيب في أعماقي سرعان ما انقلب إلى غضب عارم وأنا أرى الفتاة تعترف بوقاحة أنها ارتكبت مع عشيقها -الذي تزوجها الآن- جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد:

- ترتكبين جريمة قتل.. ثم تعترفين بها بهذه الوقاحة!!!.. أي بشر أنتم؟!.. من أين تأتون بهذه الأفكار المريضة؟!!.

ردت وهي تبكي:

- أنا لست مجرمة يا دكتور.. صدقني!!!.

صرخت بعصبية:

- لماذا تتصرفين كالمجرمين إذا؟!!.

قالت وهي تغطي عينيها بكفها:

- أرجوك.. لن أحتمل المزيد من اللوم.. إنني ألوم نفسي كل يوم على جريمتي.. لقد بت أعيش كوابيس لا تنتهي بعد زواجي.. إنني أحلم بتلك الجريمة باستمرار.. حتى أننا انتقلنا لنعيش في منطقة أخرى بعد زواجنا لنسيان ما فعلناه.. لكني ما زلت عاجزة عن تحمل ما حدث.. أشعر أن زواجنا ملعون.. أشعر أن عقد زواجنا مكتوب بالدماء.. أريد أن أخرج تلك

الأفكار من ذهني.. أرجوك يا دكتور ساعدني!!!.

كيف أرد على هذه اللعينة.. ماذا سأقول لها؟!!.. مع الأسف لا أستطيع الإبلاغ عنها.. لن يؤخذ بكلامي أمام النيابة لأنه سيعتبر خيانة أمانة كما ذكرت مرارا وتكرارا!!!.. ثم.. ثم.. سألتها بحنق:

- لماذا لم يطلّق جاركم زوجته فحسب ويتزوجك؟!.. لماذا اتفقت معه على قتلها؟!.

قالت بغيظ:

- بسبب المؤخر اللعين.. هناك مؤخر صداق بمبلغ كبير كان جارنا عاجزا عن سداده.. إنه يحبني كثيرا.. كان يراني أثناء خروجي من البيت.. وقد نال جمالي على إعجابه ووقع في حبي خلال زحمة شجاراته المستمرة مع زوجته.. فبحث عن رقم هاتفي النقال.. وراح يتصل بي.. في البداية لم أعر اتصالاته اهتماما وهددته بإبلاغ والدي كونه رجل متزوج ومن البديهي أنه يريد العبث معي فقط.. لكنه ظل يزين لي الطريق ويخبرني أنه هائما بي منذ مدة ويشعر أنني الفتاة التي ستسعده في حياته.. إلى أن وقعت في غرامه مع مرور الأيام!!!!.

قلت رأيي وأنا أعني كل حرف منه:

- لا يوجد حل سوى الانفصال عن زوجك.. لا يمكن أن تنسي الأمر إلا لو انفصلت عنه واعترفت بما حدث لرجال الشرطة.. سيضيع مستقبلك بكل تأكيد.. لكن.. الشعور بالذنب سيلتهم قلبك مع مرور الأيام إذا لم تفعلي ما قلته لك.. أنت لم تعيشي حياة تؤهلك لتكوني قاتلة.. وكذلك زوجك.. لكن يبدو أنه تحدث معك عن قتل زوجته ذات مرة بسبب خلاف شديد.. ثم كرر فكرة القتل في مكالمة أخرى.. وأخرى.. إلى أن أصبحت الفكرة مقبولة.. أليس كذلك؟!.. القصة دائما هكذا.

أومأت برأسها ببطء معترفة بصحة كلامي وبشكل يوحي بالانكسار.. ثم راحت ترجوني أن أبحث لها عن حل آخر غير الانفصال عن زوجها والاعتراف بجريمتها.. خاصة وأن زوجها يحبها كثيرا وهي تعيش معه بسعادة دون أن ينغص حياتها شيئاً سوى الشعور القاتل بالذنب.. لكني أكدت لها بحزم واضح أن لا حل هناك.. وأخبرتها أنها ستمر باضطرابات نفسية حادة مع مرور الأيام.. كوابيسها ستزداد سوءا.. قلقها سيتصاعد.. وستفقد ثقتها بزوجها أيضا.. هذا ما سيحدث دون شك!!!.. لكن.. يبدو أن كلامي لم يعجبها.. إذ نهضت من مكانها فجأة.. والتفتت متجهة ناحية الباب دون أن تنطق

بكلمة.. فكانت هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها.

ما اسم الفتاة؟!.. ما هو شكلها؟!.. لا أعرف.. إنها واحدة من القصص التي تستحق أن نقيدها ضد مجهول كما ترون.. واحدة من القصص التي تؤكد فكرتي ونظرتي التشاؤمية لهذا العالم.. وهي أنه لا يوجد إنسان خير!!!.. الإنسان الخير هو مجرم لم يقبض عليه متلبسا بعد!!!.. فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يرفض أن يكون على حقيقته.. ولو رأى البشر بعضهم بعضاً على حقيقتهم لتقاتلوا كالحيوانات أو لشنقوا أنفسهم.. أشعر أن العالم يعيش في فوضى.. لا يوجد فيه شيء منظم سوى الجريمة!!!.. بالمقابل أرى الحب يختفي شيئا فشيئا من عالمنا.. لذا لا أعتقد أننا نحتاج إلى عيد الحب الذي يحتفل به الحمقى سنويا.. بل نحتاج إلى الحب نفسه.

وربما يظن بعضكم أن هناك مبالغة في أن تتحول فتاة تعيش حياة عادية مستقرة إلى قاتلة فجأة.. لكن هذا غير صحيح.. بل هو أمر ممكن جدا ومتوقع أيضا.. أقول هذا الكلام عن خبرة.. فهناك دائما مرة أولى لارتكاب جريمة قتل.. وكل هؤلاء القتلة الذين يمتلئ بهم العالم لم يولدوا قتلة.. لكن أسباب عديدة جعلتهم كذلك.. منها شهوة المال.. والحب.. والثأر.. إلخ من الأسباب.

أعترف أن هناك الكثير من التحليل النفسي ليقال حول بطلة قصتنا وحول عشرات الفتيات والشبان مثلها.. فهؤلاء أغبياء عاطفيا إن صح التعبير.. يفتقرون القدرة على التحكم بنزعاتهم.. فتجدهم يأكلون ما يحلو لهم.. ويصرفون أموالهم دون حساب بسبب الرفاهية التي يعيشونها.. ويرغبون بفرض وجهة نظرهم بالعنف.. ويشتمون ويتلفظون بكلام بذيء.. إنهم يعيشون نوعا من التدليل.. والتدليل يخلق الأنانية في نفس الإنسان مع مرور الأيام.. لهذا ترتفع معدلات الجريمة والخيانة الزوجية في مجتمعاتنا المرفهة يوما بعد يوم.. عموما.. يشكو الناس كثيرا من هذا الجيل.. لكنهم ينسون من قام بتربيته!!.

عزيزي القارئ.. لقد ظن العلماء يوما إننا نستخدم 10% فقط من عقولنا.. قبل أن يتبين خطأ هذا الاعتقاد مؤخرا.. أما أنا فعلى يقين بأننا نستخدم 10% فقط من قلوبنا!!.. تماما كما حدث في قصتنا هذه التي ارتكبت فيها جريمة قتل دون رحمة.. وقد خدعتني أحداثها كثيرا وظننت أنها مجرد قصة عن جار مجنون يدفن أشياء مريبة في حديقة منزله.. يدفن القطط الميتة!!!.

أين ثروة زوجي؟!

تحكيها: شهد

عزيزي القارئ..

قصتنا هذه تدور حول (شهد).. فتاة في الثالثة والعشرين من العمر.. لن أتحدث كثيرا ولن أعطي أي مقدمات عن هذه القصة المخيفة.. كل ما أستطيع قوله إنها تستحق بجدارة أن تكون في هذا الكتاب.

أرجوك أن تقرأ القصة.. ولي عودة بعد الانتهاء من قراءتها لأشرح بعض الأمور التي قد تتطلب التوضيح.

الدكتور (.........)

من الظلم أن أصف مشاعري بالفرح فقط حين تقدم ذلك الشاب لخطبتي منذ أكثر من سنة.. بل كانت مشاعري تفوق ذلك بكثير.. لقد شعرت فجأة أنني أكثر فتيات العالم حظا وسعادة.. فقد كان العريس المنتظر هذا يختلف عن أي شاب آخر وتتوفر فيه صفات من المستحيل تقريبا أن تجتمع كلها في شخص واحد.. لكنها اجتمعت فيه بشكل غريب حتى بدا وكأنه فارس الأحلام الذي نقرأ عنه في القصص لكننا لا نعثر عليه أبدا في عالم الواقع!!!.

لقد كان مهذبا للغاية.. وسيما.. فارع القوام.. حصل على شهادته الجامعية بتفوق من (الولايات المتحدة الأمريكية).. ومن عائلة مرموقة وعريقة.. ولا ننسى بالطبع ثراءه الفاحش.. إذ كان يمتلك عددا من المجمعات السكنية والشركات العقارية التي تتجاوز قيمتها ملايين الدنانير!!!.

ولحسن الحظ إنني جميلة إلى درجة تأسر قلوب الشباب وتثير حسد الكثير من الفتيات.. وإلا لما خلبت لب عريسي المنتظر هذا وأثرت اهتمامه في اللحظة الأولى للقائنا.. إذ التقيت به صدفة في جهة عملي بإحدى وزارات الدولة عندما كان يريد الحصول على موافقة لإقامة مشروع جديد يخص إحدى شركاته.

لا أنكر أنه قد خلب لبي أيضا بوسامته ولباقته عند لقائي به أول مرة.. لكني لم أظهر له ذلك.. بل عاملته باحترام وكبرياء كما أعامل أي مُراجع آخر.. إذ كنت بالمقابل معتدة بنفسي وأعرف أن جمالي سيدير رؤوس أعتى الرجال.. وهناك فرصة لا بأس بها أن يتقدم أحد الأثرياء لخطبتي يوما.. ولم أكن مخطئة حين فوجئت بالشاب ذاته يتصل بي في جهة عملي بعد أسابيع قليلة ويعرض علي الزواج!!!.. بل وراح يتحدث عن إعجابه الشديد بلباقتي وجمالي وأخلاقي وثقتي بنفسي.. حتى أنه طلب مني راجيا أن يتعرف علي بصورة أكبر.. وأن نتحدث بضعة شهور عبر الهاتف حتى نعرف طباع بعضنا وندرك مدى ملاءمتنا لبعضنا بعضا.

في البداية أظهرت له ترددي رغم أن قلبي كان يتقافز فرحا.. وهي لعبة مدروسة بالطبع كي أظهر له أن اسم عائلته وثروته ومؤهلاته كلها لا تغريني.. و.. أنت تعرف كيف تسير تلك الأمور يا دكتور.. فبعد شهور قليلة من تعارفنا.. وبعد اتصالات شبه يومية كنا نتحدث فيها لساعات طويلة عبر الهاتف.. أقدم الشاب على الخطوة الأهم حين زار بيتنا برفقة والدته وشقيقته.. حيث أظهر في بيتنا شخصية رائعة أسرت جميع أفراد عائلتي وتركت في أنفسهم انطباعا رائعا..

إذ بدا مثقفا ذكيا لماحا مجتهدا في إدارة شركاته.. وليس ذلك الشخص المدلل الذي ظهر على وجه الدنيا وفي فمه ملعقة من ذهب.. بل تبين في الواقع أن له دوراً كبيراً في نمو ثروة عائلته رغم صغر سنه.

المهم أنه بعد ساعات قليلة من رحيله.. وبعد أن لاحظ والدي علامات الفرحة على وجهي ووجه والدتي.. سألني إن كنت موافقة على الزواج.. ففعلت ما تفعله أي فتاة تقبل بالشاب الذي تقدم لخطبتها!!!.. إذ أطرقت برأسي خجلا.. وابتسمت.. فابتسم والدي بالمقابل عالما أن مسألة زواجي من ذلك الشاب هي مسألة وقت فحسب!!.

بعد شهور قليلة.. أقيم حفل زفاف رائع لا ينسى في أفخم الفنادق.. فكنت لحظة دخولي قاعة الزفاف أشبه بالملكة التي تمشي ناحية عرشها وينحني لها الجميع احتراما دون أن تفوتني نظرات الانبهار التي كانت تلتهمني من كل المدعوات.. والغيرة الواضحة على ملامح قريباتي وصديقاتي وهن يرين فتاة رائعة الجمال -أنا- في طريقها لعلاقة زوجية تثير الحسد.

انتقلت بعد حفل زفافنا للإقامة في فيلا زوجي الفاخرة بمنطقة (الشويخ).. حيث شعرت حين دخلتها لأول مرة أن

أبواب الحظ قد ابتسمت لي على مصراعيها.. فكانت الفيلا شيئا لا يوصف.. بل ولم أشاهد في حياتي مكانا بهذا المستوى من البذخ والرفاهية.. نعم.. أعترف أنني أنتمي لعائلة عادية كحال معظم عوائل أهل (الكويت).. ولا أملك سوى جمالي وثقافتي التي اكتسبتها من قراءاتي المتنوعة وشهادة الدبلوم التي أحملها.

بدأت حياتنا الزوجية بعدها بهدوء وحب.. بعيدا عن أي خلافات من تلك التي تحصل بين أي زوجين حديثي الزواج.. والسبب هو رجاحة عقل زوجي.. وعمق ثقافتي في مسائل الزواج.. فقد كنت أقرأ كثيرا عن الخلافات الزوجية وحالات الطلاق ومشاكل الأولاد وأحاول أن أتعلم من تجارب الآخرين ومن المختصين.. لذا حرصت أن أعيش معه في عالم يختلف تماما عن كل هذا.. لم أكن أريده أن ينظر إلي كزوجة.. بل كحبيبة وكصديقة.. لذا لم أفكر أبداً بالحمل والإنجاب.. فنظرته لي ستتغير دون شك لو حدث هذا.. خاصة وأنني كنت أكره شكل الفتاة الحامل وأراه مقززا.. نعم.. أنا أختلف عن الكثير من الفتيات كما ذكرت ولا أركض خلف الأمومة.. أريد سعادتي أولا.. وسعادتي تكون بزوج يعاملني كالأميرات.. وأعامله أنا باحترام وحب دون أن أحاول فرض نفسي عليه كما تفعل بعض الزوجات.. بل

أمنحه مطلق الحرية ليفعل ما يريد متى ما شعرت أنه يريد الانفراد بنفسه أو الخروج مع أصدقائه.

كان كل شيء يوحي بحياة سعيدة مع زوجي في الشهر الأول من زواجنا.. خاصة حين تبينت طيبته وحبه الشديد لي.. والذي أشعرني أنني أطير معه كل ليلة على سحابة زرقاء بعيدا عن كل ضجيج العالم وآلامه.. فكنا نقضي ساعات طوال في الفيلا نتحدث عن كل شيء تقريبا.. وأحيانا نخرج إلى أفخم الفنادق ونقيم في أجنحتها الملكية.. وكأنني ملكة بالفعل!!!.. حتى إنني تركت وظيفتي بعد مرور بضعة أسابيع من زاوجنا.. وبتشجيع من زوجي الذي كان يقول إن الأميرة لا يجب أن تعمل.. بل هو من يجب أن يعمل من أجلها!!.. هل ترى كم كنت محظوظة يا دكتور؟!.. لكنه رغم ذلك عرض علي مبلغا من المال لأبدأ به أي مشروع تجاري أختاره بدلا من الجلوس في البيت والشعور -ربما- بالملل مع مرور الأيام.

لقد كنت دائما أظن أنه ليس هناك شيء اسمه (السعادة الخالصة)!!!.. فالسعادة دائما ما تمتزج ببعض القلق.. لكني أؤكد أن سعادتي كانت خالصة بالفعل لا تشوبها أي قلاقل في بداية زواجنا.. إلا أن كل شيء

انهار فجأة!!!.. انهار بلحظة واحدة.. هكذا دون أي مقدمات.. بنفس سهولة الانتقال من السطر السابق إلى السطر الحالي!!!. من الغريب أن تشعر للحظة أنك تطير بين السحب والوديان.. لتقع فجأة في فوهة بركان ثائر وتنتهي حياتك!!!.

هذا ما حدث معي.. وبعد مرور أقل من شهرين على زواجنا!!!.. فقد حدثت المأساة حين كنا عائدين من الشاليه الذي تمتلكه عائلة زوجي بعد حفل شواء وأمسية جميلة جدا جمعتنا مع أقاربه.. قبل أن نتعرض أثناء عودتنا للبيت لحادث مروري انقلبت على إثره السيارة وتحطمت تماما!!!.. حيث عرفنا فيما بعد أن سبب الحادث يعود لفرقعة أحد إطارات السيارة مما أفقدها توازنها وأفقد زوجي السيطرة عليها.. لتتحول السيارة إلى كرة روليت!!!.. إذ راحت تدور وتدور قبل أن تصطدم بقوة في الحاجز الاسمنتي وتنقلب أكثر من مرة.

الغريب أنني لم أصب بأي جروح سوى بعض الكدمات البسيطة.. أما زوجي فقد تحطم عموده الفقري.. وأصيب بشلل كامل لكل أطرافه سيجعله طريح الفراش طوال العمر.. وهو شبيه بالشلل الذي تعرض له ممثل أمريكي

شهير قرأت عنه ذات مرة*!!!.. فلن يستطيع تحريك أي جزء من جسده سوى ذراعيه.. لاحظ أنني قلت ذراعيه وليس أصابعه. لم تكن هذه الصدمة الوحيدة.. إذ علمنا بعدها ببضعة أيام أن دماغ زوجي قد تأثر أيضا بسبب ضربة قوية اصطدم فيها رأسه بالنافذة أثناء الحادث.. مما تسبب بتلف في خلايا المخ سيجعله معرضا للنسيان المستمر.. ليصبح مشوش الذهن تختلط عليه الذكريات أحيانا كثيرة.. فكانت هذه مرحلة جديدة مفاجئة.. وتغييرا جذريا مخيفا في زواجنا!!!.

* تتحدث هنا عن الممثل العالمي (كريستوفر ريف) بطل سلسلة أفلام (سوبرمان) الشهيرة التي ذاع صيتها في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات والتي أكسبته ثروة هائلة قدرها البعض بما لا يقل عن 300 مليون دولار.. وقد أصيب هذا الممثل بكسور مضاعفة من بينها كسر في فقرات الرقبة إثر سقوطه من فوق حصانه في مسابقة للفروسية عام 1995.. مما تسبب له بشلل كامل جعله طريح الفراش عاجزا عن تحريك يديه وساقيه.. حيث ظل على حالة الشلل تلك عدة سنوات قبل أن يصاب بأزمة قلبية حادة توفي على إثرها عن عمر يناهز 52 عاما.. وقد تحدث الكثيرون عن إرادة الممثل الخارقة في عدم الاستسلام لآخر لحظة في حياته حيث كافح عجزه بشكل بطولي.. بل إنه أدى دورا مهما في فيلم (Rear Window) عام 1998 بعد 3 سنوات من إصابته بالشلل حيث كان الفيلم يتحدث عن رجل مقعد يراقب العالم خلف نافذة غرفته ويشك بأن جاره قد قتل زوجته.

كنت أرى تلك التغيرات المخيفة تحدث حولي وأنا أنظر إلى الجميع غير مصدقة.. إذ شعرت أن الزمن قد توقف بالنسبة لي.. وأن حياتي قد انتهت قبل أن تبدأ في الأيام التي تلت الحادث وبعد أن استوعبت حجم الكارثة التي أصابتنا.. لقد كنت أحب زوجي بالفعل.. وتعلقت بشدة بحنانه وشخصيته وأخلاقه.

ولك أن تتخيل يا دكتور حال والدة زوجي وشقيقته.. فلا أنسى أبدا لحظة دخولهما المستشفى كمجنونتين بعد أن سمعتا بخبر الحادث.. حين كنت جالسة قرب غرفته دون أن أجرؤ على الدخول ورؤيته بهذا الحال.. عندما سألتني والدة زوجي بذعر حقيقي عما جرى لابنها.. فنظرت إليها شاحبة منهارة والضمادات تلف حول يدي ورأسي دون أن أرد.. قبل أن يخرج الطبيب من الغرفة ويخبرهما عن تفاصيل الإصابة!!!.

إنها من اللحظات التي تتعالى فيها أصوات البكاء في المستشفى ويلتف الناس حولك دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منك من هول الموقف.. لم يكن أحد ليصدق أن زوجي.. خيرة شباب الدنيا.. لم يعد مفعما بالنشاط والدفء كما كان دوما.. وقلبه النابض بالحنان والطيبة والمسئولية أصبح الآن سجينا في جسد مشلول تماما يحتاج رعاية كاملة

طوال الوقت!!!.. حتى إن والدته فقدت وعيها عدة مرات في المستشفى وقد انكسرت تماما وحطم الحزن قلبها.. أما شقيقته فلم تكن أفضل حالا.. وبدت لي أنها لن تتوقف عن البكاء.. فكنت أحتضنها بشدة وأخبرها أنني لن أتخلى أبدا عن زوجي الحبيب وسأهتم به طوال حياتي.. أنت تعرف كيف تمر تلك اللحظات فلن أتحدث عنها كثيرا.

مرت بعدها الأيام كئيبة حزينة ظل خلالها زوجي في المستشفى عدة شهور لم أتوقف فيها يوما عن زيارته والاهتمام به.. حتى أنني شعرت بشيء من الملل مع مرور الوقت والذهاب المستمر بشكل يومي إلى المستشفى دون توقف.. بل وقضاء حوالي 8 ساعات برفقته محتملة حالته النفسية وملامحه المتجهمة طوال الوقت بعد أن فقد صحته وعافيته كلها بضربة واحدة.. وكانت والدته وشقيقته -وهما أغلى من لديه- يزورانه بدورهما بشكل شبه يومي.. حيث نجلس جميعنا بصمت حتى تكاد تسمع ذرات الهواء نفسها وهي تحوم حولك!!!.. وكأننا في مراسم عزاء!!!.

لا يمكن أن تتخيل حجم الكآبة التي صاحبت حياتي يا دكتور.. فمن الممكن أن تتكبد العناء لتزور أقرب الناس إليك في المستشفى بصورة دورية.. أما أن تقضي الوقت بأكمله في

المستشفى وبشكل يومي فهذا لا يطاق!!!.. لكني كنت أقنع نفسي بأنها مرحلة وستنتهي مهما طالت.. وقد كنت مخطئة دون شك.. بل وكنت غبية حين ظننت أن الأمور ستعود إلى طبيعتها حال عودة زوجي إلى البيت!!!.

فقد تحولت الفيلا الفاخرة فجأة إلى مستشفى مصغر.. إذ امتلأ المكان بالأدوية والأجهزة الطبية.. مع سرير يشبه الأسرّة الموجودة في المستشفى.. وكرسي كهربائي متحرك متطور جدا يحوي عصا تحكم يستطيع زوجي استخدامه والتنقل من خلاله بشكل محدود باستخدام ذراعه لتوجيه عصا التحكم.. وكنت أنا المسؤولة عن زوجي بالطبع وبصورة شبه كاملة.

في البداية كنت أقوم بواجبي على أكمل وجه.. أبدل له ثيابه وأطعمه وأسقيه وأنظف قاذوراته.. بل وأساعده على الاستحمام وكأنه طفل صغير!!!.. ولا أنسى اهتمامي أيضا بتقوية ذاكرته من خلال القراءة المستمرة له وتذكيره بأي معلومة ألاحظ أنها بدأت تغيب عن عقله!!!.. لقد دمره الحادث تماما كما ترى.. وشعرت حينها بسخرية الأقدار عندما كنت أرفض الإنجاب بسبب بضع سنوات علي أن أهتم بها في طفلي.. ليأتي زوجي ويصاب بذلك الحادث فيصبح لدي طفل كبير علي أن أهتم به إلى الأبد وإلى أن يحين أجل أحد منا!!!..

أعترف لك أن المسكين قد عرض علي الطلاق أكثر من مرة وهو منكسر لا يريد حتى أن ينظر إلى عيني.. لكني رفضت.. ربما لأنني كنت أشعر بالأسف نحوه.. كما أن هذا سيجعلني أبدو قليلة الأصل أمام الجميع.. وهناك سبب آخر كنت أعرفه في قرارة نفسي لكني حاولت أن أتجاهله.. إذ كنت أريد الحياة الهانئة التي لا أحمل فيها أي هموم مادية وأرفض تماما فكرة العودة إلى عالم الوظيفة وزحمة المرور صباح كل يوم والمرتب الذي أنتظره في نهاية كل شهر.

استمرت عنايتي بزوجي شهورا طويلة كنت فيها الأم والزوجة والخادمة.. محتملة حالته النفسية السيئة وبكاءه أحيانا كثيرة بسبب شعوره بالعجز وبقائه بين جدران البيت طوال الوقت تقريباً.. فلا يجد ما يفعله سوى مشاهدة التلفزيون.. أما أنا فلم أكن أفعل شيئا سوى الاهتمام به كما ذكرت لك.. شاعرة بإحباط هائل كلما أتذكر أن علي أن أعيش حياتي بأكملها بهذه الصورة!!!.. خاصة حين كنت أرى والدته وشقيقته يزورانه بشكل يومي في بادئ الأمر.. حتى قلّت زيارتهما له شيئا فشيئا ولم تعد تتجاوز مرة أو مرتين في الأسبوع.. فكنت أحسدهما كثيرا لحظة خروجهما من البيت لتعيش كل منهما حياتها تاركين مسؤولية ولدهما بالكامل علي وحدي.

نعم يا دكتور.. أنا بشر ومن حقي أن أعيش حياتي.. فلا يمكن أن أحتمل حياة الخادمة التي أعيشها دون إجازات من أي نوع ودون خروجي من البيت والاستمتاع بوقتي.. فتجرأت مع مرور الأيام وطلبت من زوجي صراحة أن نأتي له بممرض مختص ليهتم به بشكل دائم.. بالإضافة إلى ذلك الطبيب الشاب الذي يزورنا بصورة أسبوعية لفحص زوجي والاطمئنان على ما تبقى من حالته الصحية.

لا أنكر أنني رأيت خيبة الأمل الشديدة في عيني زوجي حين أخبرته بذلك.. فهو لم يكن يرغب أبدا أن تنهار خصوصيته أمام شخص غريب.. كأن يكون عاريا لحظة الاستحمام أمام أحد غيري مثلا.. أو أن ينظف له شخص آخر قاذوراته ويطعمه ويهتم به.. حتى وإن كان ممرضا مختصا.. لكني لم أكترث كثيرا لرغبته.. بل ولا أنكر أيضا أن شعلة الحب التي أحملها له في قلبي قد خبت شيئا فشيئا حتى باتت قريبة جدا من الانطفاء وإلى الأبد.. فأنا لم أكمل عامي الـ 22 بعد.. ومن غير المعقول أن أعيش كممرضة دائمة لزوجي وأحرم نفسي من كل ملذات الحياة.. بل وحتى من المعاشرة الزوجية التي أصبح عاجزا عنها بطبيعة الحال!!!.

المهم أنه لم يجد بدا من الاستماع لنصيحتي أخيرا.. خاصة

بعد أن لاحظ إهمالي التدريجي غير المتعمد له.. فطلب مني -مستسلما- الاتصال بإحدى الشركات الطبية لتوفير ممرض خاص له.. مما أشعرني براحة لا يمكن تصورها.. و.. بالفعل.. أيام قليلة قبل أن يصبح ذلك الممرض الآسيوي ركن أساسي من أركان البيت.. فكان يزور زوجي يوميا تقريبا.. ويهتم به اهتماماً كاملاً أزاح عني عبئا هائلا.. بالإضافة إلى ذلك الطبيب الذي أخبرتك عنه.. والذي كان يعطيني تقارير مستمرة عن حالة زوجي رحت أستمع إليها بشيء من الملل مؤخرا.

لقد كنت أريد رجلاً يتحمل مسؤوليتي وليس العكس.. رجل يشعرني بالحب والحنان وليس العكس!!!.. قد تصفني يا دكتور بالنذالة.. لكني أرد وأقول إنني بشر!!!.. ومن الصعب أن أكون مسؤولة عن طفل كبير كزوجي طوال العمر.. هذا مستحيل بكل المقاييس.

مرت الأيام التالية بهذه الصورة.. وانغمست شيئا فشيئا في عالمي الخاص مع صديقاتي.. فكنا نخرج كثيرا.. ونقضي أوقاتا ممتعة بحق.. بل إنني سافرت ذات مرة لأوروبا لمدة أسبوعين مع إحدى صديقاتي نسيت خلالها كل ما يتعلق بزوجي.. حتى أنني لم أتصل به للاطمئنان عليه سوى مرة واحدة أثناء فترة السفر.. شاعرة أنه لم يعد يربطني به سوى

عقد الزواج فحسب.. خاصة مع التطور الجديد في حياتي الذي لم أخبرك به بعد.. نعم.. ذلك الطبيب الشاب الذي يزور زوجي باستمرار!!!.

لا أنكر أنني كنت معجبة بوسامته كثيرا وهو أمر يندر أن تراه في الأطباء الذين نتخيلهم دوما قبيحي الشكل يرتدون نظارات سميكة حتى وإن كانوا صغارا في السن.. لكن ذلك الطبيب كان يختلف بالفعل!!!.. فهو شاب في أواخر العشرينيات من العمر.. كنت أحب أن أنظر إلى ملامحه وقوامه وأتأمله بإعجاب شديد وهو يجري فحوصاته على زوجي ويطرح عليه بعض الأسئلة محاولا تنشيط ذاكرته باستمرار وتخفيف حالة الشرود الذهني التي تصيبه بضع مرات كل يوم.

في البداية كنا نتبادل النظرات فقط.. وأحيانا نقضي بعض الوقت نتحدث في صالة الفيلا أثناء نوم زوجي.. حتى شعرت شيئا فشيئا أن الطبيب يقضي معنا وقتا أطول مما ينبغي.. بل وكنت ألمحه أحيانا ينظر إلي بذات الإعجاب.. لكني لم أعر الأمر اهتماما حينها.. فرغم كل شيء.. لم أفكر بخيانة زوجي إطلاقا.. إلا أنني وأثناء سفري مع صديقتي.. شعرت أنني أفتقد ذلك الطبيب بشدة.. أفتقده بحق.. وأنني.. أنني أحبه.. لم أدرك هذا إلا بعد أن ابتعدت عنه!!!.. إنه شاب طموح قادر

على إسعادي.. قادر على الخروج.. والسفر.. والحب.. وكل ما يعجز زوجي عن فعله!!!.

المهم أنني عندما عدت من السفر.. لم أنتظر طويلا.. إذ التقيت بالطبيب أثناء زيارته المعتادة لزوجي.. وشعرت أن نبضات قلبي تزداد وتدق بعنف مؤكدة حبي له.. فتصرفت بجرأة شديدة تبين مدى حاجتي لعلاقة حب طبيعية.. وصارحته بحبي وصدق مشاعري نحوه أثناء مرافقتي له إلى الباب الخارجي للبيت.. ماذا كانت ردة فعله؟؟!.. لقد نظر إلي بدهشة وحنان بالغين.. وقال متنهدا بعمق:

- آآآآآه لو تعلمين يا حبيبتي كم كنت أنتظر تلك الكلمة منك!!!.. كنت أحترق من الداخل وأنا أظن أن لا أملا هناك في أن تلتفتي إلي!!!.. إنني أحبك منذ اللحظة التي رأيتك فيها أول مرة.. لكني لم أجرؤ على مصارحتك بذلك كونك متزوجة.

لأرد عليه بشيء من التوتر:

- لست امرأة سيئة صدقني.. لكني أريد أن أعيش حياتي.. هذا كل ما أريده.. لا يمكن أن أدفن نفسي في هذا البيت الذي تحول إلى مستشفى صغير.. ثم إنني لم أفكر بخيانة زوجي في بادئ الأمر.. لكن.. وجودك المستمر في حياتي غيّر كل شيء.. لقد تعلق قلبي بك وأصبحت عاجزة عن مفارقتك لحظة

واحدة.. أدركت هذا أثناء سفري.. أنا أحبك!!!.

كانت هذه بداية علاقتي بذلك الطبيب.. علاقة حب جديدة اشتعلت فجأة وبقوة.. وبدا لي أنها تزداد اشتعالا كل يوم.. فرغم أننا كنا نتصرف بشكل رسمي بالطبع أمام الجميع.. إلا أننا ومع مرور الأيام.. وبسبب حالة الشرود الذهني التي يمر بها زوجي بين الحين والآخر جراء إصابة رأسه في الحادث.. رحنا نفقد حذرنا شيئا فشيئا.. بل كنا نمزح أحيانا أمامه بطريقة وقحة قبل أن نتدارك وجوده فنعود إلى التعامل بصورة رسمية.

أعتقد أن زوجي قد فهم أن علاقتي بالطبيب اتخذت منحىً آخر.. إذ كنت أراه يطرق برأسه حزنا وألما.. فبدا لي مهزوزا يائسا يتمنى الموت ولا يناله.. حتى أنه سألني صراحة إن كنت أخونه مع الطبيب.. لكني أقسمت له كاذبة أنني لم ولن أخونه أبدا.. إلا أنه لم يصدقني.. ولا يعقل أن يصدقني أصلا.. فكل ما كان حوله يوحي بخيانتي له!!!.

دكتور.. صدقني.. المرأة تعرف جيدا حين يضع الرجل عينيه في عينيها لكنه يرى امرأة أخرى في خياله.. حسنا.. أنا أعتقد أن زوجي يمتلك تلك الموهبة النسائية أيضا.. تسألني لماذا لم يطلّقني إذا؟؟!!.. سؤال وجيه بالفعل!!!.. المشكلة أنني

لا أعرف إجابته.. فهذا سر لم أفهمه.. يبدو أنه اكتفى بقسمي الكاذب.. وأنني أرغب في البقاء زوجة له ولا أرغب أبدا بالطلاق.. أو ربما لعلمه أن طلاقنا قد يعني أنه سيعيش وحيدا طوال العمر.. فلا يمكن أن تقبل به أي فتاة وهو بهذه الحالة.. وربما أيضا يشعر أنه يدين لي بالعرفان بسبب اهتمامي به في الشهور الأولى التي تلت الحادث وكيف كنت أسهر على راحته طوال الوقت.. أو قد يكون اعتاد على وجودي في البيت معه فحسب وإن أصبحت الآن أخرج كثيرا.. هناك أسباب عديدة لا أعرف أيها الأقرب إلى الصواب.. لكني على كل حال.. أرجأت التفكير في هذا الأمر لوقت آخر.

المعذرة.. لقد تغاضيت عن نقطة مهمة.. وهي أهل زوجي.. شقيقته تحديدا!!.. فقد تغيرت نظراتها لي كثيرا بعد أن رأت الإهمال الواضح من ناحيتي تجاه شقيقها.. وشعرت أنها بدأت تكرهني.. خاصة وأنها كانت تعرف أنني أخرج طوال الوقت تقريبا مع صديقاتي وأن هناك علاقة مريبة تربطني بالطبيب.. أعتقد أن زوجي أخبرها بشكوكه.. كما أن أحد أقاربها شاهدني ذات مرة مع الطبيب في سيارته.. وكنت حينها متأنقة للغاية!!!.. مما عزز شكوكها بقوة بالطبع.. لكني أقسمت لها أننا كنا متجهين لشراء دواء لزوجي ولم أجد حرجا من الركوب مع الطبيب كونه يزورنا كثيرا وأصبح

كأحد أفراد العائلة.

أعرف أن كلامي ليس مقنعا.. لكن هذا العذر هو أول ما طرأ في ذهني حين واجهتني بأمر خيانتي.. الأمر الذي جعلها تبدأ مع مرور الأيام بمضايقتي ورصد تحركاتي من خلال الاتصال بي بين الحين والآخر.. فقط لتعرف أين أخرج ومع من تحديدا!!!.. أو تسأل الخدم عن ساعات خروجي ودخولي البيت.. لقد كانت تراقبني بطريقة وقحة وسافرة كما ترى.. مما تسبب بعدة شجارات بيننا عبر الهاتف.. أو حتى أمام شقيقها حين كنت أعود من الخارج وأفاجأ بوجودها في البيت تنظر إلي بحقد حقيقي.. فكان هذا الأمر الوحيد الذي ينغص علي حياتي.

ماذا حدث بعد ذلك؟!.. استمر الحال كما هو شهورا أخرى توطدت فيها علاقتي بعشيقي الطبيب كثيرا.. قبل أن يطرح علي تلك الفكرة الغريبة التي لا أنكر أنها طرأت بذهني ذات مرة لكنني أخرجتها من دماغي سريعا.. نعم.. نحن نتحدث عن قتل زوجي بكل تأكيد.. أعلم أن الحديث عن هذا الأمر ليس سهلا.. وأعرف أن تنفيذه أشد صعوبة.. لكن.. فكر معي يا دكتور.. كم من أشخاص في هذا العالم تتمنى قتلهم لو سنحت لك الفرصة؟؟!!.. بل جميعنا -على الأرجح- لدينا قائمة نحتفظ

بها في أدمغتنا عن أناس نرغب بقتلهم دون أن نجرؤ على فعلها.. لكن البعض يجرؤ ويفعلها!!!.

فهؤلاء القتلة الذين يمتلئ بهم العالم لم يكونوا قتلة منذ ولادتهم بطبيعة الحال.. بل أصبحوا كذلك بعد أول جريمة قتل ارتكبوها.. وكل منهم ارتكب جريمته لسبب وجيه من وجهة نظره.. وأنا أيضا لدي سبب وجيه جدا.. أريد أموال زوجي.. وأريد عشيقي الطبيب في نفس الوقت.. فكيف سنحل تلك المعادلة إن لم نقتل زوجي؟؟!!.

لكن.. ورغم كل شيء.. عندما طرح علي عشيقي الطبيب فكرته.. رفضتها بشدة.. لكن مع مرور الأيام.. ومع إلحاحه.. رحت أدرسها في ذهني مرات عديدة كل يوم وأفكر فيها من مختلف الجوانب.. فزوجي في أسوأ حالاته ويتمنى الموت فعليا.. بل وصارحني بذلك عدة مرات بعد أيام من الحادث دون أن يجرؤ على الإقدام على تلك الخطوة.. لذا فأنا سأقدم له خدمة لا تقدر بثمن!!!.. و.. شيئا فشيئا وجدت أن الفكرة ليست سيئة أبدا.. خاصة حين أخبرني الطبيب أنه سيتولى تنفيذ عملية قتل زوجي بنفسه وسأكون أنا بعيدة تماما عن الشبهات!!!.

كل ما هو مطلوب مني أن أذهب إلى أي مكتب محاماه

لرفع قضية حجِر* على زوجي لمنعه من التصرف بممتلكاته كون دماغه قد تأثر بسبب الحادث وربما لا يكون مسؤولا عن تصرفاته!!!.. نصحني عشيقي الطبيب أن أقوم بتلك الخطوة كي أتمكن من الطعن بأي تصرف مفاجئ قد يقدم عليه زوجي تجاه ثروته.. كأن يسجل أمواله وممتلكاته باسم شقيقته أو والدته مثلا.. أو حتى خوفا من أن يطلقني بخطوة مفاجئة غير متوقعة.. فالطلاق يعني نهاية كل شيء وعدم استحقاقي لأي أموال.. أما في حالة وجود قضية حجِر.. فالأموال ستظل معلقة لفترة طويلة لحين إجراء التحقيقات والنطق في القضية.. وربما ستدفع لي شقيقته مبلغا كبيرا للتنازل وإنهاء كل شيء.. إنها خطوة هامة وضرورية كما ترى يا دكتور.. و.. بالفعل.. قمت بتوكيل محام ليرفع القضية على زوجي لينتهي دوري البسيط في الخطة.. ويبدأ بعدها بأسابيع قليلة دور عشيقي الطبيب لينفذ الجريمة التي ستبدو وكأنها حادث منزلي عابر!!.

* قضية الحجر -بكسر الجيم- هى عبارة عن دعوة قضائية تمنع ولي أمر العائلة من التصرف بأمواله.. وتنجح تلك القضايا أحيانا كثيرة.. خاصة إذا كان المعني بها إنسان سفيه مبذر في أمواله.. أو خارج عن الأهلية بسبب تعاطيه المخدرات مثلا.. أو حتى المصاب بمرض يمنعه من التحكم السليم والتصرف العقلانى فى أمواله وممتلكاته.. تماما كما هو الحال في قصتنا هذه.

فقد كانت خطة القتل بسيطة للغاية.. سيكون زوجي في كرسيه المتحرك الآلي كالعادة أثناء وجوده في الطابق الثاني.. وسيأتي الطبيب به عند حافة السلم ويدفعه من هناك بكل قوته.. سيسقط زوجي بكرسيه المتحرك على درجات السلم.. وقد تنكسر رقبته ويموت.. وإن لم يمت فسيلوي الطبيب رقبته ويقتله بطريقة فنية نشاهدها كثيرا في الأفلام وستخدع رجال الشرطة!!!.. لن يتمكن زوجي من الدفاع عن نفسه كما تعلم.. فهو مشلول تماما.. سيصرخ ويتوسل لكن هذا لن يدوم سوى لحظات قليلة قبل أن يريحه الطبيب من عذابه.

ولا ننسى دورا آخر صغيرا علي القيام به أثناء ارتكاب الجريمة.. وهو الخروج مع صديقاتي لتناول العشاء في أحد المطاعم الفخمة.. على أن يزور الطبيب زوجي في غياب الممرض ووجود الخدم في غرفهم بالملحق.. ليقوم بدفع الكرسي المتحرك من أعلى الدرج..

وهكذا وضعنا خطتنا قيد التنفيذ في تلك الليلة.. عندما كنت جالسة مع صديقاتي في مطعم (نينو) الشهير.. والساعة تقترب من التاسعة مساء.. أحاول الاندماج معهن وأن أبدو طبيعية قدر الإمكان.. بينما قلبي يدق بعنف منتظرة ذلك الاتصال الهاتفي من عشيقي ليخبرني أن الأمور على ما يرام

وأن عملية قتل زوجي قد تمت بنجاح.

أعترف أن الوقت كان يمر ثقيلا للغاية كحال كل من ينتظر حدثا مهما.. إلى أن حانت ساعة الفرج أخيرا!!!.. حين اتصل عشيقي بعد التاسعة بقليل ليخبرني وهو يلهث أن زوجي قد توفى بعد أن سقط من على الدرج وأنه فعل كل شيء لإنقاذه لكن السقوط كان قويا مما تسبب بكسر رقبته.. وأخبرني أنه أبلغ رجال الشرطة بالأمر وهم الآن موجودون مع الإسعاف في البيت.. وراح بعدها يواسيني ويعزيني بتمثيل واضح أمام رجال الشرطة الذين كانوا حوله دون شك.. أما أنا.. فقد أديت دوري كاملا أيضا.. إذ سقط الهاتف من يدي.. وانهمرت دموعي فجأة بمشهد تمثيلي مميز أستحق عليه كل ثناء.. فالتفتت صديقاتي حولي ورحن يسألني بقلق عما يحدث.. لأخبرهن وأنا أجهش في البكاء أن زوجي توفى في حادث منزلي.

بالطبع تسبب كلامي وبكائي بموجة من الحزن بين صديقاتي.. فاحتضنتني إحداهن بقوة وراحت تبكي معي.. في حين تجمدت أخرى من هول الموقف ولم تنطق بحرف.. وأخرى بدأت دموعها تنهمر لا شعوريا!!.. البكاء كالعدوى يا دكتور.. إن حدث حولك فستشعر بانقباض وحزن بدورك دون

أن تفهم السبب.. أنت طبيب نفسي وتدرك ذلك جيدا.. بل وهذا ما حدث بالفعل مع زبائن المطعم الذين راحوا يراقبوننا من بعيد دون أن يجرؤ أحد منهم على الاقتراب.

ظللنا على تلك الحالة قرابة نصف الساعة.. قبل أن ألملم شتات نفسي وأغادر المطعم وسط اعتراض صديقاتي وإصرارهن على أن أذهب مع إحداهن بسيارتها لأنني لن أتمكن من القيادة في هذه الحالة على حد قولهن.. لكني صحت بمشهد تمثيلي رائع إنني أريد البقاء وحيدة ولا أرغب بمرافقة أحد.. فتوجهت مسرعة إلى الخارج وسط نظرات الحزن التي أحاطت بي من كل رواد المطعم تقريبا دون أن يفهم معظمهم سبب بكائي.. ثم توجهت إلى سيارتي التي ما إن ركبتها.. حتى تنفست الصعداء.. شاعرة أنني مقبلة على مرحلة جديدة من حياتي.. وأن الأهم قد مر بسلام!!!.

أثناء طريقي إلى البيت.. رحت أحاول إخفاء فرحتي.. أحاول أن أكمل مسلسل التظاهر بالحزن.. ففعلت شيئا مقززا لكني وجدته ضروريا.. إذ أوقفت سيارتي على جانب الطريق العام.. ثم وضعت أصبعي في فمي.. فتقيأت كل ما تناولته في وجبة العشاء.. وتأكدت أن دموعي قد أتلفت ماكياجي.. نعم.. أريد أن أبدو متعبة منهكة حين أصل إلى البيت وأقابل

رجال الشرطة.. لاشك أنهم هناك الآن مع عشيقي الطبيب.

لا داعي للحديث عما حدث بعد ذلك من استكمال مسلسل التمثيل والبكاء والنحيب أمام رجال الشرطة والإسعاف وعشيقي الذين يحاولون جميعهم تهدئتي.. ثم يأتي دور والدة زوجي وشقيقته اللتين جاءتا إلى البيت مصدومتين غير مصدقتين ما أبلغهما به رجال الشرطة.. بالطبع كانت والدة زوجي منهارة.. بل إنني لم أرَ امرأة في مثل سنها من قبل وهي تصرخ وتقفز من لوعتها بطريقة جنونية أخافتني كثيرا.. وكأن أحدهم يقوم بانتزاع قلبها من جسدها.. أنا لست أمّا كما تعلم يا دكتور.. فلا أعرف شعور الأم حين تفقد ولدها الوحيد.. لكني أصف لك الحزن الذي حطمها وجعلها تتصرف كالمجانين.

أما شقيقته فقد هاجمتني أمام الجميع بشراسة فور دخولها البيت وهي تصرخ وتلعنني مدعية أنني السبب وراء موت شقيقها وأن دمه لن يذهب هدرا!!!!.. ثم راحت تخبر الشرطة أنني على علاقة غرامية بالطبيب وأنني على الأرجح قمت بالتخطيط معه لقتل زوجي الذي أخبرها منذ مدة بشكوكه حول خيانتي له.. مع سيل من الاتهامات التي لا تنتهي.. حتى أنها استخدمت شتائم قذرة لا أستطيع كتابتها.. فكنت أرد وأصرخ بمشهد تمثيلي رائع بأنها هي الحقيرة التي تتهمني بخيانة زوجي

الراحل وأنا ما زلت تحت وطأة صدمة وفاته!!!.. لتصرخ هي بالمقابل وتقذفني بأقذر شتيمة.. فأرد بتحد:

- لن أخاف منك أيتها اللعينة.. لن تجدي كلمة خوف في قاموسي!!!.

وترد بدورها بجنون:

- لا يهمني قاموسك.. إنني أرى الخوف في عينيك أيتها الحقيرة!!!.

إنه شجار بنات يا دكتور.. معركة كلامية لا تتوقف.. مع شد الشعر واستخدام الأظافر بالطبع.. إلا أن رجال الشرطة تدخلوا بيننا سريعا لفض الشجار.. ووضعوا كل منا في زاوية حيث رحنا نلهث وكل منا تبكي.. نعم.. لقد كنت أبكي دون تمثيل هذه المرة من هول الموقف.. في حين وقف عشيقي الطبيب صامتا ولم يتدخل إطلاقا بما حدث.. بل أخبر رجال الشرطة قبل مغادرتهم البيت -ومعهم جثمان زوجي- أنه يملك كل الحق في مقاضاة شقيقة زوجي لاتهامها له بهذه الصورة المقززة.. لكنه لن يفعل ذلك احتراماً للظروف!!!.

مرت بعدها الأحداث ببطء شديد.. أيام العزاء.. وتظاهري بالحزن والانكسار.. ثم تحقيقات رجال الشرطة بعد

أن اتهمتني شقيقة زوجي رسميا بأنني كنت أخونه قبل أن أتخلص منه وأقتله بالاتفاق مع عشيقي الطبيب!!!.. كما ترى.. لم تكن الأمور تبشر بالخير.. وربما ساعدني هذا بصورة أكبر على الظهور بمظهر الزوجة المنكوبة المفجوعة لوفاة زوجها.. إذ كنت قلقة بالفعل جراء ما يحدث.. ولم أتوقع للحظة أن تلك اللعينة ستتهمني رسميا بالخيانة وبارتكاب جريمة قتل!!!.

ولكن.. بعد حوالي أسبوعين من التحقيقات.. أغلق ملف القضية.. خاصة بعد أن عجزت شقيقة زوجي عن الإجابة على ذلك السؤال الذي وجهه إليها المحقق:

- إذا كنت واثقة من خيانة زوجة شقيقك مع الطبيب.. فلماذا لم تخبري شقيقك بذلك قبل موته؟!.. ولماذا استمر عمل الطبيب في بيتكم أصلا؟؟!.

كان ردها ضعيفا للغاية:

- لم أكن أملك الدليل القاطع على خيانتها سوى مشاهدة أحد أقاربي لها مع الطبيب في سيارته.. ثم عرفت أنها قد رفعت على شقيقي قضية حجِر.. ليموت بعد ذلك فجأة في حادث منزلي!!!.. هناك أمر مريب في كل هذا.

وعلى الرغم من دقة كلامها.. إلا أنه كان يستحيل إثباته

بطبيعة الحال.. وهذا أجمل ما في القانون والقضاء.. فليس مهما ما تعرفه.. بل ما تستطيع إثباته!!!.. وقد استفدت كثيرا من هذه النقطة كما ترى يا دكتور.. فقد أغلق ملف القضية بعد تحقيقات موسعة كما ذكرت.. واعتبر رجال الشرطة وفاة زوجي قضاء وقدرا وأنه كان يحاول استخدام ذراعه لتوجيه عصا التحكم في كرسيه الكهربائي لكنه فقد سيطرته على الكرسي ووقع على درجات السلم وانكسرت رقبته.. واحدة من الحوادث المنزلية التي يذهب ضحيتها الكثيرون في كل مكان في العالم.. و.. لك أن تتخيل فرحتي.. إذ شعرت حينها أنني ولدت من جديد.. فتاة جميلة في الحادية والعشرين من عمرها سترث مبلغا هائلا من المال هو نصيبها من ثروة زوجها.. وستعيش من الآن فصاعدا حياة مليئة بالزهور والحلوى والرفاهية و.. الحب!!!.

بعد أكثر من شهر من ادعاء الحزن وتمثيل الاكتئاب.. اتصلت بمحامي العائلة.. وسألته بشغف حاولت أن أخفيه قدر الإمكان عن أملاك زوجي ونصيبي من الورث.. لكنه وجه لي صدمة مروعة حين أخبرني أن زوجي قد باع كل عقاراته قبل وفاته بفترة بسيطة وبعد أن علم بقضية الحجر التي رفعتها ضده.. ثم سحب كل الأموال من البنك.. ولا يعلم أحد أين خبأها!!!.. تصرف غريب لا يفعله أحد سوى في الأفلام وقصص

القرون الوسطى!!!.. هذا لا يصدق!!.. سألت المحامي بتوتر هائل شاعرة أن لساني قد جف تماما وأنني مقبلة على مصيبة:

- هل.. هل ترك وصية ما؟!!.

قال نافيا:

- لا أعلم يا سيدتي.. لم يخبرني بأي شيء!!!.. أنا لا أفهم لماذا فعل كل هذا!!.

عندها فقط كاد أن يغمى علي.. كل ما خططنا له يذوب بهذه البساطة؟!!.. أنهيت المكالمة وثعابين القلق تنهش قلبي.. واتصلت مباشرة بعشيقي الطبيب الذي غضب كثيرا جراء هذا الاتصال.. فمن المفترض ألا أبدأ بالتواصل معه بأي صورة إلا بعد سنة من الآن كما اتفقنا.. على أن ألتقي به في مكان ما بصدفة مفتعلة وأثناء وجودي مع صديقاتي كشهود على ذلك.. ثم يتقدم بعدها لخطبتي رسميا حيث تكون الأمور قد هدأت تماما حينها.. نعم.. فرغم إغلاق ملف القضية.. إلا أن عشيقي كان يرغب بالمزيد من الحذر وعدم إثارة الشكوك.

لكن.. عندما أخبرته بأمر اختفاء ثروة زوجي.. نسي كل حذره وأصيب بصدمة مروعة.. بل تشاجر معي في البداية ظنا

منه أنني أكذب عليه.. لكني أقسمت له أكثر من مرة أنني محقة تماما فيما أقول وأنني خاطرت واتصلت به -متجاهلة تحذيره- بسبب هذا الأمر!!!.. فراح يفكر بعمق وتوتر قبل أن تساوره الشكوك في المحامي.. هل المحامي يكذب؟!.. لا يمكن!!!.. إن هذا سيخضعه للتحقيقات والمساءلات القانونية.. ثم إنه يستحيل أن يثق زوجي إلى هذا الحد بالمحامي ويسلمه كل ثروته مثلا!!!.

ترى.. هل منح الأموال لشقيقته كما كنا نخشى؟!!.. لا أعلم.. نستطيع أن نطعن بهذا الإجراء كما أخبرتك يا دكتور.. وهذا أهم سبب لقضية الحجِر التي رفعتها على زوجي قبل وفاته.. لكن الأهم أن نعلم أولا أين هي الأموال.. ربما علي أن أقدم بلاغا ضد شقيقته أو والدته.. فهما الوحيدتان في العالم اللتان قد تودع الأموال باسميهما.. ولو اتضح أن الأموال ليست بحوزتهما.. فعلي حينها البحث في كل شبر في الفيلا عله ترك أي شيء يدل على مكان ثروته.

لم أكذب خبرا.. إذ أبلغت محاميّ الشخصي مباشرة بالأمر وطلبت منه أن يقدم بلاغا ضد شقيقة زوجي ووالدته.. فربما تكون الأموال بحوزتهما.. اللعنة.. ستكون قضية شائكة قد تتطلب وقتا طويلا للبت فيها.. كنت أخشى هذا الأمر كثيرا..

المهم أن شقيقة زوجي قد اتصلت بي بالطبع بعد أن عرفت أنني تقدمت ببلاغ ضدها أتهمها فيه بإخفاء المال.. وأسمعتني كل ما يخطر بذهنك من شتائم.. لكني لم أكترث لشتائمها إطلاقاً.. كنت أريد معرفة مكان الثروة.. المشكلة أنها أنكرت تماما معرفتها بما فعله شقيقها بالأموال.. بل وأبلغت رجال الشرطة أنهم يستطيعون التأكد من كل أرصدتها وأرصدة والدتها البنكية كما يشاؤون للتيقن من كلامها!!!.

كان اللغز يزداد غموضا.. والسؤال يكبر في عقلي يوما بعد يوم حتى يكاد يلتهم كل خلايا دماغي.. أين اختفت الأموال؟!.. هل من الممكن أن تخفي شقيقة زوجي الأموال عندها في البيت مثلا؟!!.. ملايين الدنانير تخفيها في البيت؟!.. هذا مستبعد.. إذ سيستخرج حينها رجال الشرطة إذنًا من النيابة لتفتيش البيت وستكون شقيقة زوجي بمأزق حقيقي.

ربما.. ربما علي اللجوء للخطوة التالية علها تكشف شيئا.. أتحدث بالطبع عن البحث في كل شبر في البيت.. ربما يكون زوجي قد كتب وصية ما.. أعلم أنه كان مشلولا تماما ولا يستطيع الكتابة.. لكن.. ربما استعان بأحدهم لكتابتها مثلا.. أو ربما سأعثر على أي شيء آخر قد يدلني على مكان الأموال.. اللعنة.. لقد فكرت في كل الاحتمالات.. سوى أن تختفي ثروته بهذه الطريقة

الغريبة!!!.. ترى.. هل ينتقم مني زوجي بسبب إهمالي له وعلاقتي الغرامية مع الطبيب؟؟!.. سؤال لا أملك إجابته!!.

قضيت بعدها ليال سوداء في الفيلا أبحث في كل شبر منها عن أي ورقة أو أموال قد يكون زوجي خبأها هنا أو هناك.. من المستحيل أن يخبئ أحدهم ملايين الدنانير في بيت دون أن تعثر عليها.. مستحيل تماما.. لقد خبأ أمواله في مكان ما خارج البيت على الأرجح.. ولكن أين؟!.. هل يملك حسابا بنكيا لا نعرف عنه شيئا في إحدى الدول مثلا؟!!.. لا بد أن تكون هناك ورقة تكشف ذلك الحساب البنكي.. أي شيء يكشف لي كل هذا الغموض!!!.

أعلم أنك تلحظ تغيرا ملموسا في شخصيتي يا دكتور كوني أركض وراء المال بهذه الطريقة الغريبة وأكشف عن طمع -فاجأني أنا شخصيا قبل أن يفاجئك- كان يختفي بداخلي طوال تلك المدة.. وأعلم جيدا أن النقود لا تشتري السعادة.. لكنها تقلل من وطء التعاسة على الأقل.. لا أعتقد أن أحدا يخالفني الرأي في ذلك!!!.

لم أتوقف أبدا عن محاولة العثور على مكان الأموال.. كنت أردد بيني وبين نفسي إننا نحاول كثيرا ونفشل.. نحاول مرة أخرى ونفشل.. لكن هذا لا يهم.. فالفشل الحقيقي هو

حين نتوقف فعليا عن المحاولة!!!.. ولا أنكر أنني كنت أصاب أحيانا باليأس والإحباط أثناء البحث.. والإحباط عموما لا يعني الضعف.. بل قد يعني أيضا أنك كنت قويا لفترة طويلة للغاية.. لذا فقد كنت أستريح بضع ساعات أتمالك فيها نفسي.. قبل أن أبحث للمرة العاشرة في كل شبر من البيت وفي غرفة المكتب تحديدا وأنا أتساءل.. ترى.. هل كل مليونير يوجد في غرفة مكتبه رفّا يستدير ويخفي وراءه كل أسراره؟!!.. لكني لم أعثر على أي رفوف تستدير.. إلا أنني عثرت بعد حوالي أسبوعين من البحث المستمر على تلك الورقة!!!.

لا.. لم تكن وصية.. بل مجرد ورقة تخبرني بمكان الأموال فحسب.. لقد وجدتها في مكتبه بين رزمة فواتير تخص شركاته العقارية.. تخيل أنني اضطررت أن أفتح كل الملفات واحدا تلو الآخر في غرفة مكتبه الضخمة بعملية شاقة جدا إلى أن عثرت على تلك الورقة.. بالطبع أنت تشعر باستغراب يا دكتور عن السبب وراء عدم شعوري بالفرح جراء هذا الاكتشاف!!!.. لكن لو عرفت السبب فلن تلومني.. في الواقع أن الورقة قد بينت لي أن هناك كارثة حقيقية قادمة على الطريق!!!.. نعم.. لقد عرفت مكان الثروة أخيرا.. ولكن ثمن العثور عليها سيكون باهظا.. ستحترق أعصابي.. سأموت من شدة التوتر والرعب!!!.

حسنا.. سأخبرك بما عثرت عليه ولكن حاول أن تتمالك أعصابك يا دكتور.. لأن ما سأقوله لا يصدق!!!.. الورقة التي عثرت عليها بين ملفات زوجي هي جزء من مفاتيح اللغز فحسب.. إذ تشير إلى ورقة أخرى هي التي حدد فيها زوجي مكان الأموال.. المشكلة أن الورقة الأخرى هذه صغيرة جدا وربما يجب استخدام عدسة مكبرة لقراءتها!!!.. أمر غريب أليس كذلك؟!!.. لن تستغرب لو علمت أن الورقة الصغيرة هذه موجودة في كبسولة بلاستيكية بحجم كبسولة الأدوية.. وقد خبأها زوجي في جسده بمساعدة الممرض قبل مقتله بأسابيع قليلة!!!!.. جنون؟؟!.. بالتأكيد كذلك.. فقد قام الممرض بفتح جرح صغير في فخذه.. وخبأ الكبسولة هناك.. بالطبع لم تكن العملية مؤلمة لأن زوجي مشلول كما نعرف.

لماذا فعل ذلك؟!!.. السبب واضح بالطبع.. لقد عرف أنني رفعت عليه قضية حجِر لمنعه من التصرف بأملاكه.. ولو سجل ثروته باسم شقيقته مثلا فسأطعن بهذا الإجراء كوني طعنت أساسا بسلامة زوجي العقلية كما أخبرتك سابقا.. لذا يبدو أنه أخفى ثروته في مكان ما كي لا أصل إليها أبدا حتى وإن كسبت القضية.. ماذا عن شقيقته؟!.. هل أبْلغها بمكان الثروة؟!.. لا أعلم.. هل ترقد ملايين الدنانير في دولابها مثلا؟!!.. تساؤل طرحته قبل هذه المرة وأطرحه

الآن مرة أخرى.. لكن بعد تفكير أجد أن هذا مستحيل.. هل تذكر ما قلته لك سابقا؟!.. فلو كسبت قضية الحجِر كما هو متوقع استنادا إلى إصابات زوجي في رأسه جراء الحادث.. ستستخرج الشرطة حينها أمرا من النيابة وتقوم بتفتيش بيت شقيقته ووالدته.. وربما مراقبتهما جيداً بعد ذلك للتأكد أنهما لم يخبئا الثروة في مكان آخر مثلاً في حال لم يعثروا على الأموال عندهما في البيت.

اللعنة.. شكوك وأفكار لا تنتهي.. ولن يقطعها سوى حقيقة واحدة أكره كثيراً الاعتراف بها.. نعم.. عليّ أن أذهب وأنبش قبر زوجي لأستخرج تلك الكبسولة البلاستيكية من بقايا جثته بعد قرابة الشهرين من وجودها تحت التراب!!!.. خيار مخيف يقشعر بدني لمجرد التفكير فيه.. فهذا يعني أيضا زيارة المقبرة ليلا بعيدا عن أعين المتطفلين!!!.. هل عرفت حجم الكارثة؟!!.. هل يتخيل أحد أن تقوم فتاة رقيقة مثلي باقتحام مقبرة في وقت متأخر من الليل ونبش أحد القبور لتصطدم ببقايا جثة متحللة وتخرج من طياتها كبسولة صغيرة؟!!.. هل سأجد تلك الكبسولة أصلا؟!!.. وهل الورقة التي وجدتها بين ملفات زوجي حقيقية أم وضعتها شقيقة زوجي اللعينة لتتلاعب بي؟!!.



لا أعتقد.. فالورقة كانت مخبأة بين آلاف الأوراق وتحتاج إلى بحث دقيق وصبر خيالي للعثور عليها.. أعتقد أن زوجي خبأها هنا متوقعا ألا يعثر عليها أحد.. فمن المستحيل تقريبا العثور على حبة قش محددة وسط كومة من القش!!!!.. أليس كذلك؟!!!.. لاحظ العبارة السابقة واقرأها جيدا يا دكتور!!!.. لماذا إذاً فعل ذلك؟!!.. لا أعلم.

أسئلة كثيرة لن أجد الإجابة عليها إلا إذا نبشت القبر.. يبدو أن لا مفر من تلك الخطوة!!!.. هل أتصل بعشيقي الطبيب لأخبره باكتشافي المخيف؟!.. حسنا.. سأخبرك صراحة أنني لا أريد فعل ذلك.. لقد قادني انعزالي عن الناس بعد مقتل زوجي إلى الشك في الجميع.. فما الذي سيمنع الطبيب من قتلي كما قتل زوجي.. ربما هو لا يحبني.. إنما يطمع في الثروة فحسب!!!.. ربما سيذهب معي إلى المقبرة ويقتلني هناك بعد أن يعثر على الكبسولة ويعرف من خلالها مكان الأموال.. ثم يدفنني مع جثة زوجي!!!.. ولو طلبت منه الذهاب بمفرده لنبش القبر فسيكون هذا الحل أغبى من سابقه لأنه قد يسرق الأموال ويهرب بها!!!.. دعك من الاحتمال الذي يراودني بين الحين والآخر.. وهو أن رجال الشرطة يراقبوني.. لذا يفضل ألا يراني أحد مع الطبيب.. كل الاحتمالات مفتوحة على مصراعيها!!!.. كما ترى.. لا يوجد أي حل سوى الذهاب بنفسي

ونبش القبر لإخراج تلك الكبسولة.. ويجب أن أكون بالغة الحذر كي لا يتبعني أحد من رجال الشرطة مثلا ويعرف ما أنوي فعله.

حزمت أمري في نفس الليلة في الساعة الحادية عشرة مساء.. وربطت شعري على طريقة ذيل الحصان.. ثم ارتديت ثيابا رياضية مع قبعة أخرجت ذيل الحصان من فتحتها الخلفية حتى بدوت كإحدى فتيات القوات الخاصة في الغرب.. ثم خرجت بعدها بسيارتي أحمل معي الرفش الذي يستخدمه الخادم أحيانا للاعتناء بالحديقة.. وحقيبة تحوي زجاجات الماء مع مصباح كبير الحجم نسبيا -عثرت عليه في مخزن البيت- من الممكن أن أضعه على الأرض لينير لي المكان.. لتأتي بعدها الخطوة الأصعب.. التوجه إلى مقبرة (صبحان) حيث دفن فيها زوجي!!!.. لكني قدت سيارتي قبل ذلك لمدة ساعة كاملة أتنقل بين المناطق السكنية.. فقط لأتأكد أن أحدا لا يتبعني.

كنت أقود سيارتي بتوتر شديد يزداد حدة كلما اقترب وصولي إلى المقبرة.. أنا الفتاة الرقيقة الناعمة التي لا تعرف في هذا العالم سوى الاعتناء بجمالها والموسيقى الحالمة والبحث عن الحب.. أصبحت فجأة قاتلة وأنبش القبور للبحث عن ثروة زوجي.. حقا للمال سلطة وهيبة مخيفة.. لكني ظللت

أذكر نفسي بالحكمة التي أرددها دائما.. وهي أنك إذا أردت النجاح في حياتك.. فافعل ما تخشاه!!!.. وإذا أردت الحصول على شيء لم تحصل عليه من قبل.. فيجب عليك أن تفعل شيئا لم تفعله من قبل.. وها أنا أفعل شيئا لم أفعله من قبل!!!.

تشق سيارتي الطريق ليلا والشوارع هادئة نسبيا.. خواطر كثيرة تنساب إلى ذهني حول كل ما حدث منذ زواجي.. يبدو.. يبدو أن الظروف لا تصنع الإنسان.. إنما تكشفه لنفسه فحسب!!!.. وقد كشفتني الظروف لنفسي جيدا.. لكني سأعود إلى طبيعتي وإلى الفتاة التي كنت عليها بعد أن تنتهي تلك المغامرة بسلام!!!!.. و.. وصلت إلى مقبرة (صبحان) أخيرا.. لكني لم أتوجه لبوابتها الرئيسية بالطبع.. بل رحت أقود سيارتي حول المقبرة عبر الطريق الرملي الوعر متجهة إلى السور الخلفي.

أطفأت مصابيح سيارتي التي التصقت تقريبا بسور المقبرة.. ثم خرجت من السيارة والتفت حولي بقلق شديد للتأكد أن أحدا لا يراقبني.. أخذت بعدها الرفش ورميته داخل سور المقبرة.. ثم صعدت على ظهر السيارة للتسلق والوصول إلى حافة السور.. أما الحقيبة فقد كنت أحملها خلف ظهري.. ليس الأمر سهلا بكل تأكيد.. الخوف والقلق والترقب و..

القفز ليس سهلا أيضا بالنسبة لفتاة مثلي!!!.. بدا هذا واضحا حين قفزت إلى داخل المقبرة.. إذ شعرت بآلام رهيبة في ركبتي وساقي وكفي.. لقد جرحت نفسي بكل تأكيد.. لكن لا يهم كل هذا الآن.. هناك هدف أهم.. سأعالج نفسي فيما بعد.. ستزول تلك الجروح السطحية وستبقى الأموال حين أعثر عليها!!!.

رحت أمشي في المقبرة بتوتر شديد والعرق يتصبب مني في تلك الفترة من شهر (يونيو).. شواهد القبور الكئيبة تطل من كل ركن حولي.. والظلام ينهمر علي كالأمطار.. كل نقطة سوداء على حدة!!!.. إنها المرة الأولى في حياتي التي أدخل فيها مقبرة.. المرة الأولى وفي ظروف استثنائية للغاية..

أبحث في تواريخ الوفاة الموجودة على شواهد القبور.. أمشي بين أقسام المقبرة لأكثر من ساعة.. قبل أن أقف أخيرا أمام قبر زوجي ورائحتي امتزجت بالعرق والتراب بمزيج بغيض لا يحتمل.

أرجوك يا دكتور لا تسألني عن الهيبة الشديدة والرجفة التي سيطرت علي وأنا أقف أمام قبر شخص أنا خططت مع عشيقي لقتله.. ولا تسألني حتى عن ذلك القط الأسود الذي رأيته يمشي بالقرب مني وكاد أن يسبب لي سكتة قلبية.. هذه أمور مفروغ منها.. دعنا نتحدث عن الأهم الآن.

تداركت نفسي.. وأخذت نفسا عميقا.. ثم أمسكت بالرفش.. وأضأت المصباح ووجهته ناحية القبر.. لحسن الحظ أن مكان القبر بعيد تماما عن بوابة المقبرة الرئيسية فلن يلاحظ الحارس شيئا.. أو هذا ما أتمناه على الأقل.. أخرجت واحدة من زجاجات الماء التي وضعتها في حقيبتي.. نعم.. لقد جفت التربة تماما بفعل حرارة الجو.. والحل الأفضل هو رش بعض الماء لتسهيل الحفر.. و.. لك أن تتخيل حالي.. فقد كانت أوقات عصيبة بحق.. تمزق فيها معصمي تماما وشعرت بآلام حادة في ذراعي وظهري وأنا أحفر في الطين.. أنا التي لم أمارس أي رياضة في حياتي.. تجدني فجأة أقوم بذلك العمل المهلك الذي لا يصلح إلا للمساجين أو عمال البناء.. لكن الأمر يستوجب التضحية.. سأملك الوقت كله لأتعافى بعد الحصول على الأموال!!!.

كان هذا هو الدافع الأكبر للحفر.. وكما يقولون دائما.. كان عقلي هو الذي يعمل وليس جسدي.. أحفر بقوة.. وكومة التراب بجانبي ترتفع.. وأنا أنزل.. وأنزل.. وأنزل.. وخواطر متضاربة تمر في عقلي.. تلاشت شيئا فشيئا بعد أن وصلت أخيرا إلى نهاية القبر.. وإلى حيث اللحاف الأبيض الذي يلتف حول ما تبقى من جثمان زوجي!!!.

كان الشعور غريبا.. في مواقف كهذه من المفترض أن

أصاب بانهيار عصبي.. لكني وجدت نفسي قوية أنظر إلى بقايا جثة زوجي بثبات غريب.. إنه سحر المال وبريقه دون شك.. فهو يظهر جانبا آخر من شخصيتنا.. يظهر وجهنا الحقيقي.. رحت بعدها بلهفة أمزق اللحاف الأبيض.. بالطبع لم يعد أبيض بعد أن اختلط بالتربة قرابة الشهرين منذ مقتل زوجي ودفنه.

وأخيرا.. ها أنا أواجه موقف قاس.. صعب.. مخيف.. مرعب.. أقف أمام بقايا جسد زوجي الذي لم يتحلل بالكامل بعد ورائحة العفن قد ملأت الجو فجأة.. الغريب أنه لم يطرف لي جفن رغم كل هذا.. بل تصرفت بطريقة عملية للغاية وكأنني معتادة على مواقف كهذه.. إذ ارتديت قفازاً بلاستيكياً جلبته معي للبحث بين بقايا زوجي.. ورحت بعدها أبحث كالمجنونة عن الكبسولة البلاستيكية الصغيرة شاعرة وكأنني موجودة في عالم الشياطين.. وإذا التقيت بالشيطان في طريق الحياة يا دكتور.. فهذا يعني إنكما متجهان في نفس الاتجاه!!!.

لكن كل هذا لا يهم الآن.. أين هي الكبسولة اللعينة؟!.. أنظر حولي بقلق بالغ والثياب ملتصقة تماما بجلدي بفعل صمغ كريه هو العرق المختلط بالأتربة.. و.. ارتسمت على وجهي علامات الرضا بعد كل هذا العناء حين لمحت الكبسولة سليمة تماما تنتظرني بصمت وصبر.. بالطبع.. البلاستيك يحتاج

إلى 100 عام تقريبا للتحلل وربما أكثر*.

أمسكت بالكبسولة بحذر شديد وقربتها من المصباح.. ثم رحت أفتحها بحرص بالغ.. وأخرجت منها ورقة دقيقة جدا مطوية بعناية شديدة.. حتى أنني استغرقت بضع دقائق لفردها حيث بدت لي بحجم فاتورة صغيرة.. يبدو أنني في الطريق الصحيح.. أي فكرة مجنونة كنت تمارسها يا زوجي العزيز؟!!.. أقرأ ما هو مكتوب بعينين ضيقتين لصغر الخط وبلهفة شديدة.. يا إلهي.. هذا مذهل.. مذهل.. مذهل.. لا أعرف كيف أصف ما أقرأه!!!.

إن أموال زوجي قريبة للغاية مني يا دكتور وعلى بعد بضعة أمتار فحسب.. لقد.. لقد دُفنت في القبر المقابل.. هذا ما تقوله الورقة.. هل هذا يعني أن علي أن أحفر القبر المقابل لقبر زوجي أيضا؟!.. لحسن الحظ أنني لن أضطر لفعل ذلك.. فالورقة تشير إلى وجود باب حديدي صغير بالكاد يتسع لشخص واحد ليمر منه عبر نفق صغير أُعد مسبقا للذهاب إلى القبر التالي!!!!.. هذا يفوق كل خيال.. يفوق كل وصف.. حتى إنني نسيت العالم بأكمله وظننت للحظة أنني أعيش في القرون الوسطى حيث تنتشر المخابئ السرية في القلاع!!!..

---

* حقيقة.

من يتخيل أن هناك نفقاً بين قبرين متقابلين في مقبرة (صبحان) تختبئ في أحدهما ملايين الدنانير؟!!.

رحت أمسح بيدي على جدران القبر باحثة عن ذلك الباب الحديدي الذي غطته التربة دون شك.. لم يطل الأمر كثيرا بالطبع لصغر جدران القبر.. فقد عثرت على مقبض حديدي دقيق جدا.. قمت بنفض التراب عنه سريعا وبلهفة إلى أن ظهر الباب الحديدي بأكمله.. باب حديدي مربع أقرب إلى منفذ صغير.. إنه يفتح من الأسفل إلى الأعلى.. وكأنه شباك.. هذا غريب.. كيف تم دفن جثة زوجي بواسطة أقاربه ولم يلحظ أحد ذلك الباب الحديدي على جدار القبر؟!.. ربما طلب من أحدهم أن ينبش القبر لاحقا ويصنع ذلك الباب مع ممر يؤدي للقبر المقابل؟!!.. لا أعلم.. سأفكر بذلك لاحقا.

فتحت الباب الحديدي.. ورحت أزحف بصعوبة عبر النفق القصير.. لحسن الحظ كانت المسافة قريبة جدا لا تتجاوز المتر بين القبرين.. فنحن نتحدث عن القبر المقابل لقبر زوجي فحسب.. أضأت مصباحي اليدوي بتوجس حال عبوري النفق.. لأجد نفسي في قبر خال تماما!!!.. قبر لم تملؤه الرمال.. بل تغطي سقفه وجدرانه وأرضه طبقة سميكة من الأسمنت حتى بدا وكأنه سرداب معزول تماما عن العالم الخارجي.. هذا

جميل ولكن.. أين المال؟!!.. أين ثروة زوجي؟!!.

شعرت بذعر هائل حين رأيت القبر -أو السرداب- خاليا تماما.. فقمت أبحث حولي بجنون وأنا أمسح العرق الذي بدأ يتدفق إلى عيني من شدة الحر ونقص الهواء حتى أوشك على أن يصير بركة صغيرة قد أغرق فيها!!.. إلى أن عثرت أخيرا على ورقة أخرى موجودة في علبة زجاجية في زاوية هذا القبر الأسمنتي الغريب.. متى ينتهي هذا العبث؟!!.. متى ننتهي من تلك الأوراق ونعثر على الثروة؟!!!.

أخرجت الورقة من العلبة سريعا وفضضتها بأصابع ملأها العرق والغبار.. ثم.. رحت أقرأها بصدر يعلو ويهبط بقوة من شدة الحر ونقص الهواء.. و.. انتفض قلبي.. لا.. لم ينتفض.. بل كاد أن يتوقف!!!.. وشحب وجهي كثيرا حتى خلا من الدماء.. فنسيت المال.. ونسيت الثروة.. ونسيت كل شيء.

كانت الورقة تحوي رسالة من شقيقة زوجي.. نعم.. شقيقة زوجي اللعينة.. الرسالة تقول حرفيا: ((اذهبي إلى الجحيم.. أنت الآن محبوسة في هذا القبر ولن تتمكني من الخروج منه أبدا.. لقد قمت برشوة عمال البلدية ليقوموا بردم القبرين المقابلين لقبر شقيقي كي أستفيد منهما لاحقا لتنفيذ انتقامي.. وها قد نفذت انتقامي كاملا.. لقد صنعت

هذا القبر خصيصا لك.. صنعته قبل موتك.. وداعا أيتها المجرمة.. هذا ثمن خيانتك لشقيقي.. إنني أراقبك حاليا من خلال جهاز التعقب في هاتفك النقال.. والذي أشغلته في هاتفك دون علمك في إحدى زياراتي لشقيقي أثناء وجودك في الحمام.. لهذا أنا أعرف جيدا أنك في القبر الآن تقرأين هذه الرسالة التي أعددتها لك وجلست أنتظر وصولك لها.. أما الطبيب فسيكون جثة هامدة في قبر آخر مقابل لقبرك.. نعم يا عزيزتي.. هناك 3 قبور.. أحدها لشقيقي.. والثاني لك.. والثالث سيكون للطبيب.. فلا يوجد في العالم مكان أفضل من إخفاء الجثث سوى في المقبرة وبين آلاف القبور الأخرى.. أليس كذلك؟!!.. هذا هو المكان الوحيد الذي لن يبحث فيه رجال الشرطة أبدا.. تذكّري أنني أنا من خططت لكل شيء.. أنا من أخفيت الكبسولة في فخذ أخي بعد أن قمت بتخديره بمساعدة الممرض.. بالطبع لم يشعر المسكين بشيء ولم ينتبه إلى ما فعلته حتى بعد استيقاظه.. فهو مشلول كما تعلمين.. وأنا من وضعت تلك الورقة بين ملفاته والتي أوصلتك إلى هنا.. لماذا فعلت كل هذا دون علم شقيقي؟!!.. لأن المسكين كان يحبك رغم خيانتك له.. فحتى الأعمى كان سيلحظ أنك على علاقة بذلك الطبيب الحقير الذي قمنا باختطافه وتخديره في الأمس كي نتجنب أي محاولات بطولية منه للهرب.. بالمناسبة..

لقد استخدمت بصمات شقيقي أثناء نومه ودون أن يشعر بشيء لأصنع لنفسي توكيلا منه يسمح لي بالتصرف بكل أملاكه.. لأبيع بعدها كل ممتلكاته وأخفي الأموال عندي في البيت.. لم أنقل الأموال إلى حسابي الخاص أو حساب والدتي لأنني لم أكن أريد أي تحويلات بنكية قد ينتزعها منا القضاء ويمنحك إياها بسبب قضية الحجِر التي رفعتِها ضد شقيقي.

الأموال الآن كلها بحوزتي.. وأنت ستموتين وحيدة كالجرذ.. هل جربت شعور أن يدفن المرء حيا؟!.. هذه أبشع ميتة قد تتخيلينها.. وهذا ما تستحقينه بعد كل ما فعلتِه بالزوج الذي أحبك وكان مخلصا لك.. ولا تخشين الموت.. فلا بد أنه رائع.. لأن لا أحد من الذين ماتوا قد عاد إلى عالمنا!!!.

بعد ساعات قليلة من الآن سيأتي أحد معارفي ويردم قبر شقيقي مرة أخرى ليعيد كل شيء كما كان ويخفي كل أثر لك.. ثم سيقتل الطبيب ويرميه في القبر الثالث.. سنقتل ذلك الطبيب الحقير بسبب علاقته الغرامية معك والتي لم يراع فيها أنك فتاة متزوجة.. الوغد لم يعترف أنه ارتكب جريمة القتل.. لكني لن أحتاج اعترافه الآن.. فوجودك حاليا في القبر لهو دليل واضح على أن هناك اتفاقا ما قد تم بينكما لارتكاب الجريمة على أن تكوني خارج البيت حينها.. لم أكن واثقة أنك ستذهبين

إلى هذا المدى للبحث عن الثروة.. لذا كنت أردد لنفسي أنك لو ابتلعت الطعم الذي تركته لك بين ملفات شقيقي وقررت نبش القبر من أجل الحصول على الأموال فستستحقين أبشع ميتة.. وقد كنت محقة كما ترين.. أنت فتاة حقيرة وسيكون العالم أفضل بدونك.. وداعا أيتها الغبية.. أتمنى لك موتا بطيئا.. لقد تسببت بجروح عميقة للغاية في قلبي وقلب والدتي المسكينة.. لكن على الأقل الانتقام سيخفف من وطأة ما سببتِه لنا من ألم.. أنا لا أشعر بالأسف لما أفعله بك.. فقد نجحت بتحويلي إلى كائن متوحش أيتها الحقيرة.. تفو!!!)).

سقطت مني الورقة تلقائيا.. وراح قلبي يخفق بعنف أكثر وأكثر.. حاولت أن أعود عبر النفق القصير إلى الباب الحديدي.. لكنه كان مغلقا بإحكام.. يبدو أنه من تلك الأبواب التي لا تستطيع فتحها إلا من جهة واحدة.. الجهة التي دخلت منها!!!.. حاولت أن أضرب الباب بقدمي بكل قوتي.. لكنه لم يفتح أبدا.. أصرخ.. وأنادي.. وأنادي بصوت مبحوح!!!.. لكن من سيسمعك وأنتِ في القبر؟!!.. هل تعرف ما هو أسوأ أنواع الموت يا دكتور؟!.. إنه الدفن حيا دون شك.. لقد صدقت تلك اللعينة في كلامها.. ستشعر أن أنفاسك تنقبض وأنك تموت ببطء.. وتختنق.. وتختنق.. وأن المكان يضيق عليك حتى ليكاد أن يسحقك.

مهلا.. هاتفي النقال!!!.. لحسن الحظ أنه في جيبي.. أخرجته بسرعة ورحت أطلب الشرطة.. حياتي أهم من كل الأموال.. يا للكارثة.. الهاتف خارج نطاق التغطية.. الجدران عزلته تماما عن الخارج.. أحاول الاتصال رغم ذلك.. أحاول.. أحاول.. أكتب رسالة نصية إلى صديقاتي لكنها لا تصل أبدا!!!.. اللعينة.. لقد وضعت خطة محكمة لم أفكر بها في أسوأ كوابيسي.. فوقعت في الفخ كالفئران.. بل حتى الفئران لا تقع في الفخ بهذه السهولة.. مطاردتي للمال أنستني التفكير بعقلانية!!!.

أشعر أن عضلات جسدي احترقت وأن أسيد البطاريات يجري في شراييني في تلك اللحظة بدلا من الدماء!!!.. دخلت النفق مرة أخرى وقمت بضرب الباب الحديدي بقدمي بكل قوتي.. لكن بدا أنه مغلق بإحكام مخيف.. هذا القبر معزول تماما عن العالم الخارجي ولا يدخله الهواء على الإطلاق.. أقول هذا في قرارة نفسي وأنا أشعر بتناقص الهواء فعليا.. ضرباتي تخف حدتها شيئا فشيئا.. يقول كل من نجوا من موت محقق إنهم شعروا فجأة أن حياتهم بأكملها قد مرت في أذهانهم.. حسنا.. هذا لم يحدث معي.. لأنني كنت خائفة إلى درجة منعتني حتى من التفكير بشريط حياتي.. إنني أختنق دون شك.. إنني أموت.. هذا واضح.. إنني أموت فعليا!!!!!.

عزيزي القارئ.. بالطبع لم تخبرني (شهد) نفسها بتلك القصة.. فقد ماتت كما تشير إليه الأحداث.. من أخبرني بالقصة هي شقيقة زوجها!!!.. نعم.. لقد زارتني في المستشفى وقد مضى على تلك الحادثة أكثر من عام.. تقول إنها تعيش كوابيس يومية تقريبا بسبب انتقامها البشع رغم أنها تراه مستحقا.. تقول إنها تشعر بالخوف عندما تتذكر الوسيلة التي قتلت بها (شهد).. وأنها تشعر أيضاً باضطرابات نفسية حادة تزورني الآن من أجلها وترجوني مساعدتها لأعيد إلى حالتها النفسية الصفاء الذي فقدته منذ زمن.

بالطبع سأعالجها.. وبالطبع لن أخبر رجال الشرطة بما عرفته منها.. فليس من حق الطبيب النفسي إفشاء أسرار مرضاه كما تعلمون.. بل ولن يؤخذ في كلامي أصلا لو أبلغت الشرطة.. لأنني سأعتبر خائنا للأمانة حينها.. ولن يؤخذ بكلام رجل خان الأمانة.. إنها واحدة من عشرات المصاعب التي يواجهها الطبيب النفسي.. هل عرفتم العبء الهائل الذي أحمله على عاتقي؟!!.. هل عرفتم حجم الهم الذي أعيشه كل يوم وأنا أسمع وأطلّع على أسرار الناس السوداء؟!!.

قد يتساءل البعض.. لماذا انتقمت شقيقة الزوج بهذه الوسيلة العبقرية المعقدة بدلا من الانتقام المباشر والبسيط عن طريق القتل باستخدام مسدس مثلا.. لقد طرحت عليها هذا السؤال.. فأجابت أنها كانت لا تزال تحمل بعض الشك في سواد قلب (شهد) وأنها هي من ارتكب جريمة القتل.. لقد أرادت التأكد من شكوكها وأن (شهد) كانت مستعدة أن تذهب لأبعد مدى للبحث عن الثروة.. ووصولها إلى القبر هو دليل واضح على أنها القاتلة بالفعل.. فهي لم تكن أبدا لتنبش قبر زوجها ما لم تكن قد ارتكبت جريمة القتل فعليا.. هذا رأيها ويبدو أنها كانت محقة.. تقول إنها قتلت الطبيب قتلا سريعا مباشرا لأن جرم (شهد) أكبر بكثير -من وجهة نظرها- كونها خائنة لزوجها.. وقاتلة بنفس الوقت!!!.. أما الطبيب فهو مجرد رجل غريب وجد فرصة الثراء والجمال عند فتاة فأراد أن يستغلها.. لذا كان انتقامها منه مباشرا.

وقد يتساءل البعض أيضا.. لماذا لم تحاول شقيقة الزوج حمايته ومنع زوجته من قتله؟!.. كأن تنتقل للإقامة معه مثلا لتحميه منها.. لم أطرح عليها هذا السؤال.. لكن.. أعتقد أنها لم تقدم على تلك الخطوة لأنها تعلم أنه يستحيل تقريبا أن تراقب شقيقها 24 ساعة.. فمهما فعلت.. لا بد وأن يكون وحيدا في وقت ما لتستفرد به زوجته وتقتله!!!.. كما أنني

أعتقد أن شقيقة الزوج مصابة بـ(السادية)*.. فما فعلته كان غريباً مبالغاً به.. وبشعا للغاية ينم عن تلذذ شديد وواضح في القتل وإن كان انتقاما.. لا أعلم.. ربما سأتأكد من ذلك بعد عدة جلسات من العلاج النفسي.

لقد قامت (شهد) بقتل زوجها بمساعدة عشيقها الطبيب.. وقامت شقيقة الزوج بعدها بالثأر.. فقتلت (شهد) وقتلت الطبيب.. حيث يرقد الثلاثة الآن تحت رحمة الله في قبور متوالية لبعضها.. وكأنها العدالة الشعرية التي يتحدث عنها الناس في القصص!!!.. لم يتبق الآن سوى العلاج النفسي لشقيقة الزوج التي رفضت تماما أن أكتب لكم حتى اسمها الأول.. وهذا حقها بالطبع.

كما أود أن أتطرق إلى نقطة هامة.. لقد علمتم أنني لم ألتقِ بـ(شهد) أبدا لسماع القصة على لسانها.. لكني قمت

---

* مرض نفسي يميل المصاب به إلى تعذيب الآخرين بطرق مختلفة كالضرب المبرح أو العض أو الوخز بالإبر.. أو حتى بالشتم (كنوع من الأذى النفسي).. وكلمة (سادي) مشتقة من اسم (المركيز دي ساد) (marquis de sade) الذي عاش في القرن الثامن عشر.. وهو كاتب فرنسي وفيلسوف من الطبقة الارستقراطية في ذلك الوقت.. وقد أشتهر بمؤلفاته ذات المحتوى العنيف في الممارسات الجنسية، والتي أشهرها روايته المشهورة باسم (جوستين وجوليت).

بصياغة أدبية لما يمكن أن تكون قد شعرت به وكتبته لو أنها ظلت حية حتى يومنا هذا.. لم أشأ أن أنقل لكم القصة على لسان شقيقة الزوج.. كان هذا سيقتل جمالية الأحداث من وجهة نظري.. إذ أردت أن تشعروا بما شعرت به البطلة وما عانته.. وكيف تحولت من فتاة رقيقة إلى شيء آخر بسبب شهوة المال.. وكيف قادتها تلك الشهوة إلى حتفها أثناء رحلتها الشائكة للعثور على الثروة التي كلفتها حياتها.. ثروة زوجها.

أحدهم يزورنا ليلا!!

ترويها: حلا

كالعادة.. بدأت أحداث هذه القصة في وقت متأخر للغاية من نوبتي الليلية.. فالساعة كانت تقترب من الثالثة فجرا حين استمعت إلى تفاصيل القصة على لسان بطلتها.. وعموما.. كل فتاة تزورني في مثل تلك الأوقات تحمل في طياتها عادة قصة غريبة.. فلا يمكن أن تخرج مراهقة من بيتها وحيدة وفي وقت متأخر لتزور مستشفى الطب النفسي فقط لتشكو من الوسواس القهري.. أو الاكتئاب مثلا!!.. لذا تراني أتحفز كثيرا وتبدأ معدتي بالانقباض كلما تكررت تلك الزيارات المريبة!!!.

كانت الزائرة فتاة عادية الملامح.. انسدل شعرها بإهمال على كتفيها.. نحيلة إلى حد ما وترتدي نظارات دقيقة أعطتها سحرا لا بأس به.. وكانت ترتدي ثيابا أمريكية الطابع.. بل إن ثيابها كانت إلى حد ما مهملة وهذا ما زادها سحرا من وجهة نظري.

ألقت تحية خجولة وجلست على الكرسي المقابل لمكتبي.. فرحبت بها بدوري بابتسامة هادئة.. ثم.. تنحنحت وقالت بصوت رقيق يشوبه بعض القلق:

- هذا غريب.. كنت أتوقع مستشفى الطب النفسي شيئا مختلفا تماما عما أراه هنا.. حتى إنني ترددت كثيرا قبل زيارتي هذه.. ظنا مني أنني سأنتظر في طابور طويل قبل الدخول

لمقابلة الطبيب.. لكن.. المستشفى هادئ للغاية ويكاد أن يكون مهجورا.. بل لا أخفي عليك أنني شعرت بالخوف قليلا وأنا أمشي في ممراته للوصول إليك.

أجبتها بهدوء وملل بسبب توضيح تلك النقطة لكل شخص تقريبا يدخل مكتبي في مثل هذا الوقت:

- الحالات الطارئة في عالم الطب النفسي قليلة.. فلا يمكن أن تقارني الوضع هنا بمستشفيات الأمراض الباطنية مثلا.. على كل حال.. هل أستطيع مساعدتك؟!.

نظرت إلي نظرة فوقية مفاجئة وهي تقول:

- تبدو صغيرا في السن.. هل أنت حديث التخرج؟!.. المعذرة.. ربما أحتاج شخصا أكثر منك خبرة!!!.

اعتدت على هذا الكلام أيضا.. بل ولا أبالغ لو قلت إنني أسمعه كل يوم تقريبا.. إلا أنني قلت ما أقوله دوما وما رددته في قصص أخرى ربما:

- الخبرة ليست فقط بالسن.. بل بعدد الحالات التي مرت علي وعدد المرضى الذين أعالجهم.. كما أنني كنت متفوقا جدا في دراستي.. وأعتقد أن هذا يؤهلني تماما لسماعك ومحاولة فهم مشكلتك وإيجاد الحل لها.

نظرت إلي غير مقتنعة.. لكنها رغم كل شيء.. أخرجت من حقيبتها زجاجة ماء.. وراحت تجرعها برقة.. ثم قالت باحترام وكأنها تعتذر بطريقة لبقة عن اتهامها لي بنقص الخبرة:

- دكتور.. أكاد أقسم أن قصتي هي أغرب قصة ستسمعها في حياتك.. وأكاد أقسم أنك لن تصدق منها حرفا.. فهي غير قابلة للتصديق أصلا!!!.. لكن.. ما يجعلني واثقة من صحتها هو وجود تسجيل فيديو موثق سيؤكد لك كلامي.. لذا أرجوك لا تتعامل مع قصتي بالرفض فقط لأن عقلك لا يستوعب شيئا كهذا.. فأنا أعرف تلك المقولة الشهيرة: ((الناس أعداء ما يجهلون والرفض عندهم يسبق التصديق دوما))!!!.. لقد أصبحت ساعات نومي في الأيام الماضية قلقة متوترة.. لهذا جئت لزيارتك في مثل هذا الوقت بعد أن أقسمت أنني لن أنام لحظة واحدة قبل زيارة مستشفى الطب النفسي!!!.

فتاة تعرف ما تتحدث عنه بالفعل.. هكذا قلت لنفسي.. لكني على كل حال أومأت برأسي وأنا أقول:

- لن تكون هناك أي أحكام مسبقة.. كما أن لي صولات وجولات في عوالم النفس البشرية.. وعاصرت بنفسي أحداثا غريبة لا يمكن أن يصدقها أحد.. لذا تأكدي أنك تتحدثين مع الشخص المناسب!!.

قلت هذا الكلام وأنا أشعر أن هذه القصة ستكون جديرة لأرويها لكم.. إذ تبدو لي من مقدمتها أنها متعلقة بعلم نفس الخوارق (الباراسيكولوجي) الذي قدمت لكم عنه قصتين تقريبا في الجزء الأول من مذكراتي السابقة حتى بت لا أشعر بالاستغراب حين أبحر في عوالمه.. المهم أن الفتاة نظرت إلي بتفهم.. وكأن كلامي هذا أراحها بعض الشيء.. فتنحنحت وبدأت تروي قصتها:

- دكتور.. سأحدثك عن نفسي أولا حتى تعيش أجواء قصتي وتفهم كل ما يتعلق بحياتي.. اسمي (حلا).. أبلغ الثامنة عشرة من العمر.. وأنا في الواقع فتاة عادية جدا.. أعيش مع شقيقي ووالدتي في بيت صغير من دور واحد في منطقة (كيفان).. وفي حي داخلي حميم للغاية يشعرك بالاحتواء إن كنت تفهم ما أعنيه.. لذا لا يمكنك أن تتخيل لأي مدى أحب بيتنا!!!.. أحب الغرف الصغيرة والحديقة الداخلية التي تكفي بالكاد لكرسيين مع منضدة صغيرة متوسطة الحجم.. كما أحب غرفتي الصغيرة كثيرا.. بل إنني أستغرب من رجال الأعمال والأثرياء الذين يمتلكون غرف نوم باتساع ستاد (جابر) وتحوي شاشة تلفزيون عملاقة ومكتب و.. إلخ!!!.. فهذه ليست حياتي إطلاقا ولا أحبها.. إن فكرتي التي لا تتغير عن غرفة النوم هي أن تكون ضيقة نوعا ما.. لا أذكر أنني نمت في حياتي كما

أنام في بيتنا وفي غرفتي تحديدا.. حيث فراشي ملاصقا للحائط وعلى يمين الفراش منضدة صغيرة.. فأشعر أنني محشورة في مكاني ومعزولة عن العالم بأكمله حين أنام.. وهذا الشعور الجميل بالاحتواء يجعلني أغيب عن الوجود بمجرد أن أضع رأسي على الوسادة وأتدثر باللحاف.. كما ترى.. بيت صغير.. تسكنه عائلة صغيرة.. فشقيقي لم يتزوج بعد.. بل ولم يعد يقيم معنا بصورة كاملة.. إذ حصل بعد تخرجه على وظيفة في شركة (نفط الخليج) بمنطقة (الخفجي).. لذا فهو يقيم هناك ويزورنا في جميع عطل نهاية الأسبوع تقريبا ليبيت معنا.. أما أنا فأمارس حياة عادية لا تختلف عن حياة أي فتاة في مثل سني.. أقضي أوقاتي أيام الأسبوع بين الكلية والبيت مع والدتي من جهة وأحيانا مع صديقاتي من جهة أخرى.

سألتها وأنا أدون بعض النقاط الأساسية عنها كعادتي:

- هناك أسئلة كثيرة أحتاج معرفة إجابتها كي أقف تماما على وضعك النفسي.. ماذا عن والدك؟!.. وما هو الفارق العمري بينك وبين شقيقك؟!.. ماذا عن دراستك؟!.. أين تدرسين؟!.. ثم.. هل كانت هناك أي قلاقل من أي نوع في طفولتك؟!.

ردت بأدب شديد وهي تبتسم:

- أسئلة كثيرة يا دكتور بالفعل.. لكن على كل حال.. والدي رحمه الله توفي منذ حوالي 4 سنوات.. أما شقيقي فهو في السادسة والعشرين من العمر.. وهو لم يتزوج حتى الآن كما قلت لك.. ثم إنني أدرس في كلية التجارة.. آه سألتني إن كانت هناك أي قلاقل في حياتي!!.. في الواقع لا توجد.. إن حياتي هادئة جدا.. لكن ما حدث مؤخرا نسف هذا الهدوء تماما وقلب كل شيء رأسا على عقب.. وأنا أتمنى أن تدعني أكمل دون مقاطعة.. لأن أسئلتك عن حياتي الخاصة ربما لن تقدم لك أي إضافة.. فمشكلتي غير عادية يا دكتور.. وربما لا يحتاج حلها إلى أسئلة الطب النفسي التقليدية التي تطرحها علي.. استمع إلي أرجوك دون مقاطعة!!!.

أومأت برأسي متفهما.. لتكمل (حلا) وهي تتنهد:

- حسنا.. كنت أقول إنني أعيش حاليا مع والدتي وقد اعتدنا أن ننتظر أخي ليزورنا في عطل نهاية الأسبوع عائدا من عمله.. وكنت أقول أيضا إن حياتي بسيطة هادئة.. فتجدني أخرج مع صديقاتي بين الحين والآخر.. وأجلس أحيانا أخرى مع والدتي في البيت.. إنني أحب حياتي يا دكتور كما هو واضح.. لا يوجد ما ينغصها على الإطلاق.. فلا زوج ولا مسؤوليات ولا مصاريف زائدة من أي نوع.. كما أن علاقتنا بأقاربنا سطحية

إلى حد ما.. لكن هناك تواصل بيننا على كل حال.

ثم زفرت بقوة وكأنها ستدخل في صلب الموضوع.. وبالفعل:

- المشكلة بدأت منذ أكثر من أسبوع.. عندما ذهبت إلى الفراش مبكراً بسبب محاضرتي التي ستبدأ في وقت مبكر من اليوم التالي.. كان نوما هادئا هنيئا لا أذكر من تفاصيله أي شيء.. فلن أقول لك إنني حلمت بكذا وكذا.. لكن.. شيئا غريبا أقلق راحتي مع والدتي.. فقد استيقظت في وقت متأخر للغاية.. إذ كانت الساعة تقارب الثانية فجرا!!!.. استيقظت بسبب جرس الباب!!!.. نعم.. أحدهم يقرع جرس باب البيت بإصرار.. هل تعرف تلك الطريقة المزعجة التي تضع فيها أصبعك على جرس الباب دون توقف!!!.. وكأن من يفعل ذلك لا يملك ثانية واحدة ليضيعها ويريد إيقاظنا من النوم بسرعة لأمر عاجل كما يبدو!!!.. بالطبع أصابني هذا بقلق هائل.. فنهضت من فراشي بسرعة البرق وهرعت خارجة من غرفتي لأجد والدتي أيضا خارج غرفتها موجودة في صالة البيت!!!.. رحنا ننظر إلى بعضنا بقلق ونحن نتساءل عن هوية الزائر في مثل هذا الوقت.. الزائر الوحيد المتوقع هو شقيقي.. وهو لن يزورنا في تلك الساعة إلا لو كانت هناك مصيبة لا قدر

الله!!!.. لكن.. شقيقي يملك مفتاح البيت بطبيعة الحال.. كما أن اليوم كان الإثنين.. وهو لم يزرنا أبدا خلال أيام الأسبوع.. سألت والدتي إن كان يجب إيقاظ الخادمة لتفتح الباب.. لكن والدتي تعامل خادمتنا كأحد أفراد الأسرة.. لذا رفضت تماما أن نوقظها طالما هي لم تستيقظ من تلقاء نفسها.. حتى أنني غمغمت غاضبة وقلت شيئا عن خادمتنا التي سمعت الجرس لكنها ربما تخشى الخروج من غرفتها.. المهم أن الأمر انتهى بذهابي بنفسي إلى ساحة البيت الداخلية متجهة إلى الباب.. حيث مررت بحديقتنا الصغيرة وأنا أنظر حولي بقلق.. ثم تنحنحت وسألت بصوت مبحوح عن هوية الطارق.. لكن.. لا أحد!!!.. فتحت الباب بتردد شديد.. وراح رأسي يطل خارج البيت.. أنظر يمينا ويسارا دون أن أجد سوى بعض القطط الضالة التي تسير هنا وهناك دون مبالاة في مثل هذا الوقت المتأخر.. ما هذا العبث؟!!.. هكذا قلت لنفسي وأنا أعود إلى الداخل وأشتم وألعن ظنا مني أنهم مجموعة من المراهقين الذين لا هم لهم سوى إزعاج الناس.. ومتسائلة بنفس الوقت عن ذلك الأحمق الذي عليه الذهاب للمدرسة غدا وما زال مستيقظا حتى الآن!!!.

سكتت قليلا وأنا أنظر إليها بترقب شديد وقد نسيت تماما القلم الذي أمسك به وملاحظاتي التي من المفترض أن

أدونها.. ثم.. راحت تجرع الماء من زجاجتها مرة أخرى إلى أن فرغت تماما و:

- تحول قلقنا هذا إلى سخط من ذلك التصرف الطفولي السخيف.. أنا أسكن ذلك البيت منذ طفولتي يا دكتور وأؤكد لك أنني لم أتعرض لموقف كهذا من قبل!!!.

قلت ببساطة:

- بالطبع تكرر الموقف في الأيام التالية.. أليس كذلك؟!.. القصة دائما هكذا!!.

نظرت إلي بإعجاب شديد وكأنني قلت كلاما يدل على عبقرية فذة.. فأكملت بذات الإعجاب:

- بالفعل يا دكتور!!!.. كانت هذه هي المرة الأولى فحسب.. ففي اليوم التالي تكرر الأمر.. بل وتكرر في اليوم الثالث أيضا!!!.. ولكن في ساعات مختلفة تتراوح بين الواحدة والثالثة فجرا.. وكنا في كل مرة نستيقظ بفزع وقلق شديدين.. ثم لا نلبث أن نعود إلى النوم غاضبتين بعد أن نكتشف أن هناك عابثا يمارس مزحة ثقيلة للغاية!!!.. حتى إنني سألت الخادمة أثناء الغداء عن سبب عدم استيقاظها عند سماعها صوت جرس الباب لثلاث أيام متتالية.. فأقسمت لي أنها كانت

نائمة ولم تسمع شيئا!!!.. إنها تكذب بالطبع.. فهي مجرد عاملة في البيت تقوم بدورها بالتنظيف ومساعدة والدتي في الطبخ.. ولن تستيقظ في ذلك الوقت المتأخر من الليل لتفتح الباب وتقحم نفسها في أمور أخرى هي في غنى عنها.. وعموما فإن استيقاظها من عدمه لن يفيد بأي شكل من الأشكال.. لذا لم أدقق كثيرا في هذه النقطة.. المهم أنني اتصلت بشقيقي صباح يوم الخميس.. وأخبرته بكل ما حدث.. فأبدى استغرابه الشديد.. وأخبرني أنه سيكون عندنا في المساء كالعادة حال انتهائه من العمل ليقضي عندنا عطلة نهاية الأسبوع.. وسينام في صالة البيت قريبا من الباب عله يجد الوقت ليخرج مسرعا ويكشف من يمارس ذلك الفعل السخيف قبل هربه.. وعندها سيلقن الفاعل درسا مخيفا قبل أن يجره من قفاه إلى مخفر الشرطة.. وبالفعل.. وصل أخي إلى البيت في الساعة السادسة مساء تقريبا من نفس اليوم.. و.. بعد أن قمت مع والدتي بالترحيب به.. أخبرناه مرة أخرى بما حدث وبكل التفاصيل هذه المرة.. وأن نومنا أصبح قلقا متوترا مؤخرا بسبب ذلك الوغد العابث الذي ظل يثير خوفنا 3 أيام متواصلة!!!.

سألتها وأنا أنظر إلى السقف بطريقة تمثيلية أستخدمها كثيرا وأشعر أنها تعطيني صفة العبقرية:

- هل كنتم تتوقعون بالفعل أن هناك عابثا ما يحاول مضايقتكم؟!.. أشعر أن الأمر أكبر من ذلك!!!.

لم ترد على سؤالي.. بل تجاهلتني بطريقة أثارت استفزازي.. لكني نسيت الأمر بسرعة حين أكملت بشيء من الحنق:

- راح شقيقي يشتم ويلعن خاصة وأنه يشعر بشيء من العجز كون كل ما حدث كان بغيابه وهو رجل البيت الوحيد.. لذا فقد أقسم أن يقطّع ذلك العابث إربا حين يراه.. إن شقيقي يا دكتور طويل القامة عريض الجسد وإن كان طيب القلب.. ومثل هؤلاء لا يخشون عادة أن يخوضوا شجارا مع شخص آخر.. المهم أننا قضينا الوقت معا في البيت بعد أن أعدت والدتي مع الخادمة عشاء خاصا احتفاء بزيارة شقيقي الأسبوعية لنا.. وهو أمر تصر عليه والدتي دوما كون شقيقي يعيش على أكل المطاعم يوميا سوى في عطل نهاية الأسبوع التي ينعم فيها بأكل البيت.

سكتت قليلا.. ثم أكملت وهي تعقد حاجبيها كناية عن التركيز:

- التهمنا عشاءنا في تلك اللية.. وجلسنا جميعا -أمي وشقيقي وأنا- نتحدث حول عدة أمور.. ونشاهد التلفزيون.. قبل أن نلحظ أن الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء..

فتوجهت إلى غرفتي شاعرة بنعاس عميق.. ولا أنكر أيضا ذلك الشعور الجميل بلذة وجود رجل في البيت يتحمل المسؤولية عني وسيعرف كيف يتعامل مع ذلك الوغد الذي يضايقنا.. خاصة وأنه سيبيت في الصالة كما أكد لي.. بل وسيحاول السهر إلى الساعة الرابعة فجرا -رغم أنه متعب للغاية- آملا أن يأتي ذلك العابث لمضايقتنا مرة أخرى في هذه الليلة أيضا حتى يقبض عليه!!!.. مرت بعدها الساعات التالية هادئة جدا كوني نائمة مطمئنة في غرفتي بعيدة تماما عن عالمنا.. و.. نعم.. تماما كما تتوقع يا دكتور.. لا أذكر كم كان الوقت.. لكن أذكر صوت جرس الباب المزعج.. وذلك اللعين الذي يضرب زر الجرس ضغطة طويلة دون توقف وكأنه مصر على إيقاظنا من النوم!!!.. فصحوت بالفعل وقد أصبح الأمر معتادا كما تعلم.. ثم خرجت من غرفتي إلى صالة البيت.. لتخرج بعدها بلحظات والدتي أيضا من غرفتها.. وكأنه فيلم نعيد تشغيله كل ليلة على هذه اللقطة.. الفارق هذه المرة أن شقيقي موجود معنا.. لكن.. أين شقيقي أصلا؟!!!.. لم يكن موجودا في الصالة.. بحثنا عنه ولم نجده حولنا.. فأشعرنا هذا بقلق بالغ.. ثم.. اتصلت بهاتفه النقال.. أسمع صوت رنة هاتفه المميزة.. التفت لأجد الهاتف مرميا بإهمال على الأرض!!!.. ترى.. هل خرج مسرعا واشتبك مع ذلك العابث؟!!.. ربما.. آمل أن

يكون بخير.. جلسنا نتساءل أنا وأمي بقلق عما يحدث حولنا قبل أن نجد شقيقي عائدا من الخارج وهو يقول بعصبية واضحة: ((هذا اللعين.. لم أجد الوقت لأقبض عليه.. لقد ضرب الجرس لثوان قليلة.. وقد استغرق خروجي من الصالة إلى الباب لحظات قليلة أيضا.. لكني لم أعثر على أحد.. فخرجت من البيت ورحت أبحث بين السيارات عله يكون مختبئا هنا أو هناك.. ذلك الوغد يعرف جيدا كيف يهرب بسرعة!!!.. سنتصرف بطريقة أكثر فاعلية غدا.. سأبلغ الشرطة)).. قال هذا وهو يلهث بسبب المجهود الذي مارسه.. ثم طلب منا أن نعود إلى الفراش.

سألتها باستغراب لقصتها هذه:

- وهل أبلغ الشرطة فعليا؟!!.

أومأت برأسها إيجابا وهي تقول:

- فعل ذلك حال استيقاظه من النوم.. ووعده رجال الشرطة بإرسال دورية بشكل مستمر بين الواحدة والثالثة فجرا.. وعمل ما يشبه الكبسة على الحي بأكمله في أوقات متفرقة.. فربما يقع ذلك العابث في قبضتهم.. لكن.. المشكلة أن الأمر تكرر في اليوم الخامس على التوالي.. والثاني على التوالي بعد وصول شقيقي من (الخفجي).. هذه المرة كان شقيقي

نائما في غرفته.. فخرج كالمسعور وهو يشتم رجال الشرطة الذين لا يستطيعون القبض على عابث واحد يروع الآمنين!!!.. لذا ارتدى ثيابه على عجالة وذهب إلى المخفر ليبلغهم بما حدث وأن مراقبتهم للبيت قد فشلت.. لكنه عاد في ساعات الفجر الأولى قبل شروق الشمس بقليل ساخطا غاضبا أيضا.. فقد أخبره رجال الشرطة أنهم قاموا بالفعل بإرسال دورية ظلت تدور حول المنطقة لكن.. يبدو أن ذلك الوغد المجهول قد تمكن من قرع الجرس وهرب مسرعا.. إنها لحظات قليلة من الممكن جدا أن تفوت على رجال الشرطة كما تعلم.. وأنا في الواقع لا ألومهم على ذلك إطلاقا!!!.. فلا يمكن أن يراقب أحد بيتنا لحظة بلحظة طوال فترة الليل.

سألتها بقلق:

- كان لا بد أن يعود شقيقك إلى (الخفجي) مساء يوم السبت.. أليس كذلك؟!!.. وهذا يعني أن تكوني أنت بقلب المدفع مرة أخرى!!!.

هزت رأسها موافقة بأسف وهي تقول:

- تماما.. فيوم السبت قد حان.. وشقيقي كان مضطرا للعودة إلى عمله رغم كل القلق الذي يعتريه.. فقام بإجراء أخير إلى جانب إبلاغ الشرطة.. إذ أخبر بعض جيراننا بالأمر..

وطلب منهم أن يطلّوا من نوافذ غرفهم بين الحين والآخر إن كانوا مستيقظين بعد منتصف الليل.. علّ أحدهم يلمح ذلك العابث اللعين.. لم يكن هذا حلا جذريا كما ترى.. فمن الذي سينظر من نافذته ويراقب أي تصرفات مريبة خارج بيته في مثل ذلك الوقت؟!!.

قلت باهتمام:

- كلام سليم.. دعك من ذلك السؤال الهام الذي لا بد وأنه قد راودكم.. فمن الذي سيملك الوقت ليضايقكم يوميا في ساعات النوم ويضرب الجرس بهذا الإصرار المريب أصلا؟!!.. وما هو هدفه؟!.. لن أطرح السؤال السخيف الذي يطرحه رجال الشرطة دوما إن كان لكم أعداء أم لا.. فالعدو لن يتصرف بتلك الطريقة الطفولية السخـ....

خرست فجأة.. وأشرت لها بيدي ألا تتكلم.. لا أعلم لماذا راودتني تلك الفكرة الغريبة.. هل هي نتاج خبراتي السابقة التي جعلتني متفتح الذهن أقبل مناقشة كل الأفكار مهما بدت غريبة؟!!.. لا أعلم.. رحت أحاول ترتيب أفكاري بعينين مغمضتين.. في حين شعرت بها تنظر إلي باستغراب.. قبل أن أقطع حبل الصمت وأقول بلهفة:

- مهلا.. مهلا.. أخبرني أولا.. منذ متى تسكنون ذلك

البيت؟!.. هل سكنه أحد قبلكم؟!!.. هل أخبرك أصحابه السابقين عن أي شيء غير عادي يجري فيه؟!.

بهتت تماما وكأنها لم تتوقع هذا السؤال أبدا.. ثم وضعت يدها على رأسها وراحت تنظر إلى أبعاد أخرى وكأنها تريد أن تتذكر أمراً محدداً.. فالتزمت الصمت تماما بدوري.. إلى أن قالت فجأة بانفعال شديد وهي تشير إلي بإصبعها:

- يااااااه.. دكتور.. إنك عبقري حقا.. لقد نسيت تلك النقطة تماما.. فقد اشترى والدي البيت في فترة طفولتنا.. كنت حينها في الثامنة من العمر.. وقد.. وقد.. وقد.... ياااااااه.. يا إلهي.. يا إلهي.. لقد أنعشت ذاكرتي إلى درجة لا يمكنك تخيلها بسؤالك هذا يا دكتور.. بالفعل!!!!.. لقد سمعـــت والـــدي -رحمه الله- يتحدث عبر الهاتف مع أحد أقاربنا منذ سنوات طويلة.. ويخبره أنه اشترى بيتنا هذا من أصحابه الذين قرروا بيعه بسبب وجود شبح يظهر لهم بين الحين والآخر وأصابهم بذعر هائل.. إلا أن والدي لم يصدق تلك الأكاذيب على حد قوله.. وقام بشراء البيت محاولاً إخفاء الأمر برمته عنا كي لا يصيبنا بالذعر.. لقد سمعت مكالمته تلك بالصدفة.. إلا أنني -ولصغر سني- آنذاك لم أعر الأمر اهتماما كبيرا.. خاصة وأنني كنت تحت حماية والدي رحمه الله.. وكنت أعرف أنني بأمان معه!!!.

ثم مطت شفتيها وهي تغير دفة الموضوع:

- أصدقك القول أنني كنت أشعر بشيء من الأمان أيضا لوجود شقيقي معنا في عطلة نهاية الأسبوع.. لكن الآن ستكون مشكلتي وحدي.. أنا من سأستيقظ كل ليلة.. وأنا من سأتحمل مسؤولية والدتي.. أما خادمتنا فهي قصيرة ضئيلة الجسد تخاف من ظلها.. ووجودها لن يفيد في تلك الأمور.. ولا يمكن أيضا أن أعتمد على والدتي العجوز.. لا يوجد من يواجه المشكلة سواي.. إلا إذا استطاع رجال الشرطة أن يفعلوا شيئا.. وإن كنت أشك في ذلك!!.. المهم أن شقيقي رحل مساء السبت كعادته.. وتكرر الأمر مساء الأحد كالعادة أيضا!!!.. فاتصلت بشقيقي صباح اليوم التالي وأخبرته بذلك.. ووعدني أنه سيقدم على إجازة من عمله تحتاج إلى بضعة أيام لاستكمال إجراءاتها.. ثم سيأتي ليقيم عندنا أسبوعا كاملا عله يستطيع فعل شيء.. هذه كل الإجراءات التي نستطيع تطبيقها على أرض الواقع.. لكني كنت أعرف في قرارة نفسي أن شقيقي لن يقبض أبدا على ذلك العابث حتى لو بات عندنا شهرا كاملا!!!.. هناك أمر غير مفهوم.. أمر يستحق مراقبة من نوع آخر.. هذا ما رحت أردده لنفسي وأنا أفكر بعمق وأتذكر كلام رجال الشرطة عن استحالة مراقبة البيت 24 ساعة.. عندها فقط.. طرأت بذهني فكرة بسيطة للغاية.. لكنها فعالة دون

شك.. ترى.. ماذا سيحدث لو راقبت أنا بنفسي باب البيت 24 ساعة؟!!!.. من المؤكد حينها أنني سأكشف الفاعل.. أليس كذلك؟!!!.

قلت ببساطة:

- تتحدثين بالطبع عن كاميرات المراقبة!!.

ابتسمت بحرج وهي تقول:

- تماماً.. هي فكرة بسيطة كما ترى.. حتى إنني استغربت أنها لم تطرأ بذهن أحد منا.. ربما هو التوتر والقلق الذي شغلنا عن التفكير بطريقة عملية.. إذ تساءلت فجأة.. لماذا لا أضع كاميرا على سور البيت.. أنت تعرف تلك الكاميرات الصغيرة التي يتم من خلالها مراقبة الخدم للتأكد أنهم لا يسيئون التصرف أثناء غياب أصحاب البيت!!!.. ستكون فكرة فعالة دون شك.. لذا فقد وضعتها قيد التنفيذ مباشرة.. إذ اشتريت تلك الكاميرا مساء أمس.. وأوصلتها إلى الكهرباء بمساعدة الخادمة وبعد شراء موصل طويل يكفي لتمديد سلكه من سور البيت إلى فيشة الكهرباء في الصالة.. فعلت كل هذا وسط نظرات الاستغراب من والدتي التي لم تفهم شيئا بسبب ثقافتها المحدودة.. ثم قمت بعدها بتوجيه الكاميرا إلى مكان الجرس.. هذا رائع.. ستبدأ بتصوير كل شيء حال

ضغطي على زر التسجيل.. وسأعرف هوية ذلك الوغد الذي أحال حياتنا جحيما.. آمل أن أفهم ما يحدث حولي أخيرا بعد هذه الخطوة!!!.

قلت بشيء من القلق:

- لا تخبريني أن الكاميرا بدورها لم تكشف لكم الفاعل!!!.

ردت بهدوء:

- دكتور.. هل لك أن تعطيني الفرصة لأشرح لك القصة بأكملها دون تعليقات لو سمحت؟!.

خرست تماما ولم أعرف كيف أرد!!!.. أكره كثيرا حين أتحول من طبيب يفترض أن يحل مشاكل مرضاه.. إلى رجل منبهر تماما بما يسمعه ويحوله هذا الانبهار إلى طفل يقاطع المتحدث وينسى دوره الحقيقي وهو الاستماع!!!.. لا أستطيع أن أرد على (حلا) بوقاحة لأنها كانت مهذبة عندما أخرستني.. ولا أستطيع السكوت لأنها أشعرتني بالإهانة!!!.. لكن.. تذكرت أنني أنا المتلّقي هنا ويجب علي الاستماع لقصتها.. فوجدت أن أفضل الحلول هو أن أتناسى كرامتي حاليا وأدعها تكمل.. قبل أن تكمل بالفعل:

- كنت أقول إنني بعد أن قمت بتركيب الكاميرا.. توجهت

إلى الفراش وأنا أفكر بعمق شديد شاعرة أنني أعيش في عالم آخر تماما أنساني دراستي وصديقاتي بسبب تلك المغامرة الغريبة.. و.. من شدة الإرهاق والتعب.. وبسبب النوم القلق في الأيام الماضية.. نمت أخيرا عالمة أنني سأستيقظ على صوت الجرس مرة أخرى كما بات يحدث مؤخرا.. و.. عندما تكرر الأمر وسمعت صوت جرس الباب كما كنت أتوقع.. نهضت مسرعة من فراشي وقد تخلصت بسرعة من كل أثر للنوم لشدة لهفتي.. وركضت ناحية الباب وأنا أسأل بحدة عن هوية الطارق.. لكن.. لا أحد يرد كالعادة.. فتحت الباب بسرعة.. لا أرى أحدا كالعادة أيضا!!!.. آن لهذا الهراء أن ينتهي!!.. هكذا قلت لنفسي وأنا أستعين بكرسي الحديقة للصعود إلى حافة السور والوصول إلى الكاميرا.. ثم انتزعتها وعدت بعدها مسرعة إلى الداخل والفضول يقتلني قتلا!!!.. لم أكترث لنظرات والدتي التي استيقظت بدورها وراحت تنظر إلي في صالة البيت منتظرة مني توضيحا لما أفعله.. لكنني اعتذرت منها بكلمات مقتضبة أخبرها فيها أنني سأشرح لها الأمر لاحقا وأن عليها أن تنام مطمئنة الآن.. ثم دخلت غرفتي وقلبي يخفق بقوة.. وقمت بتشغيل جهاز (الآيباد) الخاص بي بعد أن أوصلته إلى الكاميرا.. لأشاهد التسجيل أخيرا والعرق يتصبب مني لا شعوريا.. لقطة ساكنة كئيبة وكأنها مستقطعة من

فيلم رعب شهير تم تصويره بكاميرا منزلية*.. ظللت أشاهد التسجيل بصبر وأحاول التفويت إلى أن أصل للحظة وجود ذلك العابث اللعين.. لكن في كل مرة أوقف الصورة وأظن أن شيئا سيحدث.. أفاجأ بأن الأمر لا يتعدى بعض القطط الضالة التي تمر من أمام الباب.. إلا أنني انتفضت بقوة فجأة!!!.. دكتور.. لأول مرة في حياتي أشعر بتلك القشعريرة التي تزحف على عمودي الفقري وتصيب جسدي بأكمله بالرجفة!!!.. كان ما أراه أمرا يفوق الوصف.. يفوق الرعب نفسه.. بل يفوق كل شيء تخيلته في حياتي!!!.. حتى أنني ظننت أن الأمر لا يتعدى مزحة سخيفة من أحدهم.

توقفت أنفاسي وأنا أستمع إلى (حلا) بكل حواسي!!!.. وقد أشعرتني أنني داخل عالمها بعيد تماما عن عالم الواقع الذي أعيشه.. ثم:

- دكتور.. لقد رأيت.. لقد رأيت أحدهم يمشي بطريقة مترنحة غريبة للغاية.. بطريقة ليست بشرية على الإطلاق!!!.. هل كان يمشي كالسكران؟!!.. لا.. بل هي مشية إنسان مسلوب الإرادة وكأن هناك من يوجهه بـ(الريموت كنترول)..

---

* تتحدث هنا عن سلسلة أفلام (Paranormal Activities) الشهيرة.

والرأس يهتز يمينا ويسارا بشكل غريب.. دققت النظر في الصورة.. إنها فتاة.. هذا واضح.. وقد غطى شعرها ملامحها تماما.. وكأنها من فيلم الموتى الأحياء.. لا أتبين وجهها لكني أرى محيطه الخارجي بوضوح وهذا يخيفني أكثر بكثير من لو كنت أراه.. لأن الخيال مخيف أكثر من الواقع بمراحل.. في البداية ظننتها بالفعل مزحة.. لكن.. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.. خاصة حين تمكنت من تمييز ملامح الفتاة بعد النظر والتدقيق.. نعم يا دكتور.. الفتاة هي باختصار شديد.. أنا!!!!.

سرت في عمودي الفقري كهرباء الخوف!!!!.. ورحت أنظر إليها وقد فتحت فكي لا شعوريا.. قبل أن تكمل بصوت مرتجف:

- أعترف أنني شعرت للحظة أنه في هذا الزمن لم تعد الأحلام وحدها التي تتحقق.. بل الكوابيس أصبحت تتحقق كذلك يا دكتور!!!.. فما كنت أراه لهو كابوس حقيقي.. لقد كان القادم هو أنا بثياب النوم التي أرتديها!!!.. كيف خرجت من البيت أثناء نومي؟!!.. لا أعلم.. يستحيل أن أكون قد فعلتها وأنا نائمة!!!.. أنت تعرف أنني كنت أسمع صوت الجرس المزعج يوميا.. وأخرج من غرفتي سريعا لأجد والدتي أيضا في صالة البيت متخوفة من ذلك الزائر.. بل إن الحادثة قد جرت أمام شقيقي مرتين كما شرحت لك.. فكيف تمكنت أنا من الخروج

بهذه السرعة دون وعي لضرب الجرس ومن ثم العودة إلى فراشي والاستيقاظ ثم الذهاب إلى صالة البيت والسؤال عن هوية الزائر؟!!.. هذا أمر سخيف ومستحيل الحدوث.. المشكلة أن ما رأيته لم يكن أغرب ما بالأمر.. فقبل أن أستوعب المفاجأة.. وجدت نفسي أختفي فجأة من الصورة!!!.. نعم يا دكتور.. شاهدت نفسي في التسجيل أضرب الجرس بحركة آلية جامدة مخيفة.. ثم رأيت نفسي أختفي وأتلاشى تماما بعدها بلحظات قليلة.. وكأنني شبح!!!!.. هل تفهم ما أقوله لك؟!!.. ستسأل كيف حدث كل هذا؟!!.. لا أعلم.. لا أعلم.. لا أعلم.. هذه هي مشكلتي والتي ستحيل حياتي جحيما!!!.. أدرك جيدا أن ما قلته لك يبدو مستحيلا للوهلة الأولى.. لكنه حدث.. فكيف تفسره بالله عليك؟!!.. كيف؟!!!.. أرجوك ساعدني.

كنت أستمع إليها وقد شعرت للحظة أن الإضاءة الخافتة في غرفتي مخيفة.. أنا الذي كنت أحب تلك الإضاءة كثيرا.. ثم أكملت دون أن تنتظر ردة فعلي:

- أنا لم أخبر والدتي وشقيقي حتى الآن بالأمر لأن ما رأيته يفوق الخيال.. ومخيف للغاية.. ولا أريد أن أسبب لهما الرعب.. دعك من أنني لا أريد أن يتهمني أحد بالجنون رغم أن لدي ما يثبت كلامي.. ومن الممكن أن آتي لك بالتسجيل لو أردت لتتأكد بنفسك!!!!.. لقد خرجت من البيت قبل

قليل دون علم والدتي لأنني لم أتمكن من الانتظار أكثر.. فما إن واتتني فكرة زيارة طبيب نفسي منذ ساعتين تقريبا حتى وضعتها قيد التنفيذ.

نظرت إليها مستغربا بعينين منبهرتين مرهقتين دون رد.. ثم.. تذكرت لا شعوريا بعض التجارب التي سردتها لكم في مذكراتي سابقا وأنا أتساءل بقلق.. ترى.. إلى أي مدى سأصل؟!.. إلى أي مدى سأكشف أسرار النفس البشرية وأسرار هذا العالم؟!!.. لا أعلم.. إن ما أسمعه يفوق كل المقاييس المادية دون شك.

نظرت بعدها إلى السقف بشرود ولدقائق طويلة محاولا أن أبتلع الصدمة وأفكر بشكل منطقي لما هو غير منطقي أصلا.. حتى كدت أن أنسى وجود (حلا) في غرفتي.. لأقول وعلامات التفكير واضحة على ملامحي:

- إن قصتك شبيهة بعوالم (لافكرافت)* وأفكاره العجيبة..

---

* (لافكرافت) (1890 - 1937) (Lovecraft) هو أديب أمريكي شهير جدا تميز بقصص الرعب القصيرة المتعلقة بالقلاع والقصور والبيوت المهجورة.. وقد عرف عنه أنه كان يراسل أصدقاءه بكثافة حتى أن خطاباته تعتبر في حد ذاتها إنتاجا أدبيا.. وقد كانت معظم كتاباته وقصصه منشورة في مجلات متناثرة.. لذا توقع الكثيرون أن تندثر مع مرور الأيام.. لكن أحد تلامذته أنشأ دار نشر كانت أحد مهامها الرئيسية جمع أعمال ذلك الكاتب العظيم وإصدارها في طبعات أنيقة فاخرة ستجدها متوفرة في كبرى المكتبات ومواقع الانترنت.

إذ ذكر ذات مرة أن عالم الأحلام ربما يكون واقعي هو الآخر ولكن تجري أحداثه في بعد آخر وبتردد نعجز عن الوصول إليه أثناء يقظتنا!!!.. بل كان (لافكرافت) يتساءل إن كان عالم الأحلام هو العالم الواقعي بينما عالمنا هذا عالم وهمي من صنع أدمغتنا ومخيلتنا.. سؤال فلسفي قد يراه البعض سخيفا.. لكن هناك من علماء النفس من يرونه ممكنا للغاية وأننا قد نخضع بالفعل للعبة ما نجهل تفاصيلها.. لعبة تخدعنا فيها أدمغتنا نفسها!!!.. وربما ليس كل ما يظن الإنسان أنه يعرفه كحقيقة مسلم بها هو كذلك في الواقع.. هناك أبحاث كثيرة حول هذا الأمر.

سألتني باستغراب:

- وما علاقة هذا بكلامي؟!!.

تنحنحت وقلت:

- إنني أحاول أن أربط النقاط ببعضها.. فما أسمعه منك ليس أمرا مألوفا في علم النفس.. ولن تجدي لدي حلا جاهزا لمشكلتك.. ثم إنني كنت أردد كلام (لافكرافت) لأن قصتك تبدو لي وكأنها تأتي من عوالمه.. أحتاج إلى الاطلاع والبحث علني أفهم ما يجرى لك.. أمهليني بعض الوقت واتركي لي رقم هاتفك.. أعدك بالرد حالما أكتشف شيئا!!!.

نظرت إلي (حلا) بخيبة أمل شديدة وكأنني خذلتها!!!.. بالطبع.. هل تتوقعين أن أستمع لقصة غريبة خارقة عن الطبيعة كهذه وتجدين عندي وصفة العلاج لها بكل بساطة؟!!.. لا يوجد طبيب نفسي يملك جوابا لهذه القصة!!.. أحتاج إلى بعض البحث دون شك.. ثم.. كتبت رقم هاتفها النقال على ورقة تركتها على مكتبي.. وألقت علي تحية باردة بملامح لا تخلو من اليأس.. قبل أن تخرج أخيرا.. لا ألومها على ردة فعلها.. فلا شك أنني كنت أمثل لها الأمل الأخير.. لكن.. لا يحق لها أن تلومني أيضا!!!.

ماذا حدث بعد ذلك؟!!.. حدث ما أفعله دائما.. البحث دون كلل أو ملل لكشف اللغز الغريب المحيط بهذه القصة المذهلة.. ليس من المعيب أن نجهل معلومة ما.. المعيب هو ألا نبحث.. لذا فقد غرقت تماما في عالم الانترنت لمدة يوم كامل جلست فيه أمام شاشة الكمبيوتر لأكثر من 9 ساعات متواصلة أرهقت عمودي الفقري كثيرا.. فهذه هي طبيعتي.. أعشق علم النفس حتى النخاع ولا أتوقف عن البحث أبدا لو وجدت فيه ثغرات أو أموراً لم أفهمها.. المهم أن العثور على إجابة مؤكدة على قصة كهذه قد يكون مستحيلا.. لكني رغم كل شيء.. وجدت أن ما توصلت إليه هو أقرب الإجابات.. والأمر يستحق التجربة.. ربما أكون محقا في استنتاجي.

بعد يومين فقط.. اتصلت بـ (حلا).. وطلبت منها أن تزورني في مكتبي.. لأنني -ربما- أكون قد توصلت إلى الحل!!!.. فهرعت المسكينة لرؤيتي ويبدو أنها بالفعل كانت تعيش أوقاتا عصيبة في البيت بسبب تلك القصة الغريبة.. لا يوجد خطر يهدد حياتهم.. لكن وجود لغز غريب غير مألوف يلاحقك من عالم ما وراء الطبيعة سيحيل حياتك جحيما دون شك.. تخيل أن تستيقظ يوما مثلا وتجد أن صورتك لا تظهر في المرايا!!.. لن يقتلك هذا ولن يهدد حياتك.. لكنه سيفجر الرعب في أعماقك دون شك!!!.

زارتني (حلا) مرة أخرى واللهفة تغزو ملامحها وكأنني أملها الأخير بالفعل.. حتى أنني لاحظت الإرهاق الشديد على ملامحها بسبب قلة النوم.. بل إنني تساءلت عن حال والدتها المسكينة وهي تستيقظ بهذه الصورة كل ليلة وعلى مدى أسبوعين تقريبا.

طرحت تلك الأفكار جانبا.. ثم قلت لها بشيء من الثقة:

- أعرف أن ما سأقوله سيبدو سخيفا.. لكن.. إن أردت البحث عن حل لمشكلة خارجة عن المألوف فيجب التفكير بطريقة خارجة عن المألوف أيضا!!.. أليس كذلك؟!!.. أعيد وأكرر.. ما سأقوله قد يبدو سخيفا وغريبا.. لكنه مدعوم

بدراسات وأبحاث طويلة.. حسنا.. هل سمعت عن الإسقاط النجمي؟!!!.

هزت رأسها نفيا وهي تنظر إلي بتوتر.. فأجبتها متفهما:

- الإسقاط النجمي هو خروج الوعي من الجسم أثناء النوم.. فيكون على هيئة شبح أو طيف يشابه الجسم الأصلي تماما!!!.. أي أن الجسد يكون نائماً بينما العقل في حالة يقظة تامة.. إذ يعتقد المتعمقون في علوم الروحانيات وما فوق الطبيعة.. أن الجسم البشري يتكون من جزأين.. جزء مادي محدود.. هو ذلك الذي نراه ونتعامل معه ويمكننا أن نلمسه.. وآخر أثيري ينبع من روحه وينفصل عادة عن الجسد المادي حيث يبقى بقربه أثناء النوم.. وقد يبتعد عنه شيئا فشيئا.. لكن هناك عدد محدود جدا من الناس يستطيعون إبعاد جسدهم الأثيري عن نظيره المادي والذهاب به إلى أماكن أخرى.. ويبدو أنك منهم.. إنك تمتلكين القدرة على ذلك لكنك لا تعلمين.. أرجوك لا تظني كلامي سخيفا.. فببحث سريع في (الإنترنت) ستتأكدين مما أقوله.. بل ويخبرنا العلم أن كل إنسان -نظريا- قادر على فعل ذلك.. لكن الأمر يحتاج إلى وقت طويل في تعلم تقنيات الاسترخاء والتركيز والابتعاد تماما عن القلق ومشاغل الحياة. . وما يجعلني على شيء من الثقة

بهذا التفسير هو أن بعض الأطباء النفسيين يحاولون تعليم مرضاهم ممارسة الخروج من الجسد.. فهو مفيد كثيرا في العلاج النفسي.. بل وأحيانا العلاج العضوي أيضا!!!.. فالأمراض النفسية والعضوية تلتقي ببعضها في العديد من النقاط!!!.. لاحظي أنني لا أتحدث هنا عن الجن.. بل أمر آخر تماما*.

كانت (حلا) تحدق بي بغباء وهي تسمع مصطلحات تجهلها تماما ولم ترد على مسامعها من قبل.. لكني أكملت باهتمام:

- إنك لست من النوع الذي يتقلب كثيرا على الفراش أثناء النوم.. أليس كذلك؟!!.

---

* كل ما قاله الدكتور هو كلام علمي محل جدل شديد ولم يحسم حتى الآن.. علما بأن الإسقاط النجمي يتفرع لعدة أقسام.. منها تجربة الخروج من الجسد (Out of Body Experiences)، الأحلام الواضحة أو الجلية (Lucid Dreams)، التخاطر (Telepathy)، المشاهدة عن بعد (Remote Viewing) وكل منها علم بحد ذاته ويحتاج إلى شرح مطول.. وهناك ثلاثة شروط أساسية ومهمة لكي تكون تجربة الخروج من الجسد ناجحة.. منها القدرة على الاسترخاء 100% والبقاء في وضع الوعي وعدم النوم، ثم تأتي القدرة على تحريك الوعي خارج الجسد.. وهذا أمر صعب للغاية لكنه ممكن مع كثرة التركيز والاستقرار النفسي.. هذه هي البداية فحسب.. بعد ذلك يجب إبعاد الوعي عن الجسد لمسافات بعيدة.. البعض يفعلها بنجاح.. وهناك تجارب تؤكد ذلك بالفعل.. ومواقع الانترنت المختصة بعلوم الماورائيات مليئة بقصص تؤكد نجاح البعض بممارسة الإسقاط النجمي.

هزت رأسها بذهول موافقة.. وبدا أنها مستغربة تماما لاستنتاجي هذا.. لذا فقد قلت بثقة شديدة وقد شعرت أنني على الطريق الصحيح:

- نعم.. هذا بسبب الشلل المؤقت الذي يسببه انفصال وعيك -أو فلنقل جسدك الأثيري- عن جسدك المادي.

سألتني في حيرة:

- هل تعني أن كل ما يحدث لنا في البيت سببه ذلك الإسقاط النجمي؟!!.

قلت موافقا وبحزم:

- إنك تمارسين الإسقاط النجمي وتطاردين نفسك دون علم بذلك.. بل ويبدو أنك تمارسينه منذ طفولتك.. لقد كان وعيك يخرج من جسدك أثناء النوم ويجوب البيئة المحيطة.. و.. بسبب طبيعتك النفسية وحبك للأماكن الضيقة الصغيرة كما أخبرتيني في لقائنا الأول.. أحببت كثيرا شكل بيتك الحالي.. فكنت تظهرين فيه فجأة أمام أهاليه.. مما سبب لهم رعب هائل وظنوا أن البيت مسكون بالجن.. هذا ما جعلهم يبيعون البيت!!!.. ألم تقولي أنك سمعت والدك يتحدث ذات مرة عن أن أصحاب البيت قد قاموا ببيعه بسبب ارتباطه بقصص

الجن؟!!.. لقد كنت تتجسدين في البيت أمامهم.. وكان هذا ما يسبب لهم الرعب بطبيعة الحال!!!.

انتفض جسدها فجأة بعد هذا الكلام.. حتى أنها ضربت المنضدة -لا شعوريا- بقوة وهي تقول:

- يا إلهي.. يا إلهي.. يا إلهي.. إنك حقا عبقري!!!.. كان موضوع الجن الذي تحدث عنه أصحاب البيت السابقين يتعلق بظهور طفلة صغيرة في بيتهم بالفعل!!!.. الآن أتذكر.. لقد سمعت والدي يقول شيئا كهذا لأحد أصدقائه منذ سنوات طويلة في مكالمته الهاتفية التي أخبرتك عنها في لقائنا السابق.. تريد أن تقول إنني أنا من كنت أظهر لملاك البيت السابقين فظنوا أنني من عالم الجن.. أليس كذلك؟!!.

أومأت برأسي إيجابا وسألتها باهتمام بالغ:

- أخبريني أولا.. تقولين أنكم انتقلتم لهذا البيت وأنت في الثامنة من العمر.. أين كنت تعيشين قبل ذلك؟!.. كنت تعيشين في (كيفان) أيضا.. أليس كذلك؟!.. منزل جدك ربما؟!!.

نظرت إلي بانبهار وهي تقول:

- إنك حقا ذكي.. بل خارق الذكاء.. ما تقوله صحيح تماما.. لكن كيف علمت بذلك؟!!.

زفرت بارتياح شديد.. هكذا تلتقي كل خيوط اللغز.. هذا ما قلته لنفسي.. قبل أن أكمل:

- هذا يؤكد نظريتي.. فعندما خرج وعيك من جسدك أثناء طفولتك دون علمك.. كان يجوب البيئة المحيطة ببيت جدك وهو مكان إقامتك آنذاك.. فكان بيتك الحالي هو أول ما أشعر جسدك الأثيري بالانبهار.. فتجسّد فيه كونك تحبين البيوت الصغيرة ذات التفاصيل التي رسمتِها في مخيلتك لبيت العمر.. وعندما خرجتم من بيت جدك في (كيفان) وبحثتم عن بيت آخر في نفس المنطقة.. شاءت الصدف أن يشتري والدك البيت نفسه الذي كنت تخرجين من جسدك ليلا أثناء نومك لتتجسّدي فيه!!!.. وربما هي ليست صدفة بالمعنى الحرفي.. فوالدك أصلا من سكان المنطقة.. ربما شاهد إعلان بيع بيتكم الحالي على إحدى اللوحات المعلقة على أعمدة الإنارة -وهو ما يفعله أهل بلدنا الحبيب دوما وأبدا- فسأل عن سعر البيت واشتراه قبل غيره.. أما عن سبب ضربك الجرس في الأيام الماضية وعدم التجسد مباشرة داخل البيت كما كنت تفعلين في طفولتك.. فهو أمر أجهله.. ربما.. ربما لأنك ما زلت عاجزة عن التحكم بموهبتك تلك.. فكل مرة ينفصل فيها وعيك عن جسدك.. يخرج من البيت لا شعوريا.. لكنك تحاولين لا شعوريا أيضا إرغامه على العودة.. إذ تبدو لعقلك

الباطن أن عملية ضرب الجرس -وهو الأمر الذي تمارسينه أثناء استيقاظك في حياتك الطبيعية- كمحاولة للعودة إلى البيت أسهل من الاختفاء من الخارج والتجسد في الداخل مباشرة بجانب جسدك المادي.. كما قلت.. أنت ما زلت عاجزة عن التحكم في موهبتك هذه.. وبطبيعة الحال.. تلاشي جسدك فجأة كما تبين لك في شريط الفيديو سببه استيقاظك من النوم على صوت الجرس وعودة جسدك الأثيري للاندماج بجسدك المادي.. هل فهمت كلامي؟!!.

سكت طويلا وأنا أجرع كوب الماء الموجود على مكتبي بعد هذا الشرح الطويل.. في حين ظلت هي تنظر إلي غير مصدقة.. ثم سألتني فجأة:

- لماذا أنا بالذات لدي تلك الموهبة الغريبة؟!!.. أنا لم أسمع عن شيء كهذا في حياتي!!!.. ولماذا تكرر الأمر بهذه الصورة وبشكل يومي مؤخرا؟!!.

قلت ببساطة:

- وكأن أحدهم يسأل: لماذا أنا موهوب في الغناء أو في كرة القدم؟!!.. هذه موهبة ربانية لا نملك شرحها.. وأنا أجهل في الواقع سبب تكرارك لممارسة الإسقاط النجمي بهذه الصورة اليومية مؤخرا.. ربما لأن الموهبة وصلت إلى الذروة الآن.. تماما

كما تصل موهبة الكاتب أو اللاعب إلى الذروة في فترة من فترات حياته.. عليك فقط الآن أن تتدربي للسيطرة عليها.. أما إذا كنت تريدين التخلص منها.. فهذا ممكن أيضا بعد عدة جلسات تنويم مغناطيسي سأقوم بها لأقتل تلك الموهبة في عقلك الباطن.. الأمر بيدك!!.

لم تجد ما تقوله أمام كلامي هذا.. لكني شعرت بنظرات الاطمئنان التي تنظر بها إلي.. ثم:

- دكتور.. لقد كان ما يحدث يخيفني.. لكن لا أعرف لماذا لا أشعر بالخوف الآن.. رغم أن تفاصيل القصة مخيفة.. خاصة حين أعرف أن هناك أمرا غريبا متعلقا بي لا أستطيع تفسيره.. كأن تستيقظ من النوم فجأة لتجد أن مخالب مخيفة قد نمت في يدك!!!.

ابتسمت قائلا:

- لأنك فهمت ما يحدث لك الآن.. وعندما نفهم.. ينقشع الخوف من حياتنا.. هذا أمر طبيعي.

قاطعتني سريعا وكأنها تذكرت أمرا هاما:

- هناك نقطة لم تشرحها لي.. كيف ينفصل وعيي عن جسدي ورغم ذلك يمتلك القدرة المادية لضرب جرس الباب؟!!.

قلت مصححا وقد تذكرت النصف الثاني من تفسيري لأحداث هذه القصة العجيبة والذي لم أخبرها به حتى الآن:

- أعتقد أنك مصابة بمرض نفسي نادر للغاية يطلق عليه اسم (أعراض ستندال)!!!.. لقد اختلط هذا المرض بموهبتك وأعطى وعيك بعض القدرات المادية أثناء انفصال جسدك الأثيري عن نظيره المادي.. هذا هو التفسير الوحيد.. وإن كنت لا أفهم سبب أو كيفية حدوث ذلك.. لكنك الإنسانة الوحيدة -على حد علمي- التي تمتلك تلك الموهبة المرتبطة ببعض القدرات المادية.. وهذا ما جعلني أبحث عن شيء متعلق بك أنت فقط ويجعلك مختلفة عن كل من مارسوا الإسقاط النجمي.. لذا فقد درست كلامك لي جيدا في المرة الأولى.. ورجحت أنك بالفعل مصابة بـ(أعراض ستندال).

نظرت إلي دون فهم.. فقالت متلعثمة:

- أعراض سندان؟!!.

قلت مصححا:

- (أعراض ستندال) (Stendhal Syndrome).. إنه مرض نفسي نادر للغاية وأعراضه بالغة الغرابة.. بل وتبدو سخيفة للوهلة الأولى.. إذ يتلخص هذا المرض بالصدمة من الجمال!!!..

نعم.. جميعنا نحب أن نشاهد الجمال ونستمتع به من خلال المناظر الطبيعية مثلا.. أو اللوحات والتحف الفنية.. ولكن.. لفئة قليلة جدا من الناس.. يسبب الجمال صدمة مفرطة!!!.. نفسية وعقلية وجسدية!!!.. وأعراض هذا المرض النفسي الغريب تتضمن الإصابة باضطرابات قوية وسريعة في ضربات القلب!!.. مع الشعور بالدوار.. والارتباك.. بل وحتى الهلوسة في بعض الأحيان.. وقد اكتُشف هذا المرض منذ سنوات قليلة نسبيا.. بعد أن أصيب به بعض السواح الذين قاموا بزيارة المتاحف الفنية الشهيرة أو الأماكن الطبيعية الجميلة في أوروبا وغيرها!!!.. حيث لوحظت تلك الأعراض عليهم دون أن يفهم الأطباء سببها في بادئ الأمر.. قبل أن يكتشفوا المرض ويعلنوا عنه رسميا*.. ولو كنت مصابة بهذا المرض النفسي الغريب كما أتوقع.. فأعتقد أنك مرضت أول أيام انتقالك لبيتكم هذا ولم يفهم أهلك سبب مرضك.. قبل أن تهدأ أعراض المرض مع مرور الأيام كونك أصبحت تعيشين في البيت نفسه واعتدت على تفاصيله.. لكن.. ظل المرض حبيس عقلك الباطن وأعطى جسمك الأثيري -دون أن أفهم كيف- القدرة المادية التي استخدمتِها للعودة إلى البيت وضرب الجرس أثناء نومك.

---

* حقيقة.

سألتني بقلق وهي تضع يدها على رأسها وكأنها ترتب أفكارها بعد كل ما سمعت:

- ولكن ما زلت عاجزة عن الفهم رغم كل ما قلته لي.. كيف يرتبط الإسقاط النجمي بـ(أعراض ستندال) وتصبح لدي بعدها القدرة على منح وعيي صفات مادية تمكنه من ضرب الجرس؟!!

هززت رأسي وأنا أقول:

- تريدين إجابة واضحة بالمسطرة والقلم والآلة الحاسبة؟!!.. أنا لا أملكها.. لكني أستطيع الاقتراب من الإجابة الصحيحة.. كما قلت لك.. وعيك ينفصل عن عقلك.. لكنه وبسبب ما يحتفظ ببعض القدرة المادية التي مكّنته من ضرب الجرس.. ربما بسبب إصابتك بـ(أعراض ستندال).. وهذا جعلك تمتلكين موهبة جبارة بالفعل لو تمكنت من ترويضها واستغلالها بصورة كاملة!!!.. أنت تعشقين بيتك.. تحبين كل ركن فيه.. تحبين حديقته.. وتشعرين بالأمان فيه.. حبك للبيت هو حب مبرح كما يبدو.. وهذا جزء من إصابتك بهذا المرض النفسي الذي ارتبط بموهبة الإسقاط النجمي التي تتمتعين بها دون علمك.. وصنع لوعيك قدرة مادية أعجز عن تفسيرها صراحة.. هل فهمت قصدي؟!!.

سألتني مرة أخرى:

- لماذا لم يمتلك جسمي الأثيري تلك المقدرة المادية من الصغر إن كنت أعاني من (أعراض ستندال) كما تقول؟!!.

أجبتها بصدق:

- لا أعلم.. ربما لأن عقلك الواعي كان قاصرا في فترة طفولتك ولم يكن يعي كل شيء حوله.. فلا يمكن لطفل في السابعة مثلا أن يتصرف بحكمة فقط لأنه يمتلك موهبة الإسقاط النجمي.. وربما لأن (أعراض ستندال) لم تظهر على السطح بعد وتمنح جسمك الأثيري تلك المقدرة المادية في تلك الفترة.. وإن كنت أجهل سبب وصول موهبتك هذه إلى الذروة الآن تحديدا!!!.

نظرت إلي طويلا دون رد.. وإن رأيت نظرات الاطمئنان في عينيها كونها فهمت تفاصيل ما يحدث لها على الأقل وإن كانت مجرد نظريات خرجت بها بعد بحثي المتواصل.. لكنها تفسر أحداث القصة بصورة جيدة كما ترون.. و.. بعد صمت طال لدقائق.. أخبرتني برغبتها بالعلاج للتخلص من تلك (الموهبة المخيفة) على حد قولها!!.. هكذا دون تفكير.. تقول إنها لا تريد أن تكون مختلفة عن باقي الناس.. خاصة وأن ما رأته في الأيام الماضية سبب لها رعبا هائلا.. وإنها تريد أن

تنسى ما حدث.. ولا يمكن أن تنسى لو احتفظت بتلك الموهبة.

أومأت برأسي موافقا محترما قرارها.. ولن أدخل معكم في تفاصيل مرحلة العلاج.. فهذا جزء من عملي ولا أريد أن أصيبكم بالملل.. لكن كانت هناك جلسات علاج مكثفة بالفعل استمرت حوالي أسبوع حتى بدأت (حلا) تخبرني بفخر أنه قد مر يومان متتاليان لم يضرب أحد جرس باب بيتها.. هذا رائع.. التنويم المغناطيسي له نتائج فعالة بحق.. فقد نجحت كما يبدو بركن تلك الموهبة في منطقة مظلمة من عقلها.. ستبقى هناك وتموت مع مرور الأيام.. تماما كما يحدث مع لاعب الكرة الموهوب الذي لا يمارس اللعبة لسنوات.. سيفقد الكثير من مهاراته بكل تأكيد.

ثم.. مر أسبوع آخر من الجلسات العلاجية لأتأكد أن (حلا) مصابة (بأعراض ستندال) بالفعل.. مما أشعرني بالفخر لمدى دقة تحليلي المبدئي.. والأهم من ذلك أنها أخبرتني بعدها أن أحدا لم يضرب الجرس لمدة 8 أيام متتالية مما أشعرها مع أفراد أسرتها الصغيرة بالاطمئنان بعد أيام عصيبة.. دون أن تخبر والدتها أو شقيقها بأمر زياراتها لي وعلاجي لها.

كما ترون.. كان العلاج يتواصل بشكل جيد.. لتبدأ زيارات (حلا) تقل شيئا فشيئا.. إلى أن انتهت تماما ولم تعد

تزورني.. أتذكر أنها في آخر زيارة لها جاءت لي بصندوق أنيق من الشيكولاته الفاخرة التي يذهب مذاقها عقلك.. لم أفهم حينها أن هذه زيارة الوداع.. لكني فهمت الآن.

مهلا.. أكاد أسمع ضحكات السخرية التي يطلقها بعضكم على أحداث هذه القصة.. هل تظنون أنها قصة سخيفة؟!.. أو أن تفسيري لها سخيف مثلا؟!.. كل ما أطلبه منكم هو البحث عن الإسقاط النجمي وعن (أعراض ستندال) في أي كتاب مختص أو حتى في مواقع (الإنترنت) ذات المصداقية لتتأكدوا من كلامي.. عندها سأستحق منكم اعتذارا!!!.

أحيانا أتساءل.. هل سأرى (حلا) مرة أخرى؟!!.. لا أعلم.. يتعلق قلبي أحيانا كثيرة بفتيات يقمن بزيارتي لطلب المساعدة.. وأشعر بالأسف أحيانا كثيرة كوني لن أراهن بعد أن أنجح في علاجهن.. هذا يؤلمني كثيرا.. لأنني أعشق الأنثى.. وأحب أن أعيش قصة حب جديدة بين الحين والآخر.. مجرد حب دون التزامات أو مسؤوليات.. وهو أمر مستحيل متناقض.. لكن.. لا عليكم من تناقضاتي وخواطري البلهاء تلك.. فالمهم أنني ساعدت تلك الفتاة أخيرا.. وكشفت لها السر الذي ظل يؤرقها لفترة ليست بالقصيرة.. سر الذي يزورهم ليلا.

الشقة رقم (12)!!

تحكيها: بشاير

عزيزي القارئ.. لا أعرف كيف أصنف لك هذه القصة.. إنها ليست قصة رعب بكل تأكيد.. وبعيدة عن الدراما أيضا.. ربما هي قصة بوليسية؟؟!!.. لست متأكدا.. إنها من تلك القصص التي لا تستطيع تصنيفها.. الغريب أنني استمعت إلى تفاصيلها في الفترة الصباحية من عملي في المستشفى.. وهي ليست من الفترات التي أستقبل فيها عادة أشخاصا عاشوا تجارب غريبة أو يمرون بأعراض نفسية تستحق أن تكون تحت مسمى (حالات نادرة)!!!.. فتلك الحالات لا تمر علي سوى في أوقات متأخرة جدا من الليل أو مبكرة جدا من النهار مع زقزقة العصافير.. على كل حال.. هي قصة مختلفة فحسب.. هذا كل ما يمكنني قوله.. تابعوا معي لتفهموا ما أعنيه.

بدأ كل شيء في صباح يوم الأربعاء.. حيث بدأت ساعات العمل للتو.. مشاعر الهدوء والسكينة تسيطر علي تماما وتكسبني رضا عن حياتي التي كرستها للاستماع إلى هموم الناس وحل مشاكلهم.. وهو ما قد يشعر به كل من استيقظ باكرا ووصل لمقر عمله قبل بدء الاختناقات المرورية في شوارعنا.. أتذكر أنني طلبت من الفرّاش أن يأتيني بكوب (النسكافيه) المعتاد والذي لا يمكن أن يمر صباح أي يوم دون أن أشرب واحدا.. وأتذكر أنني رأيته داخلا يحمل صفحة عليها قدحا من (النسكافيه) الذي يتصاعد منه البخار المحبب إلى النفس..

فمددت يدي في رضا عن الكون ورحت أشرب من الكوب شاعرا بصفاء وراحة بال لا حدود لهما.. دقائق قليلة قبل أن أسمع طرقات واثقة على الباب.. لأتنحنح وأقول بصوت هادئ لكنه مسموع:

- تفضل.

فتح الباب لتدخل منه فتاة لا أعرف كيف أصفها لكم.. جميلة؟!.. إلى حد ما.. ترتدي فستانا طويلا نسبيا وشعرها الأسود منسدل على كتفيها حتى بدت لي وكأنها غجرية.. كانت نظراتها ثابتة واثقة قوية!!.. فتاة بهذه النظرات لا تحتاج إلى طبيب نفسي.. هكذا قلت لنفسي!!.. رحت أمعن النظر فيها مرة أخرى.. هناك شيء مجهول لا أفهمه.. هذه الفتاة لا يجذبك جمالها.. لكن لسبب ما تجعلك ترغب بالنظر إليها فحسب!!!.. هناك شيء مريح في ملامحها.. ما هو؟!.. لا أعلم!!!.

جلست على الكرسي المقابل والذي يجلس عليه كل شخص يدخل غرفتي تقريبا سوى الفرّاش بطبيعة الحال.. فارتشفت ما تبقى من كوب النسكافيه وووضعت بعض الأوراق أمامي وأمسكت بالقلم دون أن أنظر إليها عالما أنها زائرتي الأولى اليوم وآملا أن تكون مشكلتها بسيطة قابلة للحل في قواميس الطب النفسي.. لكني فوجئت بالفتاة تحدّق بي

بإصرار غريب دون أن تنطق بحرف منذ دخولها!!!.. سألتها مستغربا بشيء من الحرج عن سبب تحديقها.. فتداركت نفسها سريعا وأجابت بصوت ناعم لكنه مليء بالثقة:

- لم أكن أحدق بك.. كنت فقط أنظر إلى اتجاهك أثناء تفكيري!!!.

ابتسمت لتعليقها البسيط.. قبل أن أطلب منها أن تخبرني بما تعاني منه.. فقالت مباشرة دون أي مقدمات:

- المشكلة يا دكتور أنه لا يوجد في مجتمعنا مستمع جيد.. المستمع الجيد هو مجرد شخص يفكر في أمر آخر أثناء استماعه إليك!!!.. لهذا لجأت إلى مستشفى الطب النفسي.. آملا ألا تكون أنت أيضا من الذين يفكرون في أمور أخرى أثناء استماعهم لمرضاهم!!!.

قلت دفاعا عن نفسي وقد شعرت أن هذه الفتاة تمتلك شخصية قوية للغاية:

- إنني أؤدي عملي على أكمل وجه.. تأكدي من ذلك.. ومهمتي هي الاستماع إلى كل من يجلس على هذا الكرسي!!.

هزت رأسها غير مقتنعة مما أصابني بشيء من الغيظ.. هذا غير معقول.. أن يأتي أحدهم إليك في هذا الوقت المبكر

فقط ليقول لك إنك نصاب رغم أنه لم يرك أو يقابلك في حياته قبل الآن!!!.. لا أعرف لماذا يُنظر للطبيب النفسي أغلب الأحيان بشك وبشيء من الريبة والكراهية؟؟!.. ربما لأن المريض يكشف له عن أسود أسراره.. وربما لأن الطبيب النفسي يذكّره بالجانب المظلم من حياته!!.

طرحت تلك الأفكار جانبا وأنا أنظر إلى الفتاة منتظرا منها أن تخبرني بما تعانيه.. فانتبهت إلى صمتي.. لتكمل بذات الهدوء:

- حسنا يا دكتور.. من المؤكد أنك تريد أن تعرف عمري قبل كل شيء.. لأنني أدرك جيدا أهمية العمر في مسألة التحليل النفسي.. أنا أقرأ كثيرا في مجال الطب النفسي وأعرف عنه بعض الأمور.. عموما.. اسمي (بشاير).. أنا في التاسعة عشرة من العمر.. طالبة جامعية متفوقة جدا.. وذكية للغاية.. بل مبدعة.. أقولها لك دون غرور.. تخيل أن لدي أفكارا للحصول على أفكار!!!.. هل فهمت ما أعنيه؟!.. بالطبع لا.. لأنني ذكية ولا يفهم كلامي كل إنسان!!.. كما أنني أمتلك شخصية قوية للغاية ولا أستمد ثقتي أبدا من الآخرين.. فتراني دوما أفعل ما أراه صحيحا دون الاستماع إلى نصائح أحد.. حتى أن كلمتي مسموعة في البيت بين والدي وأشقائي الذين

يثقون كثيرا بآرائي ورجاحة عقلي رغم صغر سني.. لكني رغم كل شيء.. وجدت نفسي فجأة مضطرة للمجيء إلى مستشفى الطب النفسي.. فما حدث لي مؤخرا كفيلا بهز أي شخصية مهما كانت قوية ومؤثرة!!!.

أومأت برأسي إيجابا وأنا أسجل بعض الملاحظات الأساسية عنها شاعرا بشيء من التضاؤل أمامها رغم أنني طبيب نفسي!!!.. كأنها ناظرة مدرسة حازمة لا يمكن المزاح معها أو الاستخفاف بها.. المهم أن الفتاة -أو (بشاير) بعد أن عرفنا اسمها- أكملت فجأة وبطريقة عدائية لا مبرر لها:

- دكتور.. أنا أكره الشباب الكويتي كثيرا.. فالشاب الكويتي مرفه للغاية لا يعرف كيف يكون مسؤولا.. ولم يتربّ أصلا على تحمل المسؤولية.. فهو ليس عاملا داخل مناجم الفحم في (تشيلي).. ولا فلاحا في مزارع الموز في (هاييتي).. ولا بائع فول عند إشارات المرور في شوارع (القاهرة).. ولا حتى رجل أعمال حصل على ثروته من كفاحه.. الشاب الكويتي تنحصر معاناته في كيفية الحصول على موقف قريب من بوابات مجمع (الأفينيوز) التجاري.. أو كيفية حل مشكلة انتهاء الشحن من جهاز الآيفون الخاص به.. أو زيادة عدد متابعيه على حسابه في (تويتر)!!!.. والأسوأ من ذلك أن جميعهم يقولون للفتاة: أنا أختلف عن باقي الشباب!!!.

هززت رأسي مستغربا لهذه الجرأة ورجاحة العقل لدى فتاة في مثل سنها.. إنها حقا قوية الشخصية!!!.. بل هي بمثابة الإعصار الذي قد يبتلعني.. إنها لم تشعر حتى باحمرار وجهي بعد أن أهانت أبناء بلدها -وأنا منهم بطبيعة الحال- دون استثناء وإن كان في كلامها شيئا من الصحة.

ثم.. أكملت (بشاير):

- لذا كنت أحلم دوما بالزواج من رجل يكبرني بسنوات طويلة.. وليس شاب في مقتبل العمر.. وهذا ما جعلني أقبل بذلك الدكتور الجامعي الذي تقدم لخطبتي والذي يكبرني بحوالي 17 عاما!!.. لقد رويت قصة زواجي الناجح وحسن اختياري لزوجي هذا أكثر من مرة.. ودائما ما يضرب بي المثل كوني وقفت بمواجهة أشقائي ووالدي وأصررت على الزواج منه.. لقد كان سبب اعتراض الجميع هو فارق السن بيننا بالطبع.. خاصة وأنه قد سبق له الزواج وانفصل عن زوجته التي أنجبت له طفلة جميلة في السادسة من العمر تعيش معه.. لقد سمعت كلاما كثيرا من والدتي من طراز: ((أنت فتاة جميلة.. متفوقة.. مثقفة.. ولديك مستقبل باهر.. فلماذا ترتبطين برجل يكبرك سنا وسبق له الزواج.. بل ولديه طفلة أيضا؟!.. ثم إنه من العسير أن تبدئي زواجك بالاهتمام بطفلة

ليست ابنتك.. أنت تعرفين ذلك جيدا.. بل ولا يوجد أي ضمان أن تلك الطفلة ستحبك أصلا.. ربما ستحيل حياتكما جحيما)).

قلت بهدوء وأنا أنظر إلى الورقة وهي طريقة أهرب بها من نظراتها الواثقة:

- ربما تكون والدتك محقة في ذلك!!.

لم تعلق على كلامي.. بل أردفت بحزم:

- كنت أرد على والدتي بثقة ربتني عليها وأخبرها أن هذا الرجل ناجح في حياته.. فهو دكتور في الجامعة كما ذكرت لك وقد حصل على عرض عمل في (الولايات المتحدة الأمريكية) مما يدل على تفوقه الشديد في مجال عمله!!!.. كما أنه مهذب للغاية.. وابنته فتاة رقيقة جميلة من السهل أن أكسب ودها.. خاصة وأنني أعرف جيدا من خلال قراءاتي كيفية التعامل مع الأطفال.. فترد أمي بصبر: ((يا ابنتي.. سيسخر منك البعض.. الناس لا ترحم وستتكلم)).. لكني كنت أقول لها وكلي ثقة بكلامي ((إذا سخر مني الناس لأني مختلفة عن الآخرين.. سأسخر أنا منهم لأنهم لا يختلفون عن الآخرين))!!!.. فتهز كتفيها كناية عن عدم جدوى نقاشي وأنني سأنفذ ما أراه صحيحا في النهاية!!!.. نعم يا دكتور.. كنت واثقة أنني سأكون سعيدة معه.. لذا.. وأمام إصراري.. وافق والديّ وأشقائي..

وأقيم حفل زفاف بسيط في منزلنا كنت فيه فرحة إلى درجة لا توصف لحسن اختياري.. شاعرة بالفخر وأنا أُجلس ابنة زوجي بقربي.. خاصة وأنها بدت سعيدة بدورها وهي تطلق ضحكاتها الطفولية الجميلة.. وكانت تحتضنني ببراءة تبين مدى تعلقها السريع بي.. يقول زوجي إنها تحبني كثيرا وتحب اهتمامي بها.. فالطفل يحب سريعا.. ويكره سريعا.. وقد أحبتني ابنته سريعا.. وأحببتها أنا بالمقابل.. وما زاد من فرحتي هو نظرات الاطمئنان والراحة التي لمحتها في أعين والديّ وأشقائي بعد أن لاحظوا دماثة خلق زوجي واهتمامه الواضح بي.. بالطبع يا أفراد عائلتي الأعزاء.. لهذا اخترته!!!.. فأنا أريد أن أنجب من هذا الرجل وأن يكون أطفالي نسخة منه.. وأتذكر هنا النصيحة التي أوجهها دائما لصديقاتي: ((لا تتزوجي الرجل الذي لا تتمنين أن يكون أولادك نسخة منه.. ولا تبكي أبدا من أجل رجل.. فالرجل الذي يستحق دموعك لن يجعلك تبكين)).. وقد كنت واثقة أن هذا الرجل لن يجعلني أبكي يوما!!!.

سكتت قليلا وهي تنظر إلى السقف وكأنها تتذكر لحظات رائعة.. أما أنا فقد غرقت في كلماتها الجميلة المؤثرة.. قبل أن تعيدني إلى عالمها حين أكملت:

- انتقلنا بعد الزفاف مباشرة للإقامة بصورة مؤقتة في مجمع سكني قديم نسبيا انتظارا لانتهاء السنة الدراسية لابنته والتي لم يتبق عليها سوى بضعة شهور.. ومن ثم سفرنا جميعا إلى الخارج حيث سأستكمل دراستي هناك أنا أيضا.. كما ترى.. كل شيء كان يوحي بمستقبل مشرق.. بل كان شعوري لا يوصف عندما بدأت ابنة زوجي تناديني (ماما) بعد أيام قليلة من زواجنا.. خاصة مع غياب والدتها المستمر وإهمالها الدائم لابنتها والذي كان سببا رئيسيا لطلاق زوجي منها كما أخبرني!!!.

كنت أنظر إليها وأتساءل.. من الذي يستطيع أن يعيش مع فتاة قوية الشخصية كهذه؟!.. لا شك أن زوجها أقوى شخصية منها ويمتلك حلولا لكل المشاكل التي يتعرض لها.. مثل (جيمس بوند) ربما!!!.. أو ربما يكون زوجا متخاذلا ضعيفا تتحكم هي به كما تشاء؟!.. لا أعتقد وإلا لما قبلت به أصلا.. و.. قطعت سيل أفكاري وهي تكمل:

- استمرت حياتنا بسيطة جميلة خلال الشهر الأول من زواجنا.. لم يكن فيها ما ينغص علينا حياتنا على الإطلاق.. إذ كنت أجلس بلا عمل بعد أن أوقفت قيدي الدراسي في (الكويت) وأنهيت أوراقي لاستكمال دراستي في الخارج.. فقد

وعدني زوجي أنه سيتكفل بمصاريف دراستي الجامعية وأنه حريص للغاية على ذلك.. أما طفلتنا الصغيرة فسنقوم بإلحاقها بالمدرسة هناك بطبيعة الحال.

نظرت إليها عالما أن كل ما أخبرتني به هو مقدمة لوضعي في أجواء القصة كما يقولون.. ولم أكن مخطئا.. إذ أردفت بأسى وكأنها تتمنى أن تعود تلك الأيام:

- كنت سعيدة للغاية شاعرة أنني محظوظة بحق مع زوجي الذي تبين أنه يحمل قلب فارس وعقل عالم وروح فنان.. قبل أن تظهر تلك البقعة السوداء في حياتنا.. بالطبع هناك دائما بقعة سوداء يا دكتور وإلا لما كانت هناك قصة أصلا ولما قمت بزيارتك في المستشفى.. أليس كذلك؟!.. أتذكر جيدا تلك الليلة المشؤومة عندما زارنا في شقتنا ضابط شرطة عرفت أنه صديق زوجي من مرحلة الطفولة.. إذ جلسنا جميعا في صالة الشقة حيث أصر زوجي على أن أكون معهما.. وراح مع صديقه يتحدثان عن ذكرياتهما معا.. قبل أن يحوّل الضابط دفة الحديث تماما ويخبرنا بأمر أشعرنا بشيء من القلق.. تنامى وأصبح قنبلة موقوتة مع مرور الأيام القليلة التي تلت زيارته!!!.. يقول الضابط إن النيابة قد أفرجت للتو عن طبيب أطفال من جنسية عربية له سمعة سيئة للغاية في التحرش

الجنسي بالأطفال!!!.. بل وقد تم إلقاء القبض عليه قبل شهور قليلة بتهمة التحرش بطفلة بعمر ابنة زوجي!!!.. لقد اقشعر جسدي وأنا أستمع إليه غير مصدقة.. فكيف لطبيب يحمل شهادة كهذه أن يكون منحرفاً جنسياً بهذه الصورة؟!!.

قلت بلا مبالاة:

- لا علاقة لشهادته بذلك.. هذا الطبيب ليس سوى (Paedophile) كما يطلقون عليه باللغة الإنجليزية.. فهو مصاب باضطراب نفسي حاد يجعله يهيم بالتحرش الجنسي في الأطفال*!!!!.

ضربت منضدتي بقبضتها وهي تقول بحدة:

- ما أثار جنوني هو أنه قد خرج من تهمته تلك دون عقوبة لعدم كفاية الأدلة.. والمصيبة الأكبر أن هذا الطبيب قد انتقل للإقامة في نفس المجمع السكني الذي نقيم فيه حاليا!!!..

---

* حقيقة بالطبع.. وقد تم اكتشاف هذا الاضطراب النفسي في أواخر القرن التاسع عشر.. لكن لم تُجرَ دراسات جادة حوله إلا في ثمانينيات القرن العشرين.. وتظهر عادة أعراضه منذ سن السادسة عشر تقريبا.. حيث تتنامى عند الإنسان الرغبة بالتحرش الجنسي في الأطفال دون سن الـ 13.. علما بأن هذا الاضطراب لا يقتصر على الرجال فقط.. فهناك حالات كثيرة مسجلة لنساء أيضا.. ويتم عادة علاج من يعاني هذا الاضطراب النفسي من خلال وضعه في برنامج عمل تطوعي مكثف لخدمة المجتمع.. مع مراقبته الدورية من قبل المختصين.

هذا ما أخبرنا به الضابط.. ولك أن تتصور حالة القلق التي أصابتنا.. بل إن زوجي انتفض فجأة بغضب.. وتساءل عن الأسباب التي تمنع الدولة من ترحيل رجل حقير كهذا إلى بلده.. إلا أن صديقه قال بهدوء -متوقعا ردة الفعل هذه- إنه رجل قانون ولا يملك القبض على الطبيب وسجنه أو ترحيله إلى بلده دون سبب قانوني يستند عليه.. فالأقاويل لا تكفي.. القانون يتعامل مع الأدلة.. الأدلة فحسب.. كما أخبرنا أيضا أن الطبيب سيقطن في الشقة رقم (12) في الطابق السابع من عمارتنا هذه.

سألتها مستغربا:

- ولكن.. كيف يسكن رجل أعزب في مجمع سكني يعج بالعائلات؟!.. فالقانون لا يسمح بذلك!!!.

نظرت إلي بأسف وهي تكمل:

- هذا ما قلته لصديق زوجي.. لكنه أخبرنا أن الطبيب اللعين سيأتي بشقيقته إلى (الكويت) قريبا.. وهو يقوم حاليا باستصدار الأوراق الرسمية لها.. لذا من حقه استئجار شقة في مجمع سكني تقطنه العائلات.. لأن شقته ستقطنها عائلة أيضا في هذه الحالة!!!.. قال جملته هذه وقد شعرنا أن زيارته قد سممت الجو تماما.. ويبدو أنه قد شعر بذلك.. إذ اعتذر كثيرا

عن إبلاغنا بالأمر.. لكنه أرادنا أن نأخذ حذرنا رغم كل شيء!!!.

قلت مغمغما:

- وجود رجل كهذا يسمم المكان كما تقولين ويصيب المرء بالقلق.. لكن.. يمكننا أيضا أن نأخذ الأمر بشيء من البساطة.. فهناك دائما قاتل أو سارق حولنا.. الفارق أننا لا نعرف شيئا عن ذلك أغلب الأحيان.. ولم تكوني لتعرفي هذه المرة أيضا لولا ذلك الضابط صديق زوجك.

ردت مؤيدة لكلامي:

- هذا ما قاله زوجي أيضا.. لكني لم أشعر بالارتياح رغم كل شيء.. خاصة عندما خرج الضابط.. لنتجه لا شعوريا إلى ابنتنا التي كانت تجلس في غرفتها منشغلة تماما بتلوين إحدى الكراسات وببراءة شديدة.. فاحتضناها معا وكأننا نبعد عنها كل شرور العالم!!!.. ثم.. أمسكت بيد زوجي متجهة إلى غرفتنا لنتحدث حول الأمر.. وكان أول ما اقترحته هو الانتقال إلى مجمع سكني آخر.. لكنه اعترض على هذا الاقتراح كثيرا.. خاصة حين ردد ما قلته لي للتو أن أمورا كهذه تحدث دوما حولنا دون أن نعرف شيئا عنها.. وتحدّث أيضا عن صعوبة العثور على مكان آخر في الوقت الحالي وأنه مشغول كثيرا باستكمال اجراءات السفر.. ولا يعقل أصلا أن نربك حياتنا

بأكملها ولم يتبق على رحيلنا سوى بضعة شهور لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. فاقترح بالمقابل أن نكون بجانب طفلتنا طوال الوقت وألا نتركها أبدا بمفردها خارج الشقة وألا نسمح لها باللعب بين ممرات الشقق كما تفعل بين الحين والآخر.. كلام جميل.. لكني لم أشعر بالارتياح رغم ذلك!!!.

سكتت طويلا بعد كلامها.. فاحترمت صمتها.. وتركت لها المجال لتكمل متى ما أرادت.. الغريب أنني لمحت دمعة تكاد تنزل من عينيها.. لكنها تداركتها بسرعة.. يا إلهي.. هذه الفتاة خارقة بالفعل.. ثم.. تنحنحت وأكملت قائلة:

- بعد بضعة أيام فحسب.. انتقل ذلك الطبيب للسكن في الشقة رقم (12) التي أخبرنا عنها صديق زوجي.. رجل لا يمكن أن ترتاح له في الوهلة الأولى.. عريض الجسد.. له كرش شائهة المنظر.. ونظراته عميقة تثير في جسدك قشعريرة لا تعرف مصدرها.. حتى أنه حاول التصرف بصورة طبيعية مع سكان العمارة.. لكن أحد لم يرحب به.. بل عامله الجميع بتحفظ شديد لاحظه هو دون شك لكنه لم يكترث كثيرا كما يبدو!!!.

سألتها بحذر:

- كيف عرف سكان العمارة بماضي ذلك الطبيب وسمعته السيئة؟!!.

قالت وهي تتنهد:

- لقد أخبر زوجي الجميع بذلك.. إذ شعر أن من واجبه إبلاغ سكان العمارة بأمر ذلك المجرم حتى يتخذوا حذرهم منه.. فمعظمهم لديهم أطفال.. ولم يكن زوجي ليقبل أن يذهب أحد أطفالهم ضحية التحرش الجنسي من قبل ذلك الطبيب اللعين.

سألتها مرة أخرى باهتمام:

- وكيف تصرف سكان العمارة بعد ذلك؟!.. هل اكتفوا بإبعاد أطفالهم عنه أيضا ومعاملته بجفاء؟!.

ردت وهي تطرق برأسها إلى الأسفل:

- لقد فوجئنا بمجموعة منهم -بعد مرور أسبوع فحسب من إقامة الطبيب في شقته- يقفون عند باب شقتنا ويطلبون زوجي لعقد اجتماع هام على حد قولهم.. نعم.. كانوا يريدون إبلاغه برغبتهم بعمل شيء ضد ذلك المجرم.. أي شيء.. خاصة وأنهم يرونه يتجول كثيرا بين الشقق ويحاول أن يستلطف أطفالهم حين يراهم يلعبون وسط الممرات أو في ساحة المجمع السكني!!!.. حتى إنهم هددوه بعدم التعرض لأطفالهم على الإطلاق.. فاستمع إليهم دون أن يعلق.. لقد أصبح المجمع

السكني بأكمله مسموما إن كنت تفهم ما أعنيه.. وفقد روح المرح التي كان يبثها فيه الأطفال.. ليصبح كئيب الأجواء تشعر بالترقب في كل زاوية منه.. لذا كانوا يريدون عقد اجتماع مع كل رب أسرة علهم يعثرون على حل.. المشكلة أنني لم أخبر طفلتنا بأي شيء عن الأمر حتى لا أخيفها.. كنت أريد إشعارها بالأمان.. خاصة وأنني لست والدتها الحقيقية كما تعلم.. ولا أريد أن أكون مصدرا لأي توتر لها.. لكني رغم ذلك كنت أحرّص عليها ألا تخرج أبدا بمفردها من الشقة.. وقد سألتني عن السبب فأعطيتها أعذارا واهية لم تقتنع بها رغم صغر سنها.. المشكلة أن الأطفال يكسرون أحيانا كثيرة كلمة والديهم كما تعلم.. وهذا ما جعل الأمور تسوء بصورة أكبر حتى وصلت إلى أقصى درجاتها!!!.

سألتها بشيء من القلق:

- هل.. تعرض ذلك اللعين لطفلتكما؟!.. هل اعتدى عليها؟!.

دمعت عيناها وهي تقول متجاهلة سؤالي:

- عندما اجتمع زوجي مع سكان العمارة.. بدوا كأنهم أصدقاء حميمين.. وهذا أمر متوقع .. فالخوف يصنع من الغرباء أفضل الأصدقاء كما تعلم.. لكنهم لم يتوصلوا لشيء.. أصدقك القول إنهم كانوا يخشون التعرض للطبيب كي لا

يتقدم بشكوى ضدهم بمضايقتهم له.. فهو رجل حر كما يقول القانون.. ولا يوجد أحد يستطيع أن يمنعه من التجول في مجمع سكني يقطن هو أحد شققه.. لذا فقد انتهى الاجتماع إلى لا شيء!!!.. وظلت الأمور معلقة والأجواء مكهربة بهذه الصورة.. إلى أن جاء ذلك اليوم.. بعد حوالي أسبوعين منذ انتقاله للشقة رقم (12) التي بت أكرهها أكثر من أي شيء آخر.. فقط لأن ذلك الطبيب اللعين يسكنها.. المهم أنني كنت أتحدث عبر الهاتف مع شقيقي.. عندما كانت ابنتنا ترى العالم من خلال شباك الصالة وهي تلهو مع إحدى عرائسها.. لتلمح زوجي -والدها- وهو يركن سيارته عائدا من الخارج بعد إتمامه لبعض الأعمال.. فخرجت من الشقة متجهة إلى الأسفل لاستقباله كعادة الأطفال متجاهلة نصائحنا السابقة لها.. وهو أمر يفعله الأطفال كثيرا كما تعلم.. المشكلة أنني لم أنتبه إلى ذلك إلا حين التفت لا شعوريا وأنا ممسكة بسماعة الهاتف لأشاهد باب الشقة مفتوحا.. نظرت حولي بذعر دون أن أعثر على ابنتي!!!.. فرميت السماعة أرضا تاركة شقيقي على الخط الآخر وخرجت كالمجنونة.. لأجد ابنتي في المصعد.. باب المصعد كان يغلق بهدوء وابنتي بداخله.. ومعها.. ومعها ذلك الطبيب اللعين!!!!.

اتسعت عيناي ذعرا.. ورحت أنظر إليها بقلق حقيقي

دون أن أرد.. فأكملت وهي تبتلع لعابها بتوتر وكأنها تعيش الموقف الآن:

- لك أن تتخيل ما شعرت به يا دكتور!!!.. ورغم أنني أقطن في الطابق السادس.. إلا أنني أخذت الدرج ورحت أنزل كالمجنونة مرتدية ثياب غير لائقة أبدا للخروج.. كنت أنزل الدرجات وكل الخواطر السوداء تمر في ذهني عن قصص اغتصاب الأطفال والاعتداء الجنسي عليهم التي نسمع عنها في كل مكان في هذا العالم المخيف.. قبل أن أصل إلى الطابق الأسفل أخيرا وأجد زوجي ينتظر المصعد وهو ينظر إلي باستغراب بعد أن شاهدني ألهث بقوة من هول الموقف ومن شدة التعب.. وبعد أن رأى العرق يتصبب مني وعلامات الذعر واضحة على ملامحي!!!.. نعم.. لقد سبقت المصعد في النزول بسبب حمض الأدرينالين الذي تفجر في عروقي وكون أن المصعد قديم نسبيا وبطيء كما تعلم!!!.. أما زوجي فظل ينظر إلي بقلق منتظرا مني توضيح سبب انفعالي الشديد هذا.. لكنني لم أجد الوقت لأخبره بشيء.. فقد وصل المصعد أخيرا.. وفتح لتخرج منه ابنتي وحدها!!!.. احتضنتها بحرارة.. ورحت أنظر إلى داخل المصعد لكن.. الطبيب لم يكن موجودا!!!.. يبدو أنه توقف عند أحد الأدوار وخرج منه.. لكنني لم أكترث لذلك.. بل أمسكت بيد زوجي وطفلتنا وأخذتهما معي صاعدين جميعا إلى الشقة

وزوجي لا يتوقف عن سؤالي بقلق شديد عما دهاني.. ثم.. ما إن دخلنا الشقة.. حتى أمسكت بابنتنا من كتفيها.. وسألتها بذعر عما حدث في المصعد.. فأجابت المسكينة دون فهم لتصرفاتي التي أخافتها دون شك.. وقالت إن ذلك الطبيب اللعين كان يمسح على شعرها ويقبلها.. ويلاعبها!!!.. و.. لك أن تستنتج ما حدث بعد ذلك.. فقد انفجر زوجي غاضبا وقد فهم كل شيء.. وراح يلومني على إهمالي لها.. ويقسم أنه سيقتل هذا المجرم.. فبكت ابنتنا من شدة الخوف وهي لا تفقه ما يدور حولها ولا تفهم سبب توترنا.. حتى أننا هدأنا مرغمين فقط لنشعرها بالاطمئنان.

كنت أتخيل ما قد يكون فعله ذلك الوغد مع الطفلة ويتقلص وجهي اشمئزازا.. فسألت (بشاير) بتحفز:

- هل شكوتم الأمر للشرطة؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- لقد اتصل زوجي بصديقه الضابط مباشرة.. لكن الأخير أخبره أن تقبيل طفلة ومداعبتها أمر مألوف ولا يعاقب عليه القانون.. فالطفلة لن تستطيع أن تنقل ما حدث لها بصورة جيدة.. لذا فالقانون لن يأخذ بكلامها.. كما أن الرجل لم يخلعها ثيابها مثلا أو يقبلها بطريقة شهوانية بشعة.. وحتى

لو فعل فلا يمكن أن تفهم الطفلة الطريقة الشهوانية في التقبيل.. ببساطة.. ما فعله جارنا الطبيب أمر طبيعي بنظر القانون!!!.. تبا لهذا القانون.. هذا ما دار في ذهني حينها.. حتى أن زوجي أغلق السماعة غاضبا وكاد أن يتوجه للطابق الأعلى لشقة الطبيب والتهجم عليه.. لكني رجوته وكدت أن أقبل قدميه ألا يفعل لأنه سيصبح في هذا الحالة المدان بنظر القانون!!!.. حتى أنه احتضنني كثيرا وأخبرني أنني فتاة عاقلة رغم صغر سني وأنه محظوظ لأنه تزوجني.. و.. ظننت أن القصة ستنتهي بالمزيد من الحذر ومراقبة طفلتنا إلى أن يحين موعد السفر.. أو أن تصل شقيقة ذلك الطبيب فربما تلهيه عن أطفالنا.. لكن.. تطورت أحداث القصة ووصلت إلى الذروة بعد تلك الحادثة ببضعة أيام فحسب وقبل مرور شهر على وجود ذلك الطبيب في العمارة.

نظرت إليها وإلى الورقة الخالية الموجودة أمامي والتي لم أسجل عليها ملاحظة واحدة حتى الآن.. فكل ما أخبرتني به هو وجود رجل يتحرش جنسيا بالطفلات الصغيرات.. ولا أعرف ما علاقة هذا بوجودها في مستشفى الطب النفسي.. هل تريدني أن أقوم بمعالجته مثلا؟!.. لا أعلم.. لذا قلت بحيرة واضحة:

- المعذرة.. لكن لا أفهم حتى الآن سبب زيارتك.. إن ما تخبريني به لا علاقة له بالطب النفسي نهائيا!!!.

نظرت إلي (بشاير).. وشعرت أنها ستبكي.. بالفعل.. العينان اغرورقتا بالدموع فجأة.. ثم راحت تسعل.. هل هذه الفتاة قادرة على البكاء بالفعل كباقي الفتيات؟!.. ظننتها فتاة خارقة!!.. المهم أنها أكملت:

- لأنني لم أصل بعد إلى أهم جزء في القصة يا دكتور.. كان لا بد من تلك المقدمة الطويلة حتى أخبرك عن سبب مجيئي.. فبعد تلك الحادثة ببضعة أيام.. كنت أجلس وحيدة في شقتي أشاهد التلفزيون والساعة لا تتجاوز الحادية عشرة صباحا.. منتظرة فترة الظهيرة للذهاب لجلب ابنتنا من مدرستها.. عندما هطلت أمطار خفيفة مفاجئة في ذلك الوقت من شهر مارس.. أنت تعلم بالطبع كم نفتقد الأمطار في بلدنا الحبيب.. وأنا أعشق الأمطار يا دكتور إلى درجة لا يمكن تخيلها.. لذا فقد واتتني فكرة استحسنتها ووجدتها جميلة بالفعل.. وهي الذهاب لسطح العمارة والاستمتاع بالمطر.. سيكون من الرائع أن ترى الأمطار تنزل من السماء وأنت في سطح عمارة مرتفعة بعيدة عن السيارات والشوارع وكل ما يسبب التلوث.. فارتديت ثيابا رياضية.. وأخذت المصعد متجهة إلى الطابق

الأخير حيث الباب الذي يؤدي إلى السطح.. ووجدته مفتوحا لحسن الحظ ولم يقفله البواب كما يحدث عادة.. لحظات قليلة قبل أن أجد نفسي على سطح العمارة.. كان نظيفا مرتبا للغاية لا يحوي أي أثاث خشبي قديم أو ثياب معلقة على الحبال كما نرى في الكثير من أسطح العمارات السكنية.. رحت بعدها أستمتع برذاذ الأمطار وهي تنزل على وجهي بنعومة شاعرة أنني أطير في الفضاء.. حتى أنني أغمضت عيني بضع دقائق مستمتعة بكل ثانية منها.. قبل أن أعود إلى عالم الواقع.. وأبدأ بالمشي لاستكشاف السطح.. ثم.. ثم.. تجمد جسدي بأكمله في مكانه وأنا أرى ذلك الطبيب يقف في زاوية من زوايا السطح وهو ينظر إلى الأسفل!!!.. نعم يا دكتور.. بل وانتبهت إلى أنه يقف على حافة حفرة عميقة تمتد من السطح وحتى الطابق الأول!!!.. حفرة تم صنعها بطريقة هندسية لتمديد أسلاك القرص اللاقط (الستلايت) إلى جميع شقق العمارة.. لا تنسَ أننا نتحدث عن عمارة قديمة نسبيا يتم فيها استخدام وسائل بدائية لتمديد الأسلاك قبل أن تتطور طريقة بناء العمارات وتصبح الأسلاك ممتدة عبر الجدران نفسها.. لقد.. لقد تم وضع سور مربع صغير حول الحفرة.. لكن.. ذلك الوغد كان يقف لسبب لا أفهمه على السور نفسه!!!.. هل يبحث عن طريقة للتجسس على أصحاب الشقق الأخرى؟!.. لا أعلم..

عقل مريض كهذا قد يفعل أي شيء!!!.

ارتج جسدي بقوة وأنا أقول:

- لا تخبريني أنك فعلت ما أظن أنك فعلتِه!!!.

شهقت وهي تمسح دموعها.. ثم قالت:

- نعم يا دكتور.. نعم.. نعم.. نعم.. تماما كما تظن.. عشرات الخواطر تدافعت في ذهني بلحظة واحدة وأنا أنظر إلى هذا المجرم الذي لم يلحظ وجودي بعد.. فالقانون يعجز عن الإمساك به.. لكن العدالة تختلف.. العدالة لا تحتاج إلى قاض ومحكمة.. بل تحتاج إلى من ينفذها!!.. وشعرت أن من واجبي تنفيذ العدالة التي عجز عنها القانون.. خاصة وأنني أرى أن هناك نوعين من الأشرار في العالم.. هؤلاء الذين يمارسون الشر.. والذين يرون أفعالا شريرة تحدث دون أن يفعلوا شيئا حيالها!!.. لذا لا بد أن أفعل شيئا.. خاصة حين تذكرت ما حدث لطفلتي معه في المصعد.. و..عندما لا يكون هناك مخرج من المشكلة.. يجب أن تجد طريقا أعمق للدخول والتغلغل فيها!!!.. هذا ما أردده بيني وبين نفسي دائما.. ثم.. وجدت نفسي أندفع بسرعة ناحية ذلك الوغد وأدفعه بكل قوتي!!!.

ساد الغرفة صمت طويل عميق تضاربت فيه مشاعري

وسط بكاء (بشاير) الذي استمر دون توقف.. لتكمل وهي تجهش بالبكاء بشكل مفاجيء:

- لقد تصرفت كقاتلة يا دكتور.. لم يكن هناك حل آخر!!!.. نعم.. فقد دفعت المجرم بكل قوتي.. وقبل أن يستوعب ما حدث.. وجد نفسه يقع في هوة عميقة متعثرا بالأسلاك ليصطدم بالأرض بقوة دون حتى أن يجد الوقت ليصرخ من هول المفاجأة!!!.. ليعم السكون المكان مرة أخرى سوى من صوت الأمطار التي نسيت كل ما يتعلق بشأنها.

نهضت من مكاني لا شعوريا وهو ما يحدث لي أحياناً حين أسمع ما يفاجئني.. لكني لم أقل حرفا واحدا.. بل أردفت (بشاير) بالمقابل:

- ومن شدة الرعب.. وجدت نفسي أهبط بسرعة البرق عبر الدرج متجهة إلى شقتي حيث وصلت إليها وأنا ألهث بقوة شاعرة بارتباك وتوتر شديدين لم أشعر بهما من قبل.. غير مصدقة أنني ارتكبت جريمة قتل بحق إنسان وإن كان مجرما. وقبل أن أجد الوقت لأسيطر على نفسي وأعود لطبيعتي.. سمعت الأصوات تتعالى خارج الشقة.. أسمع من يصرخ بأن أحدهم سقط في فتحة الأسلاك وارتطم بقوة في الأرض ومات مباشرة.. بكل تأكيد.. يسقط من سطح عمارة تحوي 14 دور

فلا بد أن يموت!!!.. لن أطيل عليك بما حدث بعد ذلك.. تجمهر سكان العمارة والمارة حول سيارة الإسعاف.. ووجود رجال الشرطة الذين يحاولون فض هذا التجمع.. حتى أنني نزلت من الشقة ووقفت مع السكان كي أعطي الجميع انطباعا أنني علمت بأمر الجريمة للتو ومارست فضولي البشري المعتاد.. لأن اختبائي قد يثير الشبهات.. وقد ينتبه رجال الشرطة أثناء التحقيقات في ملابسات ما حدث أنني كنت في شقتي ولم يأخذني الفضول لاستطلاع ما يجري وهو أمر يناقض الطبيعة البشرية كما تعلم.. لذا وقفت بين أهل العمارة وبعض المارة في الخارج ونحن نرى الجثة مغطاة بالكامل على نقالة يتجه بها رجال الإسعاف إلى سيارتهم.. وهو أمر نراه في كل فيلم بوليسي تقريبا.. فوجدت نفسي لا شعوريا أبكي من هول الموقف.. ولا أنكر أن التوتر قد سيطر تماما على وجوه الجميع من سكان العمارة.. لكن رغم كل شيء.. سمعت أحدهم يتحدث عن عدالة السماء التي خلصتنا من ذلك المجرم.. وأنه -ربما- اختل توازنه ووقع بالخطأ في تلك الحفرة.. وسمعت آخر يتحدث عن حادثة انتحار.. وقد أراحتني تلك الأقاويل كثيرا.. فهذا يعني أن أحدا لم يرني وأنا أدفع الطبيب ليقع في الحفرة ثم أهرب إلى شقتي.. وهذا يعني أيضا أننا تخلصنا من المجرم مغتصب الأطفال إلى الأبد!!!.

سكتت طويلا بعد أن ظننت أنها أنهت قصتها.. فسألتها بهدوء وقد فهمت ما تريده:

- رغم أنك قتلت المجرم إلا أنك تشعرين بتأنيب الضمير.. وتريدين مني مساعدتك على نسيان تلك الحادثة.. أليس كذلك؟!.. فالقتل ليس بالأمر السهل دون شك.. خاصة وأنك من عائلة متزنة لم تمر بظروف قد تصنع من أحد أفرادها قاتلا كما يبدو.. أستطيع أن أقيم جلسات علاج نفسي لك تساعدك على نسيان ما حدث.. ثم إن سفرك مع زوجك وتغييرك لمكان سكنك سيكون له تأثيرا إيجابيا كذلك.

نظرت إلي باستنكار شديد وكأنني قلت شيئا بمنتهى الغباء!!.. ثم:

- القصة لم تنته بعد.. أنت متسرع جدا يا دكتور وهذا يخالف طبيعة مهنتك!!!.. كنت أقول إننا مررنا بتحقيقات عديدة في اليوم نفسه مع رجال الشرطة.. حتى أنهم أخذوا أرقام هواتفنا للمزيد من التحقيقات خلال الأيام القادمة.. ولا أنسى أن أخبرك أن زوجي قد ذهل حين علم بالأمر دون أن أعرف شعوره حتى الآن حيال ما حدث.. فهل كان سعيدا لأننا تخلصنا من القاتل.. أم لا؟؟!.. وأنا لم أخبره بالطبع بأنني من قتل الطبيب.. لم أجرؤ على إخباره.. المهم أن صديق زوجي

الضابط قد زارنا يومها ليشد من أزرنا.. فمن الجميل أن تجد وجها مألوفا بين رجال الشرطة يقف بجانبك في يوم كهذا.. حتى أننا استضفناه في شقتنا بعض الوقت.

سكتت قليلا والترقب بلغ مبلغه.. قبل أن تقول:

- تحدثنا مع الضابط حول أمور عادية أخرى لكن عقلي كان في مكان آخر تماما بعد ما فعلته.. وبذلت حينها جهدا جبارا كي أبدو طبيعية.. خاصة وأن كل شيء كان يشير إلى مجرد حادثة سقوط عادية وأن القضية ستغلق إلى الأبد.. لكن.. فجر الضابط فجأة قنبلة حقيقية وهو ينهض استعدادا للخروج وإنهاء زيارته!!!.. قنبلة لم أفهمها في البداية.. إذ التفت إلينا قبل خروجه ليسألنا فجأة: ((بالمناسبة.. كيف حال ذلك الطبيب المتهم بقضايا التحرش الجنسي بالأطفال؟!!.. هل ضايقكم؟!!)).. لم أفهم سؤاله حينها.. لذا فقد نظرت إليه بعدم فهم.. ماذا يقول هذا الأحمق؟!!.. ألم يمت الطبيب للتو؟!.. حتى أن زوجي وجه السؤال ذاته للضابط وباستغراب شديد!!!.. فنظر إلينا الضابط بدوره بعدم فهم!!!.. ثم فهم أخيرا.. وليته لم يفهم.. إذ ابتسم بحرج: ((آآآه المعذرة.. لقد أخطأت في رقم الشقة التي سيسكنها ذلك الطبيب.. فهي ليست الشقة رقم (12).. بل الشقة المقابلة لها!!.. الشقة رقم (11)!!!!)).

نظرت إليها بعدم فهم.. فأكملت هي بصوت مرتجف:

- هل تفهم ما يعنيه هذا يا دكتور؟!.. الشخص الذي قتلته لم يكن هو الطبيب المجرم مغتصب الأطفال!!!!!.. بل ساكن جديد انتقل إلى الشقة رقم (12) منذ شهر وهو ينتظر إنهاء إجراءات زوجته لقدومها إلى (الكويت).. بينما الطبيب -المجرم الحقيقي- الذي حذرنا منه الضابط يقيم في الشقة رقم (11) وهو لم يخرج منها منذ انتقاله إليها ولم يره أحد.. ربما لشعوره بالعار ورغبته بالانزواء عن سكان العمارة!!!.. أو ربما لأنه لا يخرج إلا في أوقات متأخرة بعيدا عن أعين الجميع.. نعم يا دكتور.. لقد التبس علينا الأمر فقتلت رجلا بريئا بسبب خطأ بسيط وقع فيه الضابط صديق زوجي حين أخبرنا برقم الشقة الخطأ!!!.. هل فهمتني؟!!.. الطبيب يسكن في الشقة رقم (11).. أما الشقة رقم (12) فقد كان يسكنها محامٍ جاء من بلده للتو.. لقد حصل المسكين على عقد عمل في إحدى شركات القطاع الخاص.. وكان ينتظر أن يباشر عمله في تلك الشركة على أن تأتي زوجته لتقيم معه حال استقراره في (الكويت).. لذا كان يتسكع طوال الوقت في العمارة كونه لا يمتلك سيارة حتى الآن ويحاول قتل وقت فراغه إلى أن يحين وقت العمل.. ولم يحاول أحد من سكان العمارة حتى الاقتراب منه والتعرف عليه.. كنا جميعا نتحاشاه كالوباء.. ويبدو أنه

فهم تصرفنا هذا كونه الأعزب الوحيد في المجمع وإن كانت عزوبيته مؤقتة.. المسكين كان يلاعب الأطفال ليكسب ود سكان العمارة.. لكننا فهمنا تصرفه بطريقة خاطئة.. خاصة مع المعلومة الصغيرة الخاطئة التي منحنا إياها صديق زوجي الضابط والتي نشرناها لجميع سكان العمارة!!!.. لقد قتلت الرجل الخطأ وأزهقت روح إنسان بريء بسبب خطأ صغير وتافه من ذلك الضابط صديق زوجي!!!.

كان هذا آخر ما أتوقع سماعه.. حتى أنني وضعت يدي على فمي لا شعوريا كالنساء أثناء حديثها وشعرت ببرد شديد مفاجئ في الغرفة.. هل هو البرد أم التوتر؟!.. لا أعرف.. المهم أنني لم أتفوه بحرف.. بل استسلم جسدي تماما أمام هذه المفاجأة الرهيبة.. ارتجاف.. توتر.. ضربات قلب تدق بعنف وقوة.. قبل أن تكمل (بشاير):

- دكتور.. طوال عمري وأنا لا أفهم ما يحدث في الأفلام حين يمر أحدهم بمصيبة فتجده يهرع مسرعا مشمئزا إلى الحمام ليتقيأ.. فما علاقة التقيؤ بسماع خبر مزعج أو التعرض لصدمة ما؟!!.. لكني الآن فهمت.. إذ شعرت حينها فجأة بتقلص أمعائي بصورة غريبة للغاية.. فهرعت للحمام دون أن أكترث إن كان هذا سيثير اهتمام زوجي وصديقه الضابط

الغبي الذي تسبب بتلك المصيبة بخطأ بسيط.. وأفرغت في المرحاض كل ما بجوفي!!!.. إنني.. إنني أعيش كوابيس لا تنتهي يا دكتور.. ولم أجرؤ على البوح بهذا السر لأحد سوى الآن.. حتى زوجي لا يعلم شيئا عن الأمر ولم أخبره أبدا بما اقترفته يداي!!!.. ففكرة ارتكابي لجريمة قتل بحق إنسان بريء تقتلني قتلا!!!.. إن حياتي لم تعد أبدا كما كانت.. لا يمكن أن تفهم شعوري إلا حين تقتل رجلا بريئا.. لقد أصبت بحالة اكتئاب نفسي حاد فسرها زوجي على أنها مرتبطة بحادثة موت ذلك المسكين وما سببته من أجواء متوترة في العمارة لم أعتد عليها.. إن الذنب يقتلني قتلا.. أريد أن أدفع ثمن قتلي لهذا الرجل البريء.. خاصة وأنني علمت فيما بعد أنه تزوج منذ فترة بسيطة.

سألتها بصوت مرتفع دون قصد:

- ماذا عن المجرم الحقيقي؟!.. أعني الطبيب؟!.. هل حدث أي احتكاك معه؟!.

قالت وهي تضرب قبضتها بالمنضدة بلوعة:

- الحقير.. كما قلت لك.. إنه لم يخرج من شقته أبدا ولم يحتك بنا إطلاقا.. بل إن أحدا من جيراننا لم يره حتى يومنا هذا رغم أنه مقيم في تلك الشقة منذ أكثر من شهر.. يقول صديق

زوجي الضابط أن شقيقة ذلك الطبيب اللعين قد استكملت أوراقها وستصل (الكويت) بعد بضعة أيام لتقيم مع شقيقها.. وربما بوجودها سيبتعد عن المشاكل.. لا أعلم.. لكني أتألم في كل لحظة أتذكر فيها أنه يقطن الشقة (11) وليس (12).

لم أقل شيئا.. بل كنت أنظر إليها صامتا مصدوما.. جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد ارتكبتها تلك الفتاة لتحمي طفلتها وأطفال تلك العمارة.. ثم يتضح أنها قتلت الرجل الخطأ.. فقط لأن الضابط أعطاها رقم الشقة الخطأ!!!..

لحسن الحظ أنها ستنتقل لتعيش في بلد آخر قريبا.. فهذه خطوة مهمة للغاية في علاجها.. ربما مع جلسات من التأهيل النفسي أيضا قبل سفرها حتى تتعايش مع نفسها ومع ما ارتكبته من جرم!!!.. أعتقد أنها ستكون بخير.. آمل ذلك.

إن (بشاير) ليست فتاة شريرة من وجهة نظري.. بل هي فتاة طيبة للغاية مرت بظروف سيئة.. ومهمتي أن أقف معها في أزمتها النفسية.. فكان أول ما أخبرتها به هو أن ما قالته سراً ليس من حقي البوح به أبدا.. فهزت رأسها كناية عن علمها المسبق بذلك.. بالطبع يا أحمق هي تعلم.. وإلا لم تكن لتزورك وتخبرك بأمر ارتكابها لجريمة قتل!!!.

كتبت لها على ورقة موعد الزيارة القادمة لنبدأ أولى جلسات العلاج.. ووعدتها أن حالتها النفسية ستتحسن كثيرا.. كما طلبت منها أن تصادق زوجة القتيل وتساعدها إن كانت تعاني من أي مشاكل مادية أو غيرها.. فهذا سيقتل بعض الشعور بالذنب.. أعتقد أنها ستكون قادرة على تجاوز تلك الأزمة النفسية إن اتبعت طريقة علاجي.. تلك الأزمة التي بدأت بسبب خطأ بسيط.. وكانت صدفة محزنة أن يكون ضحية هذا الخطأ رجل بريء تنطبق عليه نفس مواصفات المجرم الحقيقي.. الذي يعيش في الشقة رقم (11)!!!.

قضية معقدة!!

تحكيها: جود

عزيزي القارئ.. أعتقد أن أفضل ما أبدأ به هذه القصة هو الاعتراف.. نعم.. الاعتراف بأنني قد وصلت إلى مرحلة مخيفة من الوحدة وكراهية المجتمع.. بل وتوصلت إلى قناعة أن الإنسان قد يكون كائنا أفضل وأنقى بكثير عندما يصبح وحيدا.. أما وجوده في جماعات فسيحوله إلى كاذب منافق!!!.. وهذا ما جعلني أشعر أنني تلوثت بسموم المجتمع ويجب أن أنّقي نفسي من هذا التلوث!!!.. تماما كما يحدث عندما تلدغك أفعى سامة.. ماذا ستفعل حينها؟!!.. لا شك أنك ستمص السم من جسدك وتبصقه بعيدا.. حسنا.. لقد عضتني الحياة ويجب أن أمص جميع السموم التي أدخلتها إلى جسدي وأبصقها.. سأفعل هذا من خلال الوحدة التي أرغب بها بشدة.. ربما سأكون سعيدا حينها.. فالسعادة هي منهاج حياة وليست مجرد مزاج!!!.. وأعتقد أن أفضل منهاج حياة بالنسبة لي هو أن أكون أكثر الناس عزلة عن المجتمع.

ما ذكرته لكم قد يكون مجرد مقدمة وتبرير للخطوة الغريبة التي أقدمت عليها مؤخرا.. والتي فاجأت والدتي وأشقائي.. وأغضبتهم أيضا!!!.. كان هذا حين قررت أن أخرج من بيت العائلة وأستأجر شقة لأنعزل فيها عن الجميع.. حيث سأمارس فيها فنون الاسترخاء التي أعرفها.. وأقرأ ما أريد من كتب وأشاهد من الأفلام الوثائقية والعلمية ما يملأ كل ثغرات

علم النفس في عقلي.. وأن أبتعد تماما عن زحمة الحياة.. أريد أن أعيش سمو الوحدة التي تجعلني أفكر في أسرار الكون.. وفي هذا الكائن الغريب.. الإنسان!!!.

لا أستطيع أن أفعل كل هذا في بيت العائلة.. فمهما انعزلت في غرفتي.. سأظل أسمع أصوات أشقائي وزوجاتهم وأطفالهم.. وشقيقاتي اللاتي يزرن والدتي باستمرار.. ووالدتي التي تصر رغم كبر سنها على الإشراف على كل صغيرة وكبيرة في البيت.. فتطلب دوما من الخادمة أن تفعل كذا وكذا وتطبخ كذا وكذا!!!.

إنني أنتمي إلى أسرة كبيرة كما ترون.. ومن الصعب أن أنفرد بحياتي دون تدخل من أحد.. دعكم من أنني أضطر أحيانا كثيرة إلى المجاملة واستقبال من يزورنا من الأهل والأصدقاء!!!.. وهذه أمور لا أقبلها ولا أريدها.. فعملي كطبيب نفسي يتطلب أن أنسحب شيئا فشيئا من عالمنا الظاهري إلى عالم الإنسان الحقيقي!!!.. وهذا يتطلب الكثير من الوحدة.. الكثير من التأمل.. الكثير من القراءة!!!.

كانت الشقة التي وقع اختياري عليها في منطقة (الشامية).. في أحد تلك البيوت التي قام أصحابها بتحويلها إلى مجموعة من الشقق ومن ثم تأجيرها للناس.. وقد اخترت

منطقة (الشامية) تحديدا كونها أقرب مسافة لمستشفى الطب النفسي من بيت العائلة الكائن في منطقة (العدان).. وكونها منطقة سكنية هادئة وراقية للغاية كما نعرف جميعا.. لكن.. لم تكن مسألة انتقالي هينة بالطبع.. ففي البداية بدت عملية إقناع صاحب البيت مستحيلة كوني شابا أعزب والقانون في (الكويت) لا يسمح بتأجير الشقق للعزاب كما تعلمون مهما كان مؤهلهم العلمي.

لكني لم أيأس أبدا من محاولة إقناعه.. فقد كنت أريد تلك الشقة وأرغب بها بشدة كونها تمثل لي البيئة المثالية للسكن والانفراد في حياتي الخاصة.. لذا فالإلحاح الشديد قد أتى بثماره.. واستطعت أخيرا أن أقنع الرجل بعد أن علم أنني طبيب نفسي وباحث حقيقي لا أسعى وراء ملذات الحياة.. وبعد أن وعدته بدفع إيجار الشقة لمدة 6 شهور مقدما مع السماح له بطردي متى ماشاء لو رأى أنني أسيء إلى بيته بأي شكل من الأشكال!!!.

أعلم أنها مخاطرة حقيقية.. فقد يكون الرجل نذلا ويطردني قبل انقضاء تلك المدة وسيكون القانون بصفه كوني أعزب لا يحق لي أصلا استئجار شقة في بيت أحد.. لكني سلمته المبلغ عن طيب خاطر.. فقط لأكسب ثقته.. ويبدو

أنني نجحت في ذلك.. و.. لم تكن هذه المشكلة الوحيدة بالطبع.. إذ بقيت هناك المشكلة الأكبر والأهم!!!!.

- هذا لا يجوز يا بني.. ماذا سيقول عنا الناس وأنت تترك بيت العائلة وتترك والدتك لتقيم وحيدا في شقة!!!!.

تقول والدتي هذا الكلام وهي على وشك البكاء.. وينظر إلي شقيقي الأكبر بحنق مؤيدا كلامها بالطبع.. فأذهب لأقبل رأسها بحرارة وأنا أقول:

- أعدك يا أمي أنني سأكون على بعد ربع ساعة تقريبا منك فحسب.. وسأكون موجودا دوما في زيارات العائلة الأسبوعية.. وخلال الأسبوع أيضا سأزوركم مرة أو مرتين.. لكني أحتاج أن أكون وحيدا.. صدقيني.. أحتاج أن أقرأ وأفهم الـ....

فأخرس فجأة حين أتذكر مستوى والدتي التعليمي الذي لا يسمح بأي نقاش عقلاني معها.. ثم أقبل رأسها مرة أخرى وأتجه لحزم أغراضي وأنا أذكرّها أنني لن أعيش في أوروبا.. بل في (الكويت) وبمسافة قريبة نسبيا منها.. فيتبعني شقيقي الأكبر إلى السيارة وهو يقول بإصرار:

- تذكر أن ما تفعله سيسبب إحراجا للعائلة بأكملها.. ماذا

سنقول للناس؟؟!!.. تركنا شقيقنا الأعزب ليعيش وحيدا؟!!.. أنا أثق بك وبنبل أخلاقك بالطبع.. لكن الناس لا تعرفك.. كل ما سيخطر في أذهانهم هو أنك شخص أعزب تركت بيت العائلة لتعيش وحيدا في شقة كي تشرب الخمر وتمارس الموبقات!!!.

ماذا سأقول له؟!!.. هذا تحديدا ما يجعلني أرغب أن أعيش وحيدا.. كلام الناس.. والناس ستقول كذا وكذا.. لا أريد هذه الحياة.. أريد أن أكون طائرا حرا.. أريد أن أكون وحيدا كالسلاحف!!!.

لكني رغم كل شيء.. غمغمت قائلا:

- الناس تتحدث دوما يا أخي العزيز.. لا يمكن إسكاتهم مهما فعلنا!!!.

ليقول بشيء من الحدة:

- أنا شقيقك الأكبر.. وأفهم الحياة أكثر منك.. لا نستطيع أن نعزل أنفسنا عن أقاويل الناس أو نتصنع عدم الاهتمام بها!!!.

فأرد عليه بذات الهدوء:

- كونك أكبر سنا يا شقيقي العزيز لا يعني أنك دوما

على حق.. بل قد يعني أيضا أنك كنت مخطئا لفترة طويلة.. ثم إنني تعبت من إزعاج الناس وزحمة الحياة التي تحيط بي من كل جانب وأريد أن أختلي بنفسي.. إنني أشعر بالأسف لأسلوب حياتي المزدحمة وأريد أن أعيش بصورة أفضل!!!.

فيرد بدوره بعصبية:

- أي حياة تشعر بالأسف نحوها؟!.. إنك تعيش في مجرة بعيدة عن العالم كي لا يلمسك أحد!!.

أدركت حينها أن إقناعه بمشاعري أمرا مستحيلا.. لذا هززت كتفي أن لا شيء لدي لأقوله لكنني سأفعل ما أريده.. فينظر إلي بأسف يائسا من محاولات إقناعي.. قبل أن أودعه دون أن أنظر إليه محاولا أن أذكره مرة أخرى وأخرى أنني سأكون عندهم بعد يومين فحسب في عطلة نهاية الأسبوع حين تجتمع العائلة لتناول الغداء كعادة معظم أهل (الكويت).

كانت هذه البداية.. بداية حياتي الجديدة.. وبداية أحداث هذه القصة التي أعتبرها واحدة من أغرب وأقسى التجارب التي مررت بها.. حتى لتجدني أتساءل بقلق للمرة الألف.. ما هو التالي؟!!.. ما الذي سأراه أكثر مما رأيت؟!!.. هل هناك سقف للمفاجآت في هذا العالم؟!!.. وهل الطب النفسي أصبح بمثابة اللعنة التي تأتي إلي بكل ما هو غريب؟!!.. لا

أعرف.. أحيانا أجد أن حياتي ممتعة فعلا ومليئة بالمغامرات.. لكن.. أحيانا أخرى أرى تلك المغامرات مخيفة للغاية تشعرني بعدم الأمان.. حتى تجدني أتمنى بشدة ألا أكون قد مررت بها وأن أعيش بنعمة الجهل كمعظم الناس.. فالمعرفة عبء ثقيل.. ثقيل جدا.. أشعر أحيانا أنني غير قادر على حمله!!!.

حسنا.. كنت أقول إنني انتقلت إلى سكني الجديد متأملا أن أعيش حياة جديدة بعيدة تماما عن المسؤوليات الاجتماعية.. حتى أنني قمت بتأثيث الشقة بأثاث فاخر للغاية وأوليت اهتماما كبيرا لغرفة المكتب كونها الغرفة التي سأقضي فيها معظم أوقاتي.. و.. بعد بضعة أيام.. كنت أقف وسط الشقة بعد تجهيزها بالكامل.. أنظر إلى كل أركانها بفخر وفرح كونها أصبحت تمثل بيت الأحلام بالنسبة لي.. إنني أحتاج تلك الأجواء وهذا الهدوء كثيرا.

كانت الأيام الأولى في شقتي جميلة ممتعة أشعرتني بسلام تام مع نفسي.. تماما كما كنت أتمنى.. ولم يحدث شيء يستحق الذكر سوى أن الهدوء قد زاد طغيانا في حياتي.. فأصبحت قليل الحديث.. أضع السماعات الصغيرة في أذني أغلب الأحيان وأستمع لروائع (عبدالحليم) و(أم كلثوم).. ولا أنزعها إلا حين يزورني المرضى النفسيون وأثناء جولتي المعتادة

في المستشفى على النزلاء أو حين أشاهد بعض الأفلام الوثائقية التي أطلبها خصيصا لتطوير أدائي كطبيب.

مهلا.. أكاد أسمع بعضكم يلومني على تركي لوالدتي!!!.. أرجوكم تذكروا أنني لم أتركها وحيدة.. بل هي في بيت العائلة.. وهناك أشقائي وشقيقاتي الذين يهتمون بها ويزورونها باستمرار.. ولا ننسَ شقيقي الأكبر وشقيقي الثاني اللذين يعيشان معها في نفس البيت مع أسرتيهما.. صدقوني لم أترك بيت العائلة إلا بعد أن تأكدت أن والدتي بمأمن.. كما أنني سأكون موجودا دوما.. فلن أتأخر لمساعدتها لو احتاجت أي شيء.. و.. أرجوكم دعونا ندخل أجواء القصة بعيدا عن تساؤلات لا هدف منها سوى إساءة الظن بي!!!.. لكن لابد أن تعلموا أولا أنها القصة الوحيدة التي تجري تفاصيلها بالكامل خارج أسوار المستشفى في هذا الجزء من مذكراتي.. علما أن هناك قصة أخرى في الجزء الأول وقد جرت أحداثها خارج المستشفى أيضا*.

---

* راجع الجزء الأول من (حالات نادرة) قصة (جريمة لم تحدث!!).. إلا أنها غير مرتبطة إطلاقا بكتابنا هذا.

ماذا كنت أقول؟!!.. نعم.. بدأت أحداث القصة بعد حوالي شهرين من انتقالي لشقتي الجديدة.. حين كانت الساعة تقارب التاسعة مساء.. أتذكر أنني وضعت الكتاب الذي كنت أقرأه في مكانه المخصص في مكتبتي الصغيرة.. ثم اتجهت لارتداء ثيابي بعد أن شعرت بالجوع وقررت الخروج متجها لجمعية (الشامية) حيث الخيارات المتعددة لأفضل المطاعم الشهيرة هناك.. فاشتريت ما أريده من المطعم كي أتناول العشاء في شقتي أمام شاشة التلفزيون.

رحت بعدها أقود سيارتي بهدوء هانئا بحياتي الجديدة ورائحة الطعام الشهي تفوح من الكيس وتملأ أنفي.. وعقلي مشغول تماما -رغم ذلك- بالذكريات التي عشتها والتي سردت لكم بعضا منها في مذكراتي.. كان هذا قبل أن أتصرف بحماقة نفعلها جميعا طوال الوقت ظنا منا أننا مختلفون عن الآخرين وأن شيئا لن يحدث لنا.. نعم.. فقد رحت أعبث بهاتفي أثناء قيادتي للسيارة ودخولي الحي السكني حيث شقتي.. و.. طرااااااخ!!!!.

قفز قلبي من مكانه ونظرت أمامي بذعر لأرى أنني قد اصطدمت بسيارة فخمة للغاية توحي بثراء صاحبها دون شك!!!.. لم أجد الوقت لأفكر أو أتخذ أي رد فعل.. إذ خرج من

السيارة التي صدمتها رجل عجوز يرتدي الزي الوطني.. وبدا أنه في منتصف الخمسينيات من العمر.. كان الشرر يتطاير من عينيه كونه يعلم أنني لم أصب سيارته بهذه الطريقة الغريبة وفي حي سكني إلا بسبب إهمالي وعدم توجيه نظري إلى الطريق!!!.

وقبل أن أستوعب ما حدث.. وجدت الرجل واقفا بالقرب من باب سيارتي بنفاد صبر وهو ينوي شرا كما يبدو!!!.. لكني رغم كل شيء.. نزلت من السيارة مبتسما بحرج محاولا أن أمتص غضبه.. المشكلة أنه لم يمنحني أي فرصة للحديث أو الاعتذار!!!.. فقد أمسكني من ياقة ثيابي بتلك الطريقة المهينة التي تبدأ بها معظم الشجارات.. وراح يلعن الشباب الفاسد الذي لا هم له سوى الاستهتار ومضايقة خلق الله.. حتى أنني شعرت بإهانة بالغة دون أن أعرف كيف أسترد كرامتي.. فمن العسير أن أمسكه بنفس الطريقة المهينة.. والأسباب كثيرة.. أولها أن الرجل بعمر والدي تقريبا.. كما أنني بصراحة لست معتادا على خوض الشجارات الصبيانية هذه.. لذا فقد شعرت بتوتر عميق في أعماقي جعلني عاجزا تماما عن الرد على شتائم الرجل المهينة التي لا تدل أبدا على أنه ينتمي للطبقة الراقية من المجتمع كما توحي سيارته.. لكن.. حدث شيء غريب مفاجئ لم يكن في الحسبان أنساني العالم بأكمله!!!.. فقد سمعت فجأة أصوات الملائكة تتدخل بيننا لتنهي هذا

المأزق!!!.. يد رقيقة امتدت لتمسك بذراع الرجل.. وصوت ناعم هامس يطلب منه برجاء أن يتركني لحالي.. فالأمر لا يستحق الغضب والتهجم على الناس بهذه الصورة!!!.

التفت بدهشة لأرى صاحبة هذا الصوت الملائكي.. مهلا.. كل شيء يهتز من حولي .. هل هذا زلزال؟!!.. أم أن ما أراه أمامي قد زلزل حياتي فحسب؟!!.. لا أعلم.. لكني أستطيع أن أقول بكل ثقة إن قلبي قد نفض الغبار عن نفسه وخفق أخيرا وأنا أرى هذا الملاك.. هل يعقل أن تكون هناك فتاة بهذا الجمال؟!!.. هل يعقل أن تكون هناك فتاة بهذه الرقة؟!!.. هذه الفتاة تجعلك مبتسما حتى لو كنت في طريقك إلى الجحيم!!!.

كانت ترتدي اللباس الأمريكي التقليدي (الجينز) مع جاكيت ثقيل نسبيا في تلك الفترة من شهر ديسمبر وقد انسدل شعرها الكستنائي على كتفيها حتى بدت للحظة وكأنها نجمة سينمائية خرجت للاستجمام في إحدى إجازاتها!!!.. بل إن ملامحها تشبه بالفعل ممثلة عالمية نسيت اسمها لكن قلبي ينتفض كلما أشاهدها في التلفزيون؟!!.

هذه الفتاة.. أنا مستعد أن أتبعها لآخر العالم.. هكذا قلت لنفسي وأنا أنظر إليها مفتونا مسحورا.. قبل أن تلين يد الرجل فجأة متأثرا بكلام ابنته على ما يبدو.. ثم تركني وهو

يلتفت إليها بحرج وكأنه شعر بسخف الموقف بأكمله وأن الأمر لا يستحق بالفعل.

شعرت بدوري بحرج شديد وأنا أتعرض لإهانة كهذه أمام هذا الملاك.. لكن عزائي أن الرجل بعمر والدي كما علمتم ولا يمكن أن أتهجم عليه بطبيعة الحال.. لحسن الحظ أنه لم يكن شقيقها مثلا وإلا لكان لزاما علي أن أنتصر لكرامتي وأن أخوض شجارا أعلم جيدا أنني سأكون الخاسر فيه.

تنحنحت وقدمت اعتذارا سريعا للرجل.. ثم توجهت مسرعا ناحية مقدمة سيارتي.. هناك إصابة بسيطة قد تحتاج إلى بعض التصليحات.. سيارة الرجل كذلك تحتاج بعض التصليحات.. لكن الأضرار بشكل عام سطحية لحسن الحظ.. المهم أنني تنفست الصعداء واعتذرت للرجل مرة أخرى وأنا أتمنى أن أجد الفرصة لأحدق بابنته كما أريد لأرتوي من عسل جمالها.. لكن عيناه كانتا تنظران إلي كالصقر وكأنه يعرف ما أنوي فعله.. ثم.. تذكرت.. ربما لو عرف مهنتي فقد يثير هذا إعجابه وإعجاب ابنته.. وربما سيسبب له ذلك المزيد من الحرج.. فسيعرف أنني لست من الشباب التافه الذي لا هم له سوى إزعاج الناس كما قال عني!!!.

أخرجت بطاقتي الشخصية من محفظتي وقدمتها له

مع وعد بإصلاح سيارته في أي وقت ومكان يريده.. نظر إلى البطاقة.. و.. لم يهمه اسم عائلتي بقدر لقب (الدكتور) الذي يسبق اسمي.. نعم.. يبدو أن خطتي البسيطة قد نجحت كما يحدث دوما.. هذا واضح.. إذ تنحنح الرجل بحرج وهو يقول:

- احم.. احم.. المعذرة يا دكتور.. لقد أثار الحادث أعصابي قليلا.. إذ كنت واثقا أن الذي اصطدم بي إما أن يكون تحت تأثير الكحول.. أو منشغلا بهاتفه النقال!!!.

أومأت رأسي بحرج موافقا على كلامه ومؤيدا أنني بالفعل كنت أعبث بهاتفي.. ثم.. نظر إلى ابنته.. ونظر إلي.. قبل أن يبتسم ويهم مغادرا وهو يخبرني بكلمات سريعة أنه سيقوم بإصلاح سيارته بنفسه وأن الحادث بسيط لا يستحق تدخل الشرطة.. قال هذا وهو يركب السيارة مع ابنته.. ليبتعدا أقل من مائة متر قبل أن تتوقف سيارتهما مرة أخرى بالقرب من بيت فخم للغاية يقع في آخر الحي السكني.. بالطبع.. فقد اصطدمت به في شارع داخلي وفي حي سكني.. ليس غريبا أن يكون بيته قريباً من شقتي.

المهم أنني ركبت سيارتي بدوري غير مكترث كثيرا بالحادث الذي بدا أنه بسيط لا يستحق عناء الإصلاح المستعجل.. ثم قدت سيارتي بدوري أمتارا قليلة لأركنها عند مدخل

شقتي وأنا أتساءل.. هل للجمال حدود؟!!.. لا أعلم.. فكلما ترى فتاة جميلة وتظن أنها أجمل ما وقعت عليه عيناك.. تكتشف بعدها أنك كنت حمارا وأن هناك من هن أجمل منها بكثير.. لكني أعتقد أن هذه الفتاة كانت السقف الأعلى للجمال بالفعل.. هل هذا يعني أنني سأكون حمارا أيضا هذه المرة؟!!.. لا أعلم.

مر بعدها اليوم هادئا للغاية وقد نسيت كل ما يتعلق بالحادث.. قبل أن أتوجه للمستشفى في نوبتي المسائية التي تبدأ في الثامنة مساء آملا ألا تمر علي واحدة من تلك القصص التي ملأت حياتي بالكوابيس مؤخرا والتي سردت لكم بعضها.. لكن -لحسن الحظ- كان اليوم هادئا بالفعل لم يزرني فيه أحد تقريبا.. حيث جلست معظم الوقت أشاهد أحد الأفلام الوثائقية عن علم النفس في موقع (youtube) الشهير قبل أن يرن هاتفي النقال فجأة.. نظرت إلى كاشف الرقم.. إنه رقم غريب غير مسجل في هاتفي.. و:

- ألو..

صوت رقيق يقول بشيء من الحرج:

- الدكتور (.....)؟!!.

أجبت بالإيجاب بحذر.. لتقول الفتاة أخيرا:

- لقد اصطدمت اليوم بسيارة والدي.. أنا ابنته.. هل تذكرني؟!!.

وكيف أنسى أجمل من رأيت.. كيف أنسى هذه الرقة والصوت الملائكي؟!!.. تحفزت كل حواسي.. وتنحنحت وأنا أقول بفرح شديد حاولت أن أخفيه:

- بكل تأكيد أتذكرك.. هل كل شيء على ما يرام؟!!.

قالت متلعثمة:

- نعم.. نعم.. أنت أعطيت بطاقتك الشخصية لوالدي.. هل تذكر؟!!.. لقد أخذت منه البطاقة دون علمه واتصلت بك دون علمه أيضا.. أعتذر بشدة إن كان اتصالي المفاجئ قد ضايقك.. دكتور.. أريد أن أتحدث معك بأمر هام للغاية.. فالواقع أنني فكرت أكثر من مرة بزيارة طبيب نفسي.. إلا أنني كنت أتراجع دوما في اللحظة الأخيرة خجلا من أن أكشف أسرار حياتي أمام شخص غريب وإن كان طبيبا نفسيا.. لكني لن أطيق الانتظار أكثر أمام كل هذا الغموض المحيط بحياتي.. خاصة حين شعرت أن الأقدار قد ساقتني إليك وها أنا أستغل الفرصة وأتصل بك!!!.

قلت مبتسما ببلاهة:

- أنا مستعد لأي خدمة يا....

ردت بسرعة:

- اسمي (جود)!!!.

لم أكن أنوي أن أناديها باسمها.. كنت أنوي أن أقول مفتونا:

- أنا مستعد لأي خدمة يا أميرتي.

لحسن الحظ أنها قاطعتني وأخبرتني باسمها قبل أن أقع في تلك الزلة!!!.. هذا غريب.. فمهما بلغ الرجل من نضج وعلم ومنصب.. تجده يتحول فجأة إلى طفل صغير عندما يكون بالقرب من فتاة جميلة.. المهم أنني طردت تلك الخواطر من ذهني حين سمعتها تقول بجدية:

- دكتور.. لا أعرف كيف أشرح لك مشكلتي.. فلا توجد نقطة محددة أستطيع البدء منها.. كل ما أستطيع قوله هو أن هناك أسراراً كثيرة في حياتي!!!.. أشعر.. أشعر أن هناك مؤامرة تحاك حولي من قبل والدَيّ!!!.. لا.. ليست مؤامرة.. بل سر.. سر يخفيانه عني!!!.

قلت وقد ظننت للوهلة الأولى أنني أمام حالة بارانويا متقدمة للغاية:

- حسنا.. لماذا لا تزوريني في المستشفى وتشرحي لي مشكلتك؟!!.

ردت بحزم واضح:

- مستحيل.. أريد أن يكون الأمر سرا.. أرجوك لا تضيع وقتك وتحاول إقناعي بذلك.

قلت عبارتي الخالدة التي صدعت رؤوسكم بها:

- وما هي المشكلة في زيارتك لمستشفى الطب النفسي؟!!.. المستشفى عموما مكان هادئ لا يعج بالمرضى كما قد يتخيل البعض.. ثم إنه ليس من المعيب أن......

يبدو أنها لم تكترث لكلامي.. إذ قاطعتني فجأة وأخرستني بكلمة واحدة حازمة:

- لا!!!.

ثم أكملت سريعا وكأنها ترغب بتجنب تلك النقطة:

- أريد أن ألتقي بك في مكان آخر بعيدا عن المستشفى.. أرجوك!!!.

لم أكن لأرفض طلبا لهذا الملاك.. فمن لا يود أن يجلس مع فتاة كهذه ويتحدث معها بأي شيء تريده!!!.. لكني تمالكت لهفتي.. وأخبرتها بهدوء بموافقتي على ذلك.. ثم:

- ما رأيك في (ستار بكس) جمعية (الشامية) كوننا نسكن المنطقة ذاتها؟!!.. لقد لمحتك من مرآة سيارة والدي وأنت تركن سيارتك بالقرب من ذلك البيت.. دعك من أنني أمارس رياضة المشي في الحي السكني ذاته وأرى سيارتك مركونة هناك دوما.. أنت تسكن في شقة كما يبدو.. هذا واضح من طريقة تصميم البيت الذي تعيش فيه.. بالمناسبة.. ماذا كانت ردة فعل زوجتك حين علمت بالحادث؟!!.

هل هذه طريقة لبقة لتعرف إن كنت متزوجا؟!!.. لا أعلم.. لكني أخبرتها على كل حال أنني أعزب وأسكن وحيدا لرغبتي في ذلك فحسب ولا علاقة للأمر بأي موبقات قد تظنها.. لكنها دافعت عن حقي بحرارة فاجأتني شخصيا وهي تقول:

- لا عليك.. لقد عشت بضع سنوات في (بريطانيا).. بل وأنهيت دراستي في المرحلة الثانوية هناك.. وأفهم جيدا كيف يرغب المرء أحيانا كثيرة أن يعيش وحيدا.. إنني أفتقد هذا بشدة.. صدقني.

اللعنة.. كم كنت أود أن أكمل حديثي معها.. لكني اضطررت لمقاطعتها بأدب شديد رغم أنها أثارت فضولي كثيرا باتصالها هذا.. فقد دخلت الممرضة مكتبي لتخبرني بأمر بعض الاجتماعات التي علي حضورها الأسبوع القادم في وزارة الصحة مع توقيع أوراق هامة متعلقة ببعض نزلاء المستشفى وإلقاء نظرة سريعة على ملفاتهم.. لذا فقد أنهيت المكالمة وسط اعتراضها.. المعذرة يا أميرتي.. إنه نداء الواجب.. يجب أن آتيك بطائرة مليئة بالورود اعتذارا على هذا الموقف!!!.. لكني على كل حال.. أخبرتها أن عليها الاتصال بي في أي وقت لاحق لنتفق على موعد لقائنا.. بعد أن أتأكد من عدم تعارض اللقاء مع جدول النوبات المسائية في المستشفى.

مر بعدها اليوم عاديا من دون شيء يذكر.. حيث عدت إلى شقتي في السادسة والنصف صباحا بعينين شبه مغمضتين آملا أن أنال كفايتي من النوم وعازما ألا أستيقظ قبل الثالثة عصرا في أفضل الأحوال.. لا أنكر أن (جود) كانت تغزو ذهني طوال الوقت.. حتى أنني قررت الاتصال بها إذا لم تتصل هي خلال اليومين القادمين.. أريد أن أراها وأتواصل معها مرة أخرى.. كل فتاة بالنسبة لي هي عالم من الغموض والأسرار.. أحب أن أدخل عالمها وأعرف أسرارها.. إن في هذا متعة لا تدانيها متعة عند معشر الرجال.. فما بالكم بفتاة مثل (جود)؟!!.

أتذكر أنني استيقظت يومها في الثالثة عصرا بالفعل حيث أخذت حماما ساخنا وحلقت ذقني شاعرا أنني حصلت على أجمل ما في الحياة.. الصحة.. الشهادة.. الحرية.. الاستقرار المادي.. لكنني رغم كل شيء.. لم أكن سعيدا.. لا أعرف ولا أفهم لماذا!!!.

كنت أفكر بالسنوات القليلة الماضية وما رأيته فيها من غرائب من خلال عملي في المستشفى.. وأفكر بـ(جود) وجمالها الذي ينشر النور في كل الأرواح المظلمة.. أفكر بكل هذا وأنا أشاهد التلفزيون وألتهم طعام الغداء الذي طلبته من أحد المطاعم.. قبل أن يرن جرس الباب.. نهضت متساءلا مستغربا من هوية الطارق.. علما بأنه لم يزرني أحد منذ انتقالي لتلك الشقة سوى شقيقي الذي ما زال يدعوني للتفكير بقراري مرة أخرى والعودة إلى بيت العائلة.. هل الزائر هو شقيقي أيضا هذه المرة؟!!.. لا أعلم.

لم أسأل عن هوية الطارق.. بل نظرت إلى العين السحرية.. و.. خفق قلبي بقوة وأنا أرى كل معاني الجمال تقف أمام باب شقتي!!.. نعم تماما كما تتوقعون.. كانت هي.. (جود)!!!.. كيف وصلت إلى شقتي؟!!.. كيف جرؤت على فعلها وهي تعلم أنني أعزب وأعيش هنا وحيدا؟!!!.. هذه الفتاة غريبة

بحق!!!.. طلبت منها أن تنتظر للحظة.. ورحت أنظر إلى المكان سريعا.. لحسن الحظ كانت الشقة مرتبة بالكامل كعادتي.. عدا بقايا الطعام الذي كنت ألتهمه منذ قليل.. قمت بتنظيف المكان سريعا مع غسل أسناني وتنظيف فمي حتى لا تفوح منه رائحة الطعام.. وارتديت بعدها زيا رياضيا أفضل من البيجاما التي كنت أرتديها.. قبل أن أفتح لها الباب أخيرا وأنا ألهث بسبب الجهد والسرعة التي بذلتها لتجهيز المكان وتجهيز نفسي بالطبع.

ظللت أنظر إلى (جود) بغباء واضح وأنفاسي تكاد تتوقف بسبب هذه الفتنة الآسرة.. قبل أن تسألني بحذر:

- هل ستسمح لي بالدخول؟!!.

تنحنحت بحرج.. وسمحت لها بالدخول بالطبع.. ثم راحت تنظر إلى شقتي بإعجاب شديد.. قبل أن تجلس في الصالة بصمت غريب أثار تساؤلاتي.. حقا أنها لجرأة غريبة أن تدخل فتاة شقة شاب أعزب بهذه الطريقة.. و.. كأنها قرأت أفكاري.. إذ قالت ببساطة:

- أعرف أن زيارتي هذه مفاجأة بالنسبة لك!!!.. أعرف جيدا أنه من الغريب في مجتمعنا أن تزور فتاة شاب أعزب في شقته.. لكني أثق بك.. وأثق بنفسي.. ولا يهمني كلام الناس..

كما أنني أحتاج إلى مساعدتك بشدة.. وأفضل أن ألتقي بك بعيدا عن أعين الجميع وليس في المستشفى كما اقترحت علي ولا حتى في المقاهي.

أومأت برأسي متفهما راضيا تماما.. لا أحتاج إلى أي تبريرات يا عزيزتي.. وجودك معي في مكان واحد هو حلم كل شاب.. هكذا قلت لنفسي.. ثم.. أكملت فجأة وكأنها لا تريد أن تضيع وقتها:

- دكتور.. كما قلت لك عبر الهاتف.. هناك سر كبير يخفيه والداي عني.. سر لا أعرف ما هو.. لكنه يخصني أنا دون شك!!!.

قلت محاولا التفكير بطريقة علمية وقد بدأت أنفاسي تنتظم بعد أن استوعبت مفاجأة زيارتها:

- حسنا.. كلي آذان صاغية.. ما هي مشكلتك بالضبط؟!!.

ردت وهي تزفر:

- لا يوجد الكثير ليقال.. اسمي (جود الـ..).. وربما اسم عائلتي له دلالة واضحة على الثراء في (الكويت).. نعم.. أنا من عائلة ثرية للغاية بالفعل.. عمري 18 سنة.. وحيدة والدَيّ بسبب مرض أصيبت به والدتي منذ زمن وأدى إلى استئصال

رحمها مما جعلها عاجزة عن الإنجاب بطبيعة الحال.. لكن والدي يحب والدتي كثيرا ولا يفكر بتركها أبدا.. أقول لك هذا الكلام حتى تعرف أنني أعيش في أحضان أسرة سعيدة لا تعاني من أي مشاكل.. وقد أخبرتك أنني أنهيت دراستي الثانوية في (بريطانيا) بسبب إقامة والدي هناك لظروف تجارته.. لأعود بعدها إلى (الكويت) منذ شهور قليلة فحسب.. ولتبدأ فجأة أحداث مريبة لا أفهمها!!!.. فمن الطبيعي أن أكمل دراستي وألتحق بالجامعة كوني أنهيت المرحلة الثانوية بتفوق.. ثم أبدأ بعدها على الأرجح بتأسيس شركة خاصة بي.. أو أن أعمل في إحدى شركات والدي على الأقل.. لكني فوجئت به يرفض فكرة استكمال دراستي أو حتى عملي لأسباب واهية سخيفة للغاية لا تستحق الذكر!!!.

قلت مبتسما ببساطة بعد أن عرفت حجم مشكلتها:

- الأمر لا يستحق كل هذا القلق.. ربما محاولة النقاش مع والدك مرة أخرى أو حتى تدخل بعض الوساطات العائلية قد يأتي بنتيجة.. فالإلحاح المستمر ينفع دوما.

نظرت إلي باستنكار وهي تقول:

- وهل تعتقد أنني سأتكبد عناء زيارتك من أجل هذه المشكلة فقط؟!!.. الأمر أكبر بكثير يا دكتور.. فبسبب حياتي

الرتيبة دون عمل.. وبسبب الملل الذي يسيطر علي رغم كل وسائل الرفاهية المتاحة حولي.. رحت أعبث في كل شيء في البيت.. حتى وقعت يدي ذات يوم على ألبومات العائلة القديمة التي قمت بتصفحها واحدا تلو الآخر.. فقد أثار انتباهي أمر غريب.. إذ لم أجد أي صور لي يا دكتور.. نعم.. لا توجد أي صور لي في ألبومات العائلة إطلاقا!!!.. هل يبدو لك الأمر طبيعيا؟!!.. رغم أنني أتذكر طفولتي جيدا وأتذكر التقاط صور عديدة لي في مناسبات كثيرة بطبيعة الحال.. لكن.. لا أجد أي من هذه الصور الآن!!!.. الأغرب من ذلك أن والدتي غضبت بشدة حين رأتني أتصفح الألبومات.. وقد وبختني بقسوة حينها!!!.. ووالدتي -بالمناسبة- هي لغز آخر لا أفهمه.. لقد كانت تحبني بجنون وتهتم بي كثيرا طوال فترات حياتي.. وأجزم لك أنها لم تضربني أو توبخني يوما في فترة طفولتي وحتى عودتنا من (بريطانيا).. لكنها تغيرت كثيرا بعد ذلك.. وباتت تعاملني ببرود شديد لا أفهمه.. أشعر أحيانا كثيرة أنها تكرهني.. ولا أبالغ لو قلت إنها لا تعاملني كابنتها أصلا.. بل إنني لاحظت والدي يقف إلى جانبي كثيرا ضدها ويوبخها لعدم اهتمامها بي ومعاملتها لي كما يفترض أن تعامل الأم ابنتها!!!.. وحين يفعل والدي ذلك.. أشعر بها وكأنها تكاد تنفجر غيظا.. لكنها تسيطر على أعصابها بقوة.. وتذهب بعيدا

عني وهي تغمغم بصوت منخفض للغاية بكلمات لا أفهمها.. وربما لا تفهمها هي نفسها!!!.

حاولت أن آخذ الأمر ببساطة.. فقلت مبتسما:

- لا أعرف سبب عدم اهتمام والدتك بك كما تقولين.. لكن.. تستطيعين التحدث إليها وكشف كل ما في قلبك.. سيسعدها هذا كثيرا.. صدقيني.. أما بخصوص ألبومات الصور.. فربما هناك ألبومات لم تعثري عليها وهي التي تحوي صورك.. أو ربما تكون صورك قد فقدت مثلا.. أمور كهذه تحدث!!!.

ردت بحنق:

- أرجوك يا دكتور أن تأخذني بجدية وألا تحاول تبسيط المشكلة.. هناك سر مخيف بين والدَيّ يخصني أنا.. أشعر أن والدي تحديدا يحرص كل الحرص ألا أعرف ذلك السر!!!.. لقد أخبرته بشكوكي تلك أكثر من مرة.. لكنه يقسم دوما بأغلظ الأيمان إنني واهمة رغم ثقتي الكاملة أنه يكذب!!!.. أحيانا كثيرة ألاحظ أنه يهمس بشيء ما لوالدتي.. وما إن ينتبها لوجودي يقوما بتغيير الموضوع والعودة إلى طبيعتهما!!!.. كما أنني حاولت التحدث مع والدتي كثيرا.. لكنها تقسم أيضا أن لا شيء هناك وأنها فقط متعبة وتحتاج الراحة بسبب كثرة سفرها وترحالها مع والدي إلى أن وصلت إلى هذا العمر.

سألتها باهتمام مستمتعا بالحديث معها:

- ماذا عن أفراد عائلتك؟!!.. حدثيني عنهم.. كلما عرفت معلومات أكثر عن حياتك ستسهل عملية مساعدتك.

أومأت برأسها موافقة.. ثم أبعدت خصلة من شعرها غطت عينيها.. فعلت هذا دون أن تعلم أنني كدت أن أقع تحت قدميها وأرجوها أن تكون لي وحدي.. لكني لم أفعل ذلك بالطبع.. المهم أنها قالت باهتمام:

- أخبرتك باسمي ومؤهلي الدراسي الذي لم يتعدّ المرحلة الثانوية.. وأنت تعرف بالطبع أنني أعيش مع أبي وأمي في المنزل الكبير الذي يطل على حديقة كبيرة في نهاية الشارع.. أما عن حياتي في (بريطانيا).. فلا يوجد الكثير ليقال بشأنها.. إذ كانت طبيعية ولا تختلف عن حياة أي فتاة وكونت فيها صداقات لا حصر لها.. لكن مع الأسف.. الكثير من الأصدقاء افترقوا عني واتجه كل منهم إلى دراسته الجامعية.. أما أنا فعدت مع والدي إلى (الكويت) كما أخبرتك.. وتربطني حالياً علاقة جيدة مع قريباتي من جانب أبي.. بل هن صديقاتي الوحيدات.

أومأت برأسي إيجابا كناية عن متابعتي لما تقوله.. قبل أن تكمل:

- لقد أصابني اليأس من سؤال والديّ حول السر الذي يخفيانه عني.. فتوقفت عن سؤالهما مع مرور الأيام.. وإن كان فضولي يزداد يوما بعد يوم.. خاصة مع ذلك الرجل الذي يزورنا بين الحين والآخر ويقضي ساعات طويلة مع والدي.. إنه رجل بريطاني الجنسية أشعر أن والدي يتوتر كثيرا أثناء زيارته لنا.. وكأنه ضيف غير مرغوب به!!!.. لا أحتاج الكثير من الخيال لأعرف أن هذا الرجل يعرف جيدا ما يخبئه والدي عني.. نعم.. يبدو هذا واضحا حين يجلسان معا في صالة البيت.. إذ يصر والدي أحيانا كثيرة على أن أجلس معهما.. والأغرب أن ذلك الرجل يطرح علي أسئلة كثيرة بصورة غير مباشرة أثناء جلوسي معه وكأنه معجبا بي.. رغم أنه في عمر والدي تقريبا.. حتى أنني أخذت انطباعا أنه يريد الزواج مني!!.. بل وسألت والدي كثيرا عن هوية ذلك الرجل.. فيقسم أنه مجرد صديق عزيز جدا ويحبني كابنته فحسب.. هل يقنعك هذا الجواب؟!!.. لا أعتقد!!!.

كنت أستمع إليها بانتباه لا يشتته شيء سوى جمالها.. عالما أنني أمام حالة بارانويا متقدمة جدا كما أسلفت سابقا.. ثم تذكرت أهم ما في الموضوع:

- المعذرة.. ولكن.. لا أفهم كيف أستطيع مساعدتك..

هل تريدينني أن أتحدث مع والدك مثلا لأعرف منه السر؟!!.. لا أعتقد أنه سيستمع إلي.

هزت رأسها نفيا بقوة وهي تقول:

- بالطبع لا يا دكتور.. ما أريده منك هو شيء آخر لم أخبرك بشأنه حتى الآن.. أرجوك اسمعني جيدا.. إن والدي لا يسمح لي بالخروج وحدي إطلاقا إلا لممارسة رياضة المشي في حينّا السكني.. فهو لا يفارقني أبدا.. وقد حرمني من أي خصوصية في حياتي مؤخرا.. أشعر أحيانا كثيرة أنني أسبب له عبئا ثقيلا لا أفهمه.. لقد كنت أخرج مع السائق متى شئت في الماضي القريب.. وكونت بعض الصداقات مع الفتيات اللاتي ألتقي بهن في النادي الصحي الذي كنت أذهب إليه بين الحين والآخر.. لكن.. توقف كل شيء فجأة حين منعني والدي من الخروج نهائيا وحدي بعد تلك المرة التي خرجت فيها مع السائق منذ بضعة أسابيع.

سألتها باستغراب:

- ماذا حدث حين خرجت مع السائق؟!!.. هل حاول الاعتداء عليك مثلا؟!!.

غمغمت مستهجنة وبعبارة تعادل العبارة الكويتية

الشهيرة ((أنا وين وانت وين))!!!.. قبل أن تكمل:

- الأمر يفوق ذلك بكثير.. ما حدث هو أنني كنت مع السائق متجهة إلى (مجمع المارينا التجاري).. وأثناء عودتنا.. شعرت أنني لا أرغب في العودة إلى البيت في مثل ذلك الوقت المبكر.. فطلبت من السائق التجول قليلا في الشوارع الداخلية لمنطقتنا.. وقد قام بتلبية طلبي بالفعل.. إذ راح يقود السيارة بهدوء بين الأحياء السكنية وأنا أعبث بهاتفي مستمتعة بجو (الكويت) المميز في مثل هذا الوقت من السنة.. كانت الأمور تسير بصورة اعتيادية قبل أن يحدث شيء أصابني في الصميم.. فقد مررنا بالقرب من ذلك البيت!!!.. بيت كبير مهجور منذ سنوات طويلة للغاية كما بدا لي للوهلة الأولى.. شيء غريب للغاية تحرك في أعماقي حين مررنا به.. حتى أنني صرخت في السائق أن يوقف السيارة بسرعة.. فأوقفها المسكين مرعوبا دون أن يفهم سبب صراخي المفاجئ!!!.. لأنزل من السيارة وأمشي بضع خطوات قبل أن أجد نفسي واقفة تماما أمام ذلك البيت أنظر إليه برهبة غير عادية.. وكأنه.. وكأنه يناديني!!!.

غمغمت مستغربا:

- البيت يناديك؟!!.. كيف؟!!.

قالت وهي تنظر إلى السقف:

- دكتور.. سؤالك بالغ الصعوبة!!!.. أحتاج أن أكون من عينة (شكسبير) كي أصف لك شعوري حينها.. أحتاج إلى كلمات عميقة للغاية لا أملكها في حصيلتي اللغوية.. كانت كل ذرة من جسدي تطلب مني الدخول إلى ذلك البيت.. وكأنه كيان عملاق يفكر ويتخذ القرارات ويملك السيطرة على عقول الناس.. و.. ويأمرني بالدخول إلى قلبه!!!.. هل تعرف الشعور حين تعيش في مكان ما طوال سنوات طفولتك ثم تتركه فترة طويلة جدا؟!!.. ماذا سيحدث حين تعود إليه وأنت شيخ في أرذل العمر؟!!.. ستتفجر الذكريات في رأسك دون شك.. أليس كذلك؟!.. حسنا.. هذا ما شعرت به.. فقد انسابت إلى عقلي ذكريات مبهمة دون أن أتمكن من تمييزها.. المشكلة أنني لم أرَ هذا البيت في حياتي ولم أدخله من قبل.. بل ولم أعلم بوجوده أصلا لولا أن مررنا به بالصدفة!!!.. المشكلة أنني -ورغم تلك الرغبة المجنونة التي سيطرت على عقلي لدخول البيت- مجرد فتاة عادية أخشى الأماكن المهجورة والمظلمة مهما كانت الإغراءات قوية لدخولها.. لذا ظللت في صراع لا ينتهي بين الدخول والامتثال لأوامر البيت!!!.. أو اتباع غريزة الخوف والاستسلام لها.. في النهاية استسلمت لغريزة الخوف وركبت السيارة لأطلب من السائق أن نبتعد عن هذا المكان.. فنفذ الأمر دون أن يفهم سبب تصرفاتي الغريبة هذه.

هناك قصص كثيرة متداخلة في قصة هذه الفتاة!!!.. السر الذي يخفيه عنها والداها.. عدم سماح والدها أن تكمل دراستها أو حتى العمل في إحدى شركاته.. ثم ذلك الرجل الذي يزورهم باستمرار.. وتبدل معاملة والدتها لها بعد عودتهم من الخارج مباشرة.. وأخيرا قصة البيت ونداءه الغريب لها كما تدعي!!!.. ألغاز عديدة غير مفهومة.. لكن.. كل ما أخبرتني به لا علاقة له بالطب النفسي أصلا.

هل أنا أمام فتاة مختلة عقليا؟!!.. هل من الممكن أن يختبئ داخل هذا الرأس الجميل عقل مهترئ؟!!.. هذا احتمال لا بأس به.. لكن يبدو أن شيئا في ملامحي قد بين لها ما دار في ذهني للتو.. إذ قالت بثبات وهي تنظر إلى عيني مباشرة:

- أعرف أن أول ما سيطرأ في ذهنك هو أنني مجنونة!!!.. لكني أؤكد لك.. أنا فتاة طبيعية للغاية أعيش حياة سعيدة قبل أن تتغلغل تلك الألغاز في حياتي فجأة!!!.. ربما ما أقوله لك لا علاقة له بمهنتك.. لكنك طبيب نفسي.. وإنسان مثقف دون شك.. ربما تستطيع مساعدتي.. لا أريد أن أخبر قريباتي بالأمر.. فلا أظن أنهن سيتمكن من مساعدتي أو فهم مشكلتي أصلا.. غريزة الأنثى وحدها أخبرتني أن أثق بك أنت وأن لقائي بك أثناء الحادث لم يكن صدفة.. بل هو القدر الذي أرسلك

إلي لمساعدتي.. وها أنا بين يديك أطلب مساعدتك.. أرجوك لا تخذلني يا دكتور.

أنا أخذلك؟!!.. أنا لست حمارا لأخذل أجمل ما وقعت عليه عيناي يا عزيزتي.. لكن.. ما الذي أستطيع فعله أصلا؟!!.. ولماذا تظن أنني سأتمكن من مساعدتها على عكس قريباتها؟!.. لا أعلم.. مهلا.. لقد تذكرت شيئا:

- لم تخبريني لماذا منعك والدك بعد تلك الليلة من الخروج نهائيا برفقة السائق.. فما ذكرتِه لي عن ذلك البيت المهجور لا يستحق غضبه!!!.

قالت وهي ترجع شعرها للوراء:

- ذلك السائق الأحمق.. لقد أخبر والدي بما حدث.. ورأيت والدي بعدها قلقا متوترا لسبب لا أفهمه.. حتى أنه دخل غرفة المكتب وهو يجري اتصالا مع أحدهم.. وراح يتحدث معه هامسا عبر الهاتف.. في حين راحت والدتي بدورها تتصرف بطريقة غريبة متوترة لا أفهم سببها.. حاولت التحدث إليها لكنها ردت علي بحدة واضحة أن لا شيء هناك قبل أن تذهب مسرعة إلى غرفتها وكأنها تتجنب الحديث معي!!!.. حاولت أن أتحدث مع والدي لأفهم منه ما يحدث حولي وسر تصرفاته الغريبة هذه وغضبه لأنني توقفت أمام

ذلك البيت المهجور.. لكنه كان متحفظا جدا وأعطاني أعذارا واهية كعادته مؤخرا.. وقام بعدها بمنعي من الخروج مع السائق مع توجيه تعليمات صارمة له ألا يستمع إلى أوامري أبدا.. بل أخبرني أنه سيوصلني بنفسه لأي مكان أريده.. هذا كل ما حدث!!!.

عقدت حاجبي بشدة وأنا مغمض العينين.. فاحترمت صمتي ولم تقل شيئا.. بحثت عن شيء آخر أقوله.. سؤال أوجهه لها.. أي شيء.. ثم حسمت أمري وقلت بصدق:

- لا أعرف كيف أساعدك.. أحترم كثيرا ثقتك بي رغم أنك لا تعرفين سوى القليل عني.. إلا أنني لا أملك ما أقدمه لك.. أنا آسف!!!.

ردت بخجل شديد:

- بل تملك الكثير لتقدمه.. أنا أطمع بمساعدتك.. أريدك.. أريدك.. أريدك أن تدخل معي ذلك البيت المهجور.. هل هذا ممكن؟!!.. المشكلة أنني لا أذكر مكان البيت تحديدا.. لكني سأعرفه مباشرة إذا رأيته.. خاصة وأنه يلفت الانتباه بسبب بنائه القديم المتهالك بطبيعة الحال.. لذا سأهرب من منزلي ليلا وآتي إليك لتأخذني بسيارتك في جولة سريعة في شوارع المنطقة.. قد تستغرق عملية البحث في الأحياء السكنية ساعة

أو ساعتين.. لكني واثقة أننا سنعثر عليه في النهاية.. أرجوك يا دكتور.. أرجوك لا ترفض طلبي.

نظرت إليها دون رد.. من الذي لا يتبع هذا الملاك حتى إلى الجحيم.. حقيقة لم أملك الرفض أمام عينيها الحزينتين اللتين تنظران إلي برجاء!!!.. فأصعب ما قد يمر به أي شاب حين تزوره فتاة بهذه الروعة والجمال لتخبره أنه أملها الوحيد في العالم!!!.. كيف سيرفض طلبها حينئذ؟!!.. ثم ما الذي سيحدث لو بحثت معها عن ذلك البيت لندخله سويا؟!!.. إنها تشعر بالفضول.. وتريد من يطفئ نيران فضولها.. سأساعدها على ذلك.. ولن أخسر شيئا.. بل سأكسب قلبها بالمقابل!!!.. وسأكسب بعض الوقت معها وأستمتع برفقتها.. لكن كل هذا لم يمنعني من سؤالها:

- وما الهدف من دخول البيت أصلا؟!!!.. ما الذي تتوقعين العثور عليه هناك؟!!.

قالت برجاء:

- أنا لا أبحث عن شيء محدد.. أريد الدخول إليه فحسب.. ربما سأفهم حينها سر الشعور الغريب الذي سيطر على كياني حين وقفت أمامه في المرة السابقة!!!.. أريد أن أقتل تلك الرغبة التي تسيطر علي.. ربما لن نعثر على أي إجابات لتساؤلاتي.. لكن

الأمر يستحق المحاولة.. أرجوك يا دكتور.. أرجوك!!!.

لا أحتمل منها كلمة (أرجوك).. فهذا الملاك يأمر ولا يرجو!!!.. أومأت برأسي موافقا.. فانفرجت أساريرها.. وبدت وكأنها طفلة صغيرة وافق والدها على شراء لعبة ترغب فيها بشدة!!!.. ثم تذكرت أمرا:

- المعذرة.. لقد نسيت واجب الضيافة.. دعيني أقدم لك شيئا تشربينه.. عصير ربما؟!!.

هزت رأسها نفيا برقة.. واستأذنت مني الذهاب على أن تأتي مرة أخرى مساء اليوم -كما قالت- وفي وقت متأخر لنبحث عن ذلك البيت المهجور.. ثم نهضت من مكانها متأهبة للخروج.. فنهضت بدوري لأوصلها إلى الباب كما نفعل دوما مع الضيوف.. شاعرا أنني على وشك الوقوع في علاقة غرامية ستنسيني كل رفضي السابق للزواج.. و.. انهدمت أحلامي الوردية فجأة حين سمعت طرقا على باب الشقة!!!.. كان واضحا من طريقة طرق الباب أن الزائر غاضب لسبب ما.. يا للهول.. هل هو والد (جود) وقد رآها متجهة إلى شقتي مثلا؟!!.. ستكون كارثة لو الأمر كذلك.

انحبست أنفاسي فجأة.. ونظرت عبر العين السحرية للتأكد من هوية الزائر.. إنه ليس والد (جود).. بل -وهذا الأسوأ-

شقيقي.. إنه شقيقي الأكبر!.. ما هذا الحظ السيء.. جميع أفراد عائلتي يظنون أنني أقضي حياتي بين الجنس والخمر كوني أعيش وحيدا.. حتى وإن أعلنوا عكس ذلك.. إنهم فقط يبحثون عن الدليل.. ولن يكون أمام شقيقي أفضل من هذا الدليل.. فلن يصدق أبدا أن الفتاة قد زارتني لتطلب مساعدتي وتخبرني بقصتها الغريبة هذه.

اتخذت قراري بسرعة.. وهمست بإذن (جود) أن تختبئ في غرفتي.. رجوتها أن تفعل.. كانت المسكينة خائفة أكثر مني.. فامتثلت لكلامي دون اعتراض.. وذهبت مسرعة إلى غرفتي.. ثم.. تمالكت نفسي والتقطت نفسا عميقا وأنا أمشي بتوتر عجزت عن إخفائه لفتح الباب.. و:

- هل ما زلت تفضل السكن وحيدا؟!.. ألن تعود لوالدتك؟!!.

قالها من دون أي عبارة ترحيب!!!.. فقلت له وأنا ألعن الساعة التي أخبرته فيها بمكان شقتي:

- إنني قريب من والدتي.. أنا أزورها مرتين أو 3 في الأسبوع كما تعلم.. لا يتطلب الأمر أن أعيش معها في بيت واحد.. فلنفترض أنني متزوج.. هل كنت ستردد هذا الكلام؟!!.

رد وهو يشير إلي بإصبعه:

- لكنك غير متزوج.. وأنا أحاول كثيرا أن أخفي عن الناس أنك تسكن وحيدا في شقة.. ثم.. ألن تدعوني للدخول؟!!.

تنحنحت بحرج وأفسحت له الطريق للدخول وقلبي يضخ الدماء أنهارا في جسدي من شدة القلق.. آملا ألا يكتشف وجود (جود) في غرفة نومي.. ولم يفتني بالطبع نظراته يمينا ويسارا وفي كل ركن من أركان الشقة تقريبا.. إنه يبحث عن زجاجات الخمر ربما.. سامحك الله يا أخي العزيز.. ثم.. جلس في الصالة وراح يلقي على مسامعي نفس الكلام الذي سمعته منه ومن باقي أشقائي وشقيقاتي ووالدتي مرارا.. لذا لن أصدع رؤوسكم به.. ولن أصدع رؤوسكم بما قلته وكررته له مرارا أيضا.. فهز رأسه آسفا.. وتحدث معي بعدها لبضع دقائق بأمور عائلية لن تهمكم كثيرا.. قبل أن ينهض فجأة ويتجه إلى باب الشقة بعد أن ألقى تحية باردة وهو يلقي نظرة جانبية على غرفة نومي.. هل يعلم يا ترى؟!.. هل شعر بشيء؟!.. لا أعتقد.. المهم أنني تنفست الصعداء حال خروجه.. وأطلقت زفيرا عميقا مفرغا كل توتري. لحظات قليلة.. قبل أن أذهب إلى غرفة نومي لأجد (جود) مختبئة خلف الباب وهي تزفر بدورها بارتياح أن الأمور قد

مرت بسلام.. حتى أنني اعتذرت كثيرا كوني طلبت منها أن تختبئ بهذه الطريقة المهينة كي لا يراها شقيقي.. لكنها لم تعر الأمر اهتماما كبيرا وقبلت اعتذاري مبتسمة.. قبل أن تتركني مسرعة على وعد اللقاء في وقت متأخر الليلة لتنفيذ مغامرتنا الصغيرة.

مرت بعدها الساعات بطيئة للغاية.. وأصدقكم قولا أنني لم أكن أفكر بما يحيط بهذه الفتاة من ألغاز بقدر رغبتي بتوطيد علاقتي بها.. لا.. لم تكن تدور في ذهني أي خواطر سوداء غير صالحة للنشر.. إن أخلاقياتي أرقى من ذلك بكل تأكيد.. بل هو الشعور المعتاد الذي يشعر به كل شاب تقريبا يلتقي بفتاة جميلة فتراه يريد أن يكون بقربها بعض الوقت.

بعيدا عن كل تلك الخواطر والأفكار.. كنت في تمام الساعة الواحدة فجرا أنتظر (جود) في سيارتي في موقف السيارات الخاص بشقتي.. بالطبع لم يكن باستطاعتي أن أقلها من بيتها.. بل كان الاتفاق أن تتسلل هي من بيتها دون أن يشعر والداها لتأتي مشيا إلى مكان شقتي.. لم يكن الأمر عسيرا.. فالمسافة لا تتجاوز المائة متر بين البيتين كما علمتم.

كنت أجلس في السيارة أستمع إلى أغنية (بتلوموني ليه) للرائع (عبدالحليم حافظ) مرتديا ثيابا ثقيلة بسبب برودة

الجو.. لا تنسوا أننا في شهر ديسمبر.. لحظات قليلة قبل أن ألمح أحدهم بمرآة سيارتي متجها نحوي بثبات.. إنها فتاة ترتدي زيا رياضيا شتويا مع قبعة تخفي شعرها.. فزادها ذلك سحرا.. كانت هي بالطبع.

ركبت السيارة معي أخيرا.. وألقينا على بعضنا تحية هادئة تناسب الأجواء الباردة المحيطة بنا.. وها أنا أنفذ ما هو مطلوب مني وأقود السيارة بين الأحياء السكنية في المنطقة بصمت لا أعرف كيف أقطعه.. إلى أن بادرت هي بالحديث حين بدأت تستجوبني استجوابا جميلا ناعما عن حياتي الخاصة أشعرني بمتعة ما بعدها متعة.. حدثتها عن حياتي الشخصية وعن نفسي.. وأفراد عائلتي.. وأخبرتها عن بعض القصص والتجارب الغريبة التي عايشتها كطبيب نفسي.. قبل أن تصيح أخيرا بانتصار وبعد أكثر من ساعة من البحث والتنقل بين الأحياء السكنية في المنطقة:

- نعم.. هذا هو.. هذا هو البيت بكل تأكيد!!!.

قالتها وقلبها ينبض بعنف ولهفة كما يبدو.. ما هو لغز هذا البيت يا ترى؟؟!!.. لماذا يثير فيها كل هذه المشاعر؟!!.. يبدو لي مجرد بيت مهجور قديم للغاية يشير بناؤه إلى فترة الستينيات.. إلا أنني رغم كل شيء.. يجب أن أعترف صراحة

أنني أخشى دخوله في مثل هذه الساعة.. لكن -بالمقابل- لا يمكن أن أظهر بمظهر الجبان أمام فتاة كهذه.

ركنت سيارتي قرب البيت.. ونزلنا بهدوء شديد متسترين بالظلام والوقت المتأخر.. نلتفت يمينا ويسارا آملين ألا يرانا أحد من الجيران.. فقد يظن بعضهم أننا نبحث عن مكان لممارسة الرذيلة مثلا.. نعم.. البعض قد يظن هذا بالفعل!!!.

دخلنا من البوابة المفتوحة.. لنمشي قليلا عبر الساحة الداخلية التي ملأتها الأتربة تماما بفعل سنوات الإهمال بالطبع.. كل شيء حولي يوحي بالوحشة الشديدة كحال البيوت المهجورة.. قبل أن أسأل (جود) باهتمام وبصوت هامس:

- الآن نحن هنا كما ترغبين.. ماذا تريدين من هذا البيت بالضبط؟!!.

ردت بهمس مماثل:

- صدقني لا أعلم.. لكن ذلك النداء اللعين في عقلي لا يتوقف.. فلتتبعني فقط ولنرى أين ستقودني ساقاي.. أو فلنقل عقلي!!!.. مهلا.. هل أتيت بمصباح يدوي؟!!.

اللعنة.. نسيت تماما.. أخبرتها بذلك وأنا أدفن رأسي بين ياقتي الجاكيت من شدة البرد.. لكنها تصرفت بسرعة وبطريقة

عملية.. إذ أخرجت هاتفها.. وراحت تستغل الضوء المنبعث منه ونحن نعبر ساحة البيت الداخلية.. فأخرجت هاتفي بدوري لأفعل الشيء ذاته.. ورحت أبحث معها عن.. عن.. لا أدري في واقع الأمر.. كنت فقط أتبعها إلى حيث تريد فحسب.

دخلنا صالة البيت أخيرا.. ولا داعي أن أخبركم أنها موحشة للغاية أيضا.. رغم أنها كانت خالية تماما سوى من الأتربة التي غطت الأرض.. ولا ننسَ أيضا بعض القطط الضالة هنا وهناك والتي تحفزت حال دخولنا.. والأسوأ من كل هذا هو ذلك الصدى اللعين المخيف الذي ينبعث عند أول كحة نطلقها!!!.. ظللنا نمشي عبر ممرات البيت وندخل غرف الطابق الأرضي.. الغرف خالية أيضا بطبيعة الحال سوى من بعض القطع الخشبية والأثاث القديم المحطّم المغطى بالغبار أيضا.. هذا البيت مهجور منذ 30 عاما على الأقل أو ربما أكثر!!!.. أستغرب كيف يترك الناس بيوتا كهذه دون أن يسكنوها.. في حين نجد الآلاف يبحثون عن سكن مناسب ولا تسمح لهم ميزانيتهم بذلك.

توقفت (جود) فجأة في إحدى الغرف!!!.. نظرت إليها لأفهم سبب توقفها بهذه الصورة المريبة!!!.. وجهت ضوء هاتفي على وجهها لأراها مغمضة العينين وكأنها تفكر بعمق..

حتى أنني وجدتها فرصة رائعة لأحدق بملامحها دون نظراتها المعترضة.. هل تعرفون ما هو أجمل ما في الفتاة؟؟!.. حين تكون نائمة أو مغمضة العينين.. لكنها فتحت عينيها فجأة وبصورة أشعرتني بالارتباك!!!.. لتنظر إلي قليلا باستغراب غير مفهوم.. ثم تخرج من الغرفة فجأة وتصعد الدرج مسرعة إلى الطابق العلوي دون خوف.. هذا غريب.. لا تملك الفتيات تلك الشجاعة عادة!!!.

تبعتها وهي تتجه إلى غرفة محددة ما إن دخلناها حتى وقفت وسطها وهي تلهث بقوة.. ليس من شدة التعب.. بل لسبب آخر!!!.. ما هو هذا السبب؟!.. لا أعلم.. لكني رغم كل شيء.. وقفت بجانبها ورحت أنظر إلى أركان الغرفة دون فهم.. ما هذا؟!.. الغرفة مليئة بالزجاج المحطّم!!!.. لا.. بل بقايا مرايا مكسورة.. مرايا بمختلف الأحجام تفتتت إلى عدد هائل من القطع وملأت الغرفة.. أستطيع أن أتبين الكثير من أجزائها رغم أن الأتربة غطت معظمها!!!.. هذه الغرفة كانت مليئة بالمرايا ذات يوم لسبب لا أفهمه!!!.. وهناك من كسرها لسبب لا أفهمه أيضا!!!!.

سألت (جود) بصوت هادئ وقد بدأت أشعر بتوتر لا أعرف سببه:

- ما الذي يجري؟!!.. ما الذي تشعرين به بالضبط؟!!.. أنا لا أستطيع مساعدتك إذا كنت لا تخبريني بشيء!!!.

قالت بهدوء زادني توترا:

- عندما أفهم شعوري.. سأخبرك.. صدقني!!!.

ثم.. انحنت فجأة لتمسك بإحدى قطع المرايا المكسورة لتبعد عنها الأتربة بيدها.. قبل أن تقول بصوت مرتجف:

- دكتور.. هناك شعور غريب لا أعرف كيف أصفه لك.. أشعر أنني أعرف هذا البيت جيدا.. وكأنني عشت هنا سنوات طويلة.. كيف تفسر ذلك؟!!.

حاولت السيطرة على أعصابي وقلت بخفوت محاولا إضفاء صبغة علمية على كلامي:

- لا يمكن أن تكوني قد أقمت في هذا البيت دون أن تتذكري مثلا.. ثم إن البيت مهجور منذ سنوات طويلة تفوق عمرك نفسه كما يبدو من البناء الخارجي.. إن ما تشعرين به هو ظاهرة (ديجافو) الشهيرة.. فأحيانا....

قاطعتني وهي تلوح بيدها:

- أعرف ما تريد قوله.. لكن الأمر يختلف معي صدقني..

شيء ما أخبرني أن آتي إلى هذه الغرفة.. وقد وجدنا فيها ما يثير الريبة كما ترى.. ألا تلاحظ كل هذه المرايا المكسورة؟!!.

مططت شفتي كناية عن جهلي.. قبل أن تلتفت إلي بحدة وبعينين متسعتين.. وكأنها تذكرت شيئا:

- هناك.. هناك أمر آخر.. اتبعني أرجوك!!!.

قالتها وهي تخرج من الغرفة متجهة مرة أخرى للطابق الأسفل دون أن تلتفت إلي.. فتبعتها وعلامات الغباء واضحة على ملامحي.. هنا -أصارحكم القول- بدأت أشعر بالخوف.. هذا البرد والظلام والبيت المهجور وتصرفات (جود) الغريبة التي لا أفهمها.. وكأن عقلها غائب عن هذا العالم!!!.. لكني رغم كل شيء.. ظللت أتبعها عبر الممرات وهي تمشي بثقة وكأنها تعرف طريقها جيدا!!!.. إلى أن قادتني إلى غرفة صغيرة للغاية في الطابق الأسفل لم يتم تبليطها.. بل كانت أرضيتها رملية!!!.. ربما هي غرفة المخزن.. فعلى حد علمي.. لم تكن كل غرف البيوت في الماضي مبلّطة.

وقفت بجانبها عند عتبة باب الغرفة دون أن ندخلها.. ثم قالت بهمس وهي تضع يدها على رأسها كناية عن التفكير العميق:

- هذه الغرفة يا دكتور.. إنها مخزن المؤونة في البيت.. انظر.. انظر إلى أرضية الغرفة جيدا!!!.

وجهت إضاءة هاتفي حيث أشارت.. هناك هبوط بسيط في الأرض!!!.. نظرت إليها وأنا لا أفهم ما تريد قوله.. قبل أن تقول باستنكار:

- ألم تفهم بعد؟!!.. هناك شيء مدفون هنا!!!.

سألتها في حيرة:

- لماذا تظنين ذلك؟!!.. هبوط أرضية الغرف لا يعني شيئا.. فأمور كهذه تحدث دوما.. البناء قديم ولا شك أنه سيتأثر بعد كل هذه الأعوام بالحر الشديد والإهمال.. هناك أسباب كثيرة تسبب هبوط أرضيات الغرف.. وليس بالضرورة أن يكون شيء مدفونا فيها!!!.

وكأن ما قلته كان بمنتهى الغباء!!!.. إذ ردت بحدة وهي تهز رأسها نفيا:

- لا.. لا.. لا.. الأمر أكبر من ذلك بكثير صدقني.. يجب أن نحفر هنا!!!.

قلت باستنكار:

- ما الذي تقولينه؟!!.. لماذا كل هذا الجهد والوقت الذي سنبذله في عمل أخرق لن يؤدي لشيء؟!!.

وجهت إلي نظرة حزينة منكسرة.. كانت واحدة من تلك النظرات التي تفاجئك بها أي فتاة جميلة وتجعلك مستعدا لتعبر المحيط سباحة لو طلبت منك!!!.. حقيقة لم أتمكن من الرفض.. لكن.. الواقع يقول إننا لسنا مهيئين لذلك ونحتاج إلى أدوات الحفر.. لذا قلت لها باستسلام أمام نظراتها الحزينة:

- حسنا.. حسنا.. يجب علينا أن نأتي إلى هنا مرة أخرى ومعي كل ما أحتاجه للحفر.

ابتسمت بامتنان شديد.. ثم قالت بحيرة زادتها جمالا:

- ربما تستطيع الاستعانة بأحد العمال ليساعدك على ذلك!!!.

رددت بسرعة دون أن أنظر إليها:

- هذا مستحيل.. نحن نقتحم مسكنا خاصا وإن كان مهجورا.. إن ما نفعله غير قانوني.. لكني أفعل ما أفعله من أجلك أنت فقط!!!.

قلتها وقد شعرْت أن في كلامي غزلا واضحا!!!.. فتنحنحْت

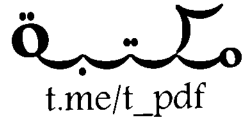
بحرج.. ورأيتها تطرق برأسها خجلا.. قبل أن أغير دفة الحديث وأتفق معها على المجيء هنا مرة أخرى مساء الغد بعد أن أجلب معي العدة اللازمة للحفر.. وقد حذرتني (جود) قبل رحيلنا من إبلاغ والدها بأمر مغامرتنا هذه.. بالطبع يا عزيزتي.. أنا لست حمارا!!!.

تكرر الأمر في وقت متأخر من مساء اليوم التالي.. فكانت (جود) معي في السيارة متجهين إلى ذلك البيت الغامض مرة أخرى.. لكن هذه المرة كانت بحوزتي عدة الحفر الكاملة.. معول.. ورفش.. مع مصباحين يدويين لي ولها.. كنت مستعدا جيدا هذه المرة كما ترون رغم أن الجو كان شديد البرودة ولا يشجع على أي نشاط كهذا.. لكن.. من يقوى على رفض أي طلب لهذا الملاك؟!!.

دخلنا البيت سويا وقد شعرت بشيء من الفرح حين رأيت (جود) تمشي بجانبي بخوف واضح إلى درجة الالتصاق بي.. حتى أنني سألتها بشيء من الاستغراب:

- إذا كنت تخشين المكان لهذه الدرجة.. فلماذا لا تنسين الأمر برمته وتعودين إلى بيتك؟!!.

ردت بارتباك:



- كيف تفسر غضب والدي وحرمانه لي من الخروج مع السائق بعد أن عرف أنني مررت بهذا البيت؟؟!!.. هناك سر مدفون هنا ويجب أن أعثر عليه.. ثم لا تنسَ ذلك الشعور الغريب الذي يسيطر علي.. ألم تسأل نفسك لماذا قدتك أمس إلى غرفة المخزن؟!!.. ولماذا قدتك قبلها إلى تلك الغرفة المليئة ببقايا المرايا المحطمة في الطابق العلوي وكأنني أعرف كل خبايا البيت وممراته وغرفه؟!!.. غريزة قوية أجهلها تقودني لكل هذا.. إنني أتبعها فحسب وأنا واثقة أنها لن تخذلني!!!.. أنا لا أفعل ما أفعله معك الآن بداعي المتعة.

وصلنا إلى غرفة المخزن أخيرا.. فألقيت نظرة سريعة على الهبوط البسيط في وسط الغرفة.. سأحفر هنا.. تماما كما تريد (جود).. وضعت كل الأدوات التي جلبتها معي على الأرض.. وأنرت مصباحي اليدوي ثم وضعته بدوره على الأرض.. وطلبت من (جود) بالمقابل أن تمسك المصباح الآخر وتوجهه إلى مكان الحفر.. ستكون مهمة شاقة بالنسبة لي.. أنا رجل العلم الذي لم أكن رياضيا يوما.. لكني رغم كل شيء.. لبست قفازا من الصوف جلبته معي خصيصا حتى أمسك بالمعول لأحفر به دون أن أؤذي يدي.. ولأشعر بشيء من الدفء بنفس الوقت بسبب البرد الشديد الذي جعل أسناننا تصطك رغم الثياب الثقيلة التي غطت أجسادنا.

و.. بدأت العملية الشاقة.. كنت أضرب الأرض بالمعول شاعرا بعضلاتي تتمزق.. لكني ظللت أتحامل على نفسي كي لا أظهر أمامها بمظهر الضعيف المتخاذل.. فكل شاب -مهما كانت بنيته الجسمانية- لا بد وأن يحاول أن يظهر للفتيات مدى قوته وبراعته..

أمسكت بعدها بالرفش وبدأت أحفر بكل قوتي وسط نظراتها المتحفزة وأنفاسي اللاهثة.. ظللت أحفر لأكثر من ساعة.. إلى أن شعرت أن الرفش قد اصطدم بشيء ما بعد أن وصلت إلى عمق لا يتجاوز ثلاثة أرباع المتر تقريبا!!!!.

أمعنت النظر جيدا.. وإذا بها.. وإذا بها بقايا جمجمة وعظام بشرية التي ما إن استوعبت وجودي فوقها.. حتى قفزت قفزا من الحفرة وكأنها موبوءة!!!!.. أما (جود) فقد شهقت وتراجعت لتخرج من الغرفة وهي تدفن وجهها بين راحتي كفيها وتبكي بهستيريا بشكل فاجأني كثيرا.

إنها.. إنها بقايا جثة.. وهي مدفونة هنا منذ سنوات طويلة للغاية كما هو واضح.. من يدفن جثة في بيت بمنطقة سكنية؟!!.. ليتني أعلم!!.. خرجت من الغرفة وأنا ألهث من شدة التعب ووقع المفاجأة.. واقتربت من (جود) التي كانت تبكي وترتجف.. لكنها لم تمنحني الفرصة لأتحدث.. إذ صرخت

باكية وتردد صداها في البيت وهي تقول:

- لا تسألني أي سؤال.. لأنني لن أعرف الإجابة.. لكني أؤكد لك أن بقايا تلك الجثة لامرأة.. ملامح صاحبة الجثة كانت تملأ عقلي قبل أن نأتي إلى هنا ونعثر عليها فعليا.. أنا واثقة من ذلك.. أنا أشعر أن روحها موجودة هنا.. دكتور.. البيت أكثر من طابوق وبناء.. البيت هو الأجواء والهواء وروح المكان.. أشعر أن روح هذا المكان شريرة!!!.. لقد فقدت فجأة ذلك الشعور بالألفة عندما رأيت البيت في المرة الأولى.. يا إلهي.. أنا ضائعة تماما.. أريد أن أفهم ما أمر به.. أكاد أن أجن.

قلت بصوت هامس لم يخلُ من الحدة محاولا أن أفرغ كل توتري بعد هذا الاكتشاف المخيف:

- هذا لا يعقل!!.. لقد تطفلت على حياتي بأكملها.. فقمت بزيارتي في شقتي.. وأخبرتِني بقصة غريبة لا تصدق.. بل وطلبت مني القدوم إلى هذا البيت والحفر هنا تحديدا لنعثر على جثة مدفونة هنا منذ سنوات طويلة؟!!.. لا يعقل بعد كل هذا أن تتصنعي الجهل عند كل سؤال أطرحه عليك!!!.

مسحت دموعها بيديها وهي تقول بعصبية:

- أخبرتك مرارا وتكرارا.. أنا لا أعرف أكثر مما تعرف..

مجرد مشاعر متضاربة في أعماقي طلبت مني أن أفعل كل هذا.. وكما ترى.. كل ما أخبرتك به حقيقي تماما.. لقد أيقظ هذا البيت شيئا مجهولا في أعماقي حين مررت بالقرب منه في المرة الأولى مع السائق.. حاولت أن أعرف الإجابة من والدي الذي اتخذ موقفا محيرا حين علم بالأمر وغضب دون سبب واضح.. لكنه أقسم أنني واهمة.. وأن سبب غضبه هو قلقه علي كوني ابنته الوحيدة ولا يريد أن أتعرض لأي مكروه أو أقدم على أي مغامرة حمقاء مثل محاولة دخول هذا البيت!!!.. وهو عذر أدرك جيدا أنه واه سخيف لكن والدي يصر عليه!!.. لا أحتاج إلى ذكاء لأعرف أن والدي يكذب علي ويخفي أمرا ما!!!.. ستعيد سؤالك؟!.. ستسألني كيف علمت بأمر وجود الجثة؟!!.. ليتني أعلم.. وإلا لما عشت هذه الدوامة من الألغاز.. هذا البيت اللعين.. السر الذي يخفيه عني والديّ.. المعاملة الفَظّة التي أتلقاها من والدتي فجأة دون سبب واضح حال عودتنا من (بريطانيا) واستقرارنا في (الكويت)!!!.. وذلك الضيف الغريب الذي يزور والدي بين الحين والآخر والذي أشعر بتوتر والدي بوجوده وكأنه مجبر على استقباله في بيتنا.. كلها أمور أشعر أنها مرتبطة ببعضها بقوة وإن كنت لا أفهم كيف!!!.

هذا الكلام لم يعد يهمني كثيرا الآن.. فقد كنت أفكر في

المأزق الذي وقعنا به.. فلا يمكن أن نبلغ الشرطة عن تلك الجثة لأننا سنقع في مساءلة قانونية عن سبب دخولنا لهذا البيت أصلا.. ولا يمكن إغفال الأمر وكأن شيئا لم يكن.. سيعتبر هذا تسترا على الجريمة.. وهي جريمة بحد ذاتها.. أفكر بعمق قبل أن أجد أن أفضل الحلول -وإن كان خاطئا- هو إعادة الجثة إلى مكانها وكأن شيئا لم يكن!!!.. ثم التفكير بتفاصيل هذه القصة علنا نكشف الأسرار المحيطة بها.. أو حتى نسيان الأمر برمته وكأن شيئا لم يكن.. والحل الأخير مغرٍ جدا كما ترون!!!.

تنهدت بعمق ورحت أملأ الحفرة بالتراب بسرعة وأخفي وجود الجثة بجسد يرتجف بردا ورعبا.. وقلب ينبض ككرة التنس!!.. حتى أنني لم ألتفت إلى (جود) إلا حين انتهيت من عملي.. فانتبهت إلى أنها لم تنطق بحرف طوال ربع ساعة تقريبا!!!.. لذا قلت لها وأنا أمط شفتي مستغربا من سكوتها:

- سأوصلك إلى بيتك الآن.. يجب أن نخرج من هنا بسرعة.. سنتحدث لاحقا و.....

لم أكمل عبارتي!!!.. فقد حدث شيء حبس أنفاسي وأصاب مفاصلي للحظة بالتصلب.. حتى أنني رميت الرفش من يدي وكدت أن أجري وأسابق الريح للخروج من هذا البيت الملعون من شدة الرعب!!!.. إذ سمعت من يقول:

- لا أريد الخروج من هنا.. إنني في بيتي.. والمرء لا يترك بيته أبدا!!!!.

لم يكن الكلام نفسه الذي أصابني بالصدمة.. بل الصوت.. صوت مبحوح مخيف وكأنه فحيح الأفاعي!!.. كان الصوت يخرج من (جود) نفسها.. نعم.. كانت تتحدث وكأنها امرأة عجوز!!!.. هناك مثل أمريكي يتردد دوما كناية عن التوتر والقلق وهو: ((توجد فراشات في بطني)).. لكن في حالتي هذه.. لم تكن هناك أي فراشات في بطني.. بل قطيع فيلة يلهو ويعبث!!!.. وما زلت أجهل كيف تماسكت في تلك اللحظة ولم أفقد تعقّلي.. إذ سألتها بصوت مرتجف وأسناني تصطك بقوة:

- لـ .. لـ .. لـ .. لماذا تتحدثين بهذه الطريقة؟!!.. لو كانت هذه مزحة فهي مزحة سخيفة.. لا تتحدثي بهذا الصوت مرة أخرى.

ظلت واقفة تنظر إلى اللامكان وكأنها لم تسمع كلامي.. و.. لأول مرة أشعر بالخوف الشديد من (جود) رغم ملامحها الجميلة الساحرة.. حتى أنني شعرت للحظة أنني سأفقد التحكم تماما بأعصابي.. بل وربما كنت على وشك فقدان التحكم بجهازي البولي كذلك.. لكن -لا أعرف كيف- بذلت جهدا هائلا حينها كي أحافظ على رباطة جأشي.. فلا أعلم

كيف تمكنت من الاقتراب منها ووضع يدي على كتفها محاولا إعادة وعيها للواقع.. قبل أن تنتفض فجأة وتعود إلى طبيعتها أخيرا!!!.

سألتها بذعر عما جرى لها.. فنظرت إلي بعينين زائغتين وهي تقول:

- دكتور.. دكتور.. أنا خائفة.. للحظة فقدت إحساسي بكل ما هو حولي.. لقد استحوذت صاحبة تلك الجثة على عقلي.. أستطيع أن أؤكد لك أن الجثة تعود لامرأة.. امرأة عجوز في منتصف الستينيات من العمر!!!.. نعم.. لقد كانت تناديني.. كان نداؤها يأتي من أعماق عقلي.. لقد خاطبتك بصوتها للتو بعد أن استحوذت على عقلي.. لا أعرف كيف حدث ذلك.. أشعر أنني أعرف تلك العجوز وأحمل جزءا من ذكرياتها.. بل وأعرف بعض أسرارها.. إنها امرأة مخيفة.. ساحرة ربما.. أو على اتصال بالجن.. هل أنا مصابة بمس من الجن يا دكتور؟!!.. أرجوك ساعدني.. أنا خائفة للغاية!!!.

امرأة عجوز؟!!.. كيف عرَفَت أن الجثة لامرأة عجوز؟!!.. كيف شعرت بهذا؟!!.. لا.. لن أبقى هنا دقيقة واحدة بعد الآن.. لقد فقدت كل ذرة تعقّل لدي.. فأمسكت بيد (جود) مخالفا كل الأعراف وسحبتها معي إلى الخارج.. حتى أنها

راحت تجري محاولة اللحاق بيدها التي كنت أمشي مسرعا وأسحبها معي!!!.. إنني أخشى هذا البيت الملعون ولا أفهم ما يجري فيه.. لنخرج منه أولا ثم سنحاول أن نفهم ما يحدث بعد ذلك!!!.

وهكذا ركبنا السيارة والساعة قد تجاوزت الثانية فجرا بقليل.. فتوجهنا إلى الحي السكني الذي نقطنه دون أن نتفوه بكلمة واحدة.. ثم قلت متحاشيا النظر إليها:

- لا أستطيع أن أساعدك أكثر من ذلك.. أتمنى ألا تتصلي بي بعد اليوم!!!.

التفتت إلي بذعر حقيقي وهي تصرخ:

- ماذا؟!!!.. ستتركني وحدي أمام كل ما أواجهه؟!!.. إنني أحتاج إليك بشدة.. لا يوجد من أثق به سواك.. فلا أعرف كيف سيتصرف والدي إذا علم بما حدث وواجهته بأمر الجثة.. إنني أشعر أن ليس من مصلحتي أن يعلم بما اكتشفناه للتو.. وأرجوك لا تطلب أن ننسى الأمر برمته وكأن شيئا لم يكن.. أمورا كهذه لا يمكن أن ننساها.. إنني أغرق في مستنقع أجهل كل تفاصيله وأحتاج مساعدتك بشدة يا دكتور!!!.

قلت بحدة:

- أولا.. لقد مللت من شعورك هذا.. كل نقطة تثير تساؤلاتي تكون إجابتك متعلقة بمشاعرك!!!.. إلى أين ستقودنا مشاعرك؟!!.. تشعرين بكذا.. وتشعرين بكذا.. هذا يكفي.. لن أحتمل كل هذه الألغاز.. ثم إنني سأخبرك بما أظنه صراحة.. يبدو لي أن والدك متورط بجريمة قتل منذ سنوات طويلة وقد دفن الجثة في هذا البيت وتخلص من آثار جريمته.. بل وربما كان البيت نفسه ملكا لوالدك.. ألم يخطر هذا ببالك؟!!.

ردت بحزن شديد:

- إنك تسخر من مشاعري؟!!.. ألم تقدنا مشاعري للبيت ولتلك الجثة يا دكتور؟!!.. هل لك أن تفسر لي اكتشافي لمكان الجثة؟!!.. ثم ماذا عن فقداني لأحاسيسي الشخصية وشعوري الغريب أنني قد تقمصت شخصية تلك الجثة التي أؤكد لك أنها كانت لامرأة عجوز؟!!.. لقد رأيت بنفسك ما حدث لي قبل قليل وسمعت الصوت الذي حدثتك به لا شعوريا.. هل تم كل هذا بفعل والدي أيضا؟!!.

كلامها منطقي تماما بالطبع.. لكني قلت مصححا:

- نحن لا نعرف حتى الآن إن كانت بقايا تلك الجثة التي عثرنا عليها هي لامرأة عجوز أصلا.. تذكري هذا.

قالت بحزن وكأنها تعرف أنني لن أصدقها:

- لكن أنا أعرف ذلك يا دكتور.. وأثق بدقة ما أقوله لك.. صدقني.. لقد رأيت العالم فجأة بعيني تلك العجوز.. شعرت أنني أعيش حياتها لحظة بلحظة.. ولم أحب ما رأيته أبدا.. رأيتها تصرخ بجنون واضح وتضرب رأسها بالحائط إلى أن نزف بغزارة.. رأيتها تحاول ارتكاب جرائم قتل.. بل وتحاول قتل ولدها الوحيد!!!.. قبل أن تعيدني أنت إلى عالم الواقع.. كيف تفسر كل هذا؟!!.. هل هو مس من الجن؟؟!!.

زفرت بقوة وأنا أقول باستسلام:

- حسنا.. ربما سأجد تفسيرا لما يحدث.. أحتاج إلى البحث والتفكير في الأمر.. فلتعودي إلى بيتك الآن.. أرجوك كوني حذرة كي لا يراك أحد.. سأتصل بك حالما أكتشف شيئا.. وعليك أنت أيضا الاتصال بي متى ما استجد أي جديد.. لكن يجب عليك أن تخفي تماما سر خروجنا الليلي المريب هذا.. تعرفين ذلك بالطبع.

هزت رأسها موافقة بانكسار.. لتنزل من سيارتي وهي تودعني ببرود.. ثم راحت تمشي بقية المسافة لتصل إلى بيتها.. أما أنا فقد دخلت شقتي وأخذت حماما ساخنا أشعرني بالدفء أخيرا.. وبالنظافة.. بعد عملية الحفر الشاقة التي أدخلتني إلى

لغز لا أفهمه.. لكنه لغز كبير ومخيف كما يبدو.. حتى إنني دائما يكون لدي ما أكتبه أو أرسمه على مرآة الحمام التي ملأها البخار بعد استحمامي.. لكني تجاهلتها تماما هذه المرة.

جلست بعدها على الفراش وقد أعددت لنفسي كوبا من الشاي الأخضر كعادتي كلما أردت الاسترخاء.. ولا أنكر أنني تركت أنوار الشقة مضاءة مع جهاز التلفزيون كي أشعر بالصحبة الآدمية.. فما زالت روحي ملوثة بما رأيته في ذلك البيت قبل قليل!!!.. هناك نقاط عديدة لا أعرف أين ممكن أن تلتقي وقد ذكرتها لكم كثيرا.. السر الذي تدّعي (جود) أن والديها يخفونه عنها.. سوء معاملة والدتها المفاجئ لها.. الرجل الغامض الذي يزورهم بين الحين والآخر والذي يطرح عليها أسئلة شخصية بطرق غير مباشرة.. النداء الغريب الذي شعرت به في أعماقها عند رؤيتها لذلك البيت أول مرة.. وصحة هذا النداء كما تأكدنا بعد أن وجدنا الجثة.. ثقة (جود) الكاملة أن الجثة تعود لامرأة عجوز استحوذت للحظة على عقلها وجعلتها تتحدث بلسانها وصوتها.. ألغاز.. ألغاز.. ألغاز ازدحمت في عقلي إلى أن غالبني النعاس بعد تلك الليلة الشاقة المخيفة.. ولا أنسى أنني أقفلت باب غرفة النوم بالمفتاح.. فعندما نشعر بالخوف.. نتصرف بطريقة غير عقلانية!!!!.

لم يتغير شيء في الأيام القليلة التي تلت تلك الحادثة.. فقد مارست حياتي الطبيعية لكن بذهن مشغول تماما.. إذ لم تخرج تفاصيل هذه القصة من حيز تفكيري إطلاقا.. لكني لم أعثر على أي إجابات لتساؤلاتي رغم ذلك.. وكنت في الواقع أنوي الاتصال بـ (جود) بعد بضعة أيام أخرى لأخبرها أنني عاجز تماما عن تفسير ما حدث.. وهو أمر أكره الاعتراف به.. لكني لا أريد أن أخدعها وأجعلها تتعلق بأمل زائف.. كما أنني بصراحة لم أعد متحمسا كثيرا للقائها كما كنت في السابق بعد تلك الليلة المشؤومة.. وكنت أرغب بإنهاء أي تواصل معها.

لكنها لم تنتظر اتصالي.. بل اتصلت هي لتفجر مفاجأة جديدة ومخيفة!!!.. فقد أخبرتني أنها بدأت تتقمص شخصية المرأة العجوز صاحبة الجثة -على حد قولها- مرة أخرى وأخرى ولفترات أطول من الزمن دون أن تشعر بنفسها!!!.. فتتحدث بصوتها.. وتصرخ مثلها.. وتأتي بتصرفات مخجلة لا تقدم عليها فتاة عاقلة.. حتى أنها سببت الرعب لوالديها.. فحبسها والدها في غرفتها بعد أن أقدمت على فعل شنيع لا يصدقه عقل.. ولا أعرف في واقع الأمر إن كنتم ستصدقون ما سأخبركم به أم لا!!!.

حسنا.. تقول (جود) أن والدها حبسها في غرفتها لأنها

خرجت من البيت وخطفت طفل الجيران الصغير الذي لا يتجاوز عمره السنتين من الخادمة التي كانت تحمله وتتنزه به في الحي.. وأدخلته سريعا إلى بيتها وسط اعتراض الخادمة التي لم تفهم ما يجري.. ثم.. ثم.. حاولت وضع الطفل في قدر من الماء المغلي في المطبخ!!!!.. هل تشعرون بالصدمة مثلي؟؟!.. لا ألومكم على ذلك.. أعرف بشاعة الأمر.. صدقوني لقد صعقت مثلكم تماما.. وأصبت بذات الرجفة التي أصبتم بها!!!.. ولا داعي أن أذكر أن والد (جود) قد اعتذر كثيرا للجيران عما حدث وإن لم يخبرهم بالطبع بمحاولة ابنته لحرق طفلهم بالماء الساخن.

تقول (جود) إنها لا تعرف متى وكيف تسللت إلى خارج البيت وخطفت الطفل من الخادمة بعنف.. بل ولم تسمع حتى صرخات الخادمة واعتراضها!!!.. إلى أن عادت فجأة لعالم الواقع لترى نفسها محاطة بوالديها وهما يمسكان بها ويأخذان الطفل منها قبل أن تفعل ما كان واضحا أنها ستفعله!!!.. هل ما تمر به هو ازدواج شخصية؟!.. لا أعتقد ذلك.. فهذا المرض لا يصيب الإنسان بسهولة.. بل يحتاج إلى صدمات نفسية وحياة مفككة مشوبة بالخلافات والأزمات العائلية.. دعكم من أنها صدفة غريبة أن يحدث كل هذا فجأة بعد اكتشافنا لتلك الجثة.. لا يوجد سوى تفسير واحد أكره كثيرا أن أعترف

به.. ما هو ذلك التفسير؟!!.

عزيزي القارئ.. أنا رجل علم.. ودائما أشعر بالفخر بطريقة تفكيري العلمية.. وقد اعتدت ألا أنسب أي قصة غريبة تمر علي لظاهرة الجن كما يفعل عامة الناس.. بل إنني واثق أن الكثيرين يجهلون أن حوالي 99% من حالات الجن اتضح أنها ليست سوى ما يطلق عليه اسم (تأثير الغفلة) أو (Placebo Effect)* وهو مرض نفسي بحت.. وهذا ليس إنكارا للجن.. إنما هو دليل علمي على أن هناك الكثير من الأمور الغريبة التي قد يكون لها تفسيرات علمية بسيطة بعيدة عن عالم الماورائيات.. لكني في هذه القصة تحديدا..

---

* حقيقة.. ويعتبر (تأثير الغفلة) مرض نفسي يقوم خلاله العقل الباطن بإطلاق طاقات كامنة.. ليتوهم الإنسان أن هناك روحا شريرة أو مسّا من الجن يسكنه.. ولكنه يصبح أفضل حالا إذا أخذ ما يظن عقله الباطن أنه يشفيه أيضا.. كقراءة القرآن الكريم مثلا أو أي وسيلة أخرى.. وبالطبع لا نقول هنا أن حالات مس الجن كلها وهم.. إنما عدد هائل منها اتضح أنه كذلك وأنه ليس سوى (تأثير الغفلة).. وتجدر الإشارة أنه من الممكن استخدام (تأثير الغفلة) في علاج المرضى بأمراض عضوية أيضا.. فقد قام أحد الأطباء باستخدام تلك الطريقة بالفعل لعلاج مرضاه من السرطان.. فأعطاهم دواء مزيفاً وقال لهم إن هذا الدواء جديد وسيساعدهم على التخلص من السرطان.. وبالفعل!!.. ظهر بعض التحسن على المرضى من جراء أخذهم لما اعتقدوا أنه يشفيهم.. لذا فعند اختراع دواء ما.. يتم التأكد من خلال عدة اختبارات أن تأثيره فيزيائي أيضا وليس نفسي فقط.

وجدت نفسي أتجه تلقائيا إلى فكرة الجن وربما إلى فكرة التلبُّس* تحديدا.. لم يكن من العسير أن يمر ذلك التفسير في ذهني لأنني قرأت كثيرا عن هذا الأمر.

فكل ما يحدث حولي يشير إلى ذلك.. (جود) تتحدث بصوت متحشرج مخيف وكأنه صوت امرأة عجوز.. ثم تبدأ تتصرف بصورة غريبة وهي غائبة عن عالمنا.. لاحظوا أنني لم أقل إنها غائبة عن الوعي.. بل غائبة عن عالمنا.. تتصرف دون وعي أو إدراك وكأنها مسيّرة بقوة غريبة.. هذه أعراض التلبُّس دون شك والتي لم أظن أنني سأشهدها يوما في واقع الحياة!!!.

هناك تفسير آخر تحدثت عنه الأفلام كثيرا حتى أصابتنا بالملل.. تعرفون بالطبع تلك القصص والأفلام التي تتحدث عن جثة مخفية في بيت ما.. ثم تبدأ أمور غريبة بالحدوث وهي كلها من صنع روح تلك الجثة التي تطلب المساعدة من سكان البيت لتقتص من قاتلها!!!.. لقد شاهدت تلك الفكرة في 10

---

* التلبُّس Possession: فقدان شخص لجزء من ذكرياته ومهاراته الحياتية واكتساب مجموعة جديدة اكتساباً جاهزاً عن طريق روح أخرى تتلبّسه وتفرض طباع صاحبها عليه.. وغالباً ما تكون هذه الروح قد مات صاحبها ميتة قسرية.. هذا ما يؤكده المتعمقون في الروحانيات.. لكنه يبقى كلاما محل جدل لم يتمكن أحد من إثباته أو نفيه حتى الآن بصورة قاطعة رغم الكثير من القصص الحقيقية التي ذكرتها المراجع العلمية والتي تعتبر فكرة التلبُّس تفسيرا مناسبا لها.

أفلام على الأقل.. لكن ماذا عن عالم الواقع.. هل شيء كهذا ممكن في عالم الواقع؟!!.. لا أعلم.

قطعت سيل تساؤلاتي بنفسي حين سألت (جود) بحيرة شديدة:

- هل حاولت التحدث مع والديك بعد تلك الحادثة؟؟!.. هل أخبراك بأي شيء غير عادي؟!!.

ردت بصوت باك:

- لقد أقسمت لهما إنني تصرفت وكأنني مسلوبة الإرادة.. وكأن هناك قوة غريبة تسيطر علي وتجبرني على وضع ذلك الطفل في الماء المغلي.. وأن الجثة التي عثرت عليها في ذلك البيت كانت السبب الرئيسي لـ......

قاطعتها بذعر:

- هل أخبرتِهم بأمر الجثة؟!!.. ألم تعديني أن يكون الأمر سرا بيننا؟!!.. إنك تورطينني في مشكلة حقيقية أيتها الحمقاء.. لقد ساعدتك وبذلت كل جهدي للعثور على إجابات للألغاز المحيطة بحياتك.. هل هكذا يكون رد الجميل؟!!.. إن والدك يستطيع أن يضعني في مأزق الآن خاصة بعد أن.....

قاطعتني بدورها بحنق وكأن هذا آخر ما تفكر به:

- لم أخبرهم أي شيء عن مساعدتك لي رغم أنهم يضغطون علي كثيرا لمعرفة المزيد وكيفية وصولي إلى ذلك البيت.. فقط قلت لهم إنني هربت من بيتنا ليلا واستعنت بعامل ليحفر لي ويستخرج الجثة من تلك الغرفة.. ثم دفعت له مبلغا باهظا ثمنا لسكوته.. لم يصدقا كلامي لكني أصريّت عليه.. قلت لهما إنني كنت أشعر منذ أيام بوجود شيء ما في ذلك البيت.. واتضح أنني محقة.. لكن.. هل تعرف ما هو الغريب يا دكتور؟!!.. لقد لاحظت أن والدي لم يشعر بأي مفاجأة حين أخبرته بأمر الجثة.. لقد بدا لي وكأنه يعلم جيدا بالأمر.. حتى والدتي تعلم.. أكاد أن أقسم بذلك!!!.

لم أجد ما أقوله أمام هذه المفاجآت المتتالية!!!.. فأنهيت المكالمة على وعد بالاتصال قريبا رغم اعتراضها الشديد ورجائها لي بمساعدتها كون والديها يعزلانها تماما عن العالم كما تدعي.. وأن هناك احتمالا لا بأس به أن يأخذا منها هاتفها النقال أيضا!!!.. لكني وعدتها أنني لن أتخلى عنها أبدا.. وقد عادت تفاصيل تلك القصة لتثير فضولي مرة أخرى بحق.. فحتى فكرة التلبُّس التي حدثتكم عنها لا تشرح كل شيء.. هناك أمور غريبة غير مفهومة تتعلق بتلك العائلة.. (جود) الآن سجينة في بيتها كما تدعي!!!.. ووالدها لا يسمح لها أبدا

بمغادرة غرفتها بعد محاولتها قتل ذلك الطفل.. وهو يرفض حتى مناقشتها بالأمر واستيضاح سبب ما تفعله على الأقل.. هذا غريب بالفعل!!.. ألا تثير تصرفاتها فضوله مثلا؟!!.. هل من الممكن أن (جود) تكذب؟!.. لماذا؟!!.. ولمصلحة من؟!!.. هل ارتكب والدها جريمة قتل في الماضي وقد بدأت تفاصيلها تنكشف الآن؟!!.. هل كان الهيكل العظمي الذي وجدناه هو نتاج جريمته؟!!.. ولو كان الأمر كذلك فهل الضحية هي امرأة عجوز بالفعل كما تقول (جود)؟!!.. من هي تلك المرأة العجوز أصلا؟!!.

لم تخرج أحداث تلك القصة من ذهني طوال اليومين التاليين.. فكنت أزور بيت العائلة لأرى والدتي وأمارس عملي في المستشفى لكن بذهنٍ مشغول وبشكل أثار انتباه الجميع.. إنني إنسان علمي وعملي للغاية.. وأكره أن تكون هناك أسئلة تطرح في كل مكان حولي دون أن أعثر لها على إجابة.. إن هذا يضايقني كثيرا.. أريد العثور على إجابات لما يحدث مهما كلف الأمر.

حاولت بعدها أن أتصل بـ(جود) لأعرف إن كانت هناك أي تطورات جديدة في حياتها.. فكان هاتفها النقال مغلق!!!.. اتصلت بها مرة أخرى في الأيام الثلاث التالية دون جدوى.. فشعرت حينها بقلق بالغ.. هل أخذ منها والدها هاتفها

النقال كما أخبرتني؟!!.. لا أعلم.. فكرت في الخروج من شقتي لأمشي بجانب بيتهم علني ألحظ شيئا غير عادي.. وقمت بتلك الخطوة بالفعل.. لكن.. بالطبع البيت من الخارج ينطق بالفخامة فحسب ولن تكشف ما يحدث في داخله من أسرار.. هذه الأسرة غريبة بالفعل!!!.

ثم.. قفزت إلى ذهني نقطة بالغة الأهمية لا أعرف كيف لم أنتبه لها سوى الآن!!.. حتى شعرت أنني تصرفت بغباء شديد بالفعل.. نعم.. فلماذا أصدق كل ما قالته لي (جود)؟!!.. ربما تكذب علي ببعض الأمور المتعلقة بحياتها.. يجب أن أضع في الاعتبار أن كل ما أعرفه عنها وعن عائلتها كان على لسانها هي.. فأنا لم أتحدث إلى والديها من قبل.. ولم أسمع رأيهما بما يحدث.. ربما تكون ابنتهما مختلة عقليا مثلا لكنهما لا يريدان إيداعها في مستشفى الأمراض العقلية درءا للفضيحة!!!.. يا لي من أحمق!!!.. كيف لم أفكر بهذا الاحتمال منذ البداية؟!!.. لقد تصرفت كمراهق بسبب جمالها الذي فتنني وأنساني كل تفكير علمي.. فكنت أحاول أن أتجنب أفراد عائلتها وألا أجعل والدها يعلم أنني على اتصال بها.

لذا فقد فكرت بخوض مغامرة بسيطة.. وهي الذهاب إلى بيتها ومواجهة والدها ومصارحته بكل شيء.. نعم.. فكرة بسيطة لكنها فعالة للغاية كما ترون.. كنت قد قررت أن أضع

هذه الفكرة قيد التنفيذ بعد يوم أو يومين لولا ذلك الاتصال الذي جاءني بصورة مفاجئة.. لا.. لم يكن الاتصال من (جود) هذه المرة.. بل من والدها نفسه!!!.. نعم.. لقد صعقت بتلقي اتصال هاتفي منه وهو يصرخ فجأة دون أي مقدمات:

- أيها اللعين؟!!.. ماذا فعلت بابنتي؟!.. لقد هربت من البيت منذ الأمس.. ولا نعرف أين هي!!!!.

بالطبع انعقد لساني تماما أمام هذا الخبر والهجوم المفاجئ.. خاصة وأنه لم يمنحني أي فرصة للرد.. إذ أكمل بذات العصبية:

- لا تكذب.. أنا أعرف أنك كنت معها وساعدتها في الوصول إلى ذلك البيت واستخراج الجثة.. لقد أخبرتني بكل شيء!!!!.

هذه اللعينة الكاذبة.. أي لعبة تمارسها؟؟!!.. لقد اعترفت لهم بكل شيء ووضعتني بمأزق أمام أهلها.. أجبت الأب بتوتر شديد وقد قررت مصارحته:

- أنا لا أعرف مكانها يا سيدي.. ولم أكن أعرف أصلا أنها هربت من بيتك!!!.. هل أبلغتم الشرطة؟!!!.

وكأن إجابتي لم تعجبه.. إذ لم يجب على سؤالي.. بل صرخ

بكل قوته حتى كدت أسمعه دون الحاجة إلى هاتف:

- أيييييين ذهبااااااات إذااااااا؟؟؟؟؟.. لقد وضعتنا في مأزق أيها اللعين.. كيف سنجد ابنتي الآن.. كاااااااايف؟؟!!.

شعرت للحظة أنه سيصاب بالجنون لصراخه هذا.. لكنني رغم كل شيء.. قلت بذات الهدوء محاولا احتواء غضبه:

- أؤكد لك يا سيدي أنني لا أعلم أين هي.. أنا إنسان شريف لا أركض وراء شهواتي.. ولن أفعل ما يؤذي ابنتك أو يؤذي عائلتها.

أقفل الخط بوجهي فجأة.. وتركني متوترا.. قلقا.. تائها!!!.. أين من الممكن أن تكون (جود)؟!!.. إلى أين هربت بالضبط؟!!.. لا يمكن أن تكون قد ذهبت إلى أقاربها مثلا.. من المؤكد أن والدها قد سأل عنها عند جميع أقاربهم.. مهلا.. مهلا.. مهلا.. هل من الممكن؟!!.. هناك فكرة غريبة طرأت بذهني للتو!!!!.. لكن.. يجب التأكد منها بنفسي.

كانت الساعة تقارب الثامنة مساء.. حين ارتديت ثيابا ثقيلة تقيني من البرد وركبت سيارتي متجها إلى ذلك البيت المشؤوم مرة أخرى.. نعم.. البيت الذي عثرنا فيه على تلك الجثة.. ربما تكون (جود) موجودة هناك لسبب ما.. وإن كان الإقدام على تلك الخطوة يصيبني بالرعب.. لكن الفضول

يقتلني وأريد أن أعرف ما يحدث.. يا إلهي.. رأسي يدور.. توجد أمور كثيرة غامضة تحتاج إلى تفسير.. لكن من الذي سيفسرها لي إذا كانت بطلة القصة نفسها لا تعرف شيئا عن أي شيء؟!!!.

عموما.. إذا لم أعثر على (جود) في ذلك البيت.. سأتصل عندها بوالدها وأهدده علانية أن يخبرني بكل ما يعرفه وإلا سأخبر الشرطة بأمر تلك الجثة.. وهو تهديد لن أنفذه بالطبع لأن الاتصال بالشرطة سيفضح اقتحامي للبيت كما تعلمون.. لكن.. ربما لن ينتبه والدها لهذه النقطة.

كنت أقول هذا الكلام لنفسي وأنا أتجه إلى ذلك البيت القديم وقلبي يدق بعنف شاعرا أنني على أعتاب اكتشاف مذهل.. وكأنني أحد لصوص المقابر الفرعونية الذين يلهثون وراء الكنوز التاريخية لكنهم يشعرون بالرعب أثناء نبشهم لتلك المقابر.. ولا أنكر أنني شعرت بدوري برهبة شديدة بالفعل حين أوقفت سيارتي أمام بوابة البيت الصدئة المفتوحة.. لكني تمالكت نفسي ونزلت من السيارة محاولا السيطرة على أعصابي.

رحت أمشي مرتجفا وأنا أتذكر دخولي البيت نفسه منذ حوالي أسبوع وما تلا ذلك من أحداث مرعبة!!!.. لا أريد أن أتذكر المزيد وإلا سأترك كل شيء وأعود لأندس تحت اللحاف

في شقتي الغالية.. لكن.. قد يكون مصير تلك الفتاة معلقا بي.. ولو أصابها مكروه فلن أحتمل تأنيب الضمير أبدا.. لهذا اخترت مهنة الطب النفسي.. أنا أحب مساعدة الناس.. أحتاج من يحتاجون إلي.. لقد كنت أردد دوما أنك إذا ما أردت أن تشعر بالسعادة.. فيجب أن تساعد الناس ليشعروا بدورهم بالسعادة!!!.. هذه هي فلسفتي في الحياة.

دخلت أخيرا.. ورحت أمشي في أنحاء البيت بحذر شديد وأنا أمسح كل ركن فيه بالمصباح اليدوي الذي أحمله بيدي.. هل سأصرخ مناديا (جود)؟!!.. لا.. سأشعر بالخوف حين يتردد صدى صوتي في كل مكان حولي.. مهلا.. لأذهب إلى تلك الغرفة الصغيرة حيث وجدنا بقايا الجثة.. قد تكون (جود) هناك.. لماذا؟!.. لا أعلم.. و.. وصلت إلى الغرفة في لحظات.. وكانت أمامي مفاجأة حقيقية!!!.

لقد أخفى أحدهم معالم الحفرة تماما ليتم إخفاء مكان الجثة على ما يبدو.. أنا لم أقم بهذا العمل.. بل ردمت الحفرة بإهمال قبل أن أهرب إن كنتم تذكرون.. هل استخرج أحدهم الجثة وخبأها بمكان آخر مثلا؟!.. من فعل كل هذا؟!.. يتردد السؤال في ذهني مرة أخرى وأخرى.. من هو صاحب (أو صاحبة) تلك الجثة.. ألم يسأل أحد طوال تلك السنوات عن اختفائها؟!.. وهل الجثة هي لامرأة عجوز كما تصر (جود)؟!..

لا أعلم أيضا.. كنت أنوي طرح تلك التساؤلات على والدها ومواجهته عند اتصاله.. لكنه لم يمنحني الفرصة.

رحت بيد مرتجفة أمسح جدران الغرفة وأرضيتها مرة أخرى بضوء مصباحي وعقلي يبحث عن إجابات.. قبل أن أشعر بحركة مريبة خلفي!!!.. التفت بذعر.. لكني لم أجد الوقت لأدرك ما يحدث.. إذ فوجئت بضربة قوية للغاية على رأسي.. ضربة لم تفقدني الوعي.. لكنها كانت قوية بالفعل.. فوقعت على الأرض وقد شعرت بالدماء تنفجر من قمة رأسي وتنزل بغزارة على وجهي حتى كادت تغطي عيني!!!.

هل شعرت بالخوف؟!!.. بالألم؟!!.. لم أشعر بشيء.. ربما الذهول فقط أن شيئا كهذا يحدث لي!!!.. أنظر بصعوبة وألم محاولا التعرف على هوية ذلك المعتدي.. قبل أن أكتشف أنها هي.. (جود) نفسها!!!.. أقسم إنها كانت أقبح من أقبح فتاة رأيتها في حياتي.. شيء في ملامحها كان مخيفا للغاية.. تنظر إلي بطريقة شيطانية مخيفة لم أعهدها بأي إنسان.. شعرها منكوش.. ثيابها ممزقة حتى إنني استغربت عدم شعورها بالبرد في مثل هذه الأجواء!!!.. الغريب أنها لم تقل شيئا.. بل كانت تضحك بسخرية شيطانية وهي تقوم بتوثيق يدي وساقي بطريقة احترافية.. وكأنها اعتادت على تقييد الناس!!!.

سألتها بصوت منهك مبحوح ورأسي يدور من قوة الضربة والنزيف الذي يبدو أنه لن يتوقف أبدا:

- مـ. مـ. ماذا تفعلين؟!!.. لقد جئت للبحث عنك ومساعدتك؟؟؟!.

لم تلتفت إلى كلامي إطلاقا.. بل أكملت عملها وقيدتني ببراعة واضحة جعلتني عاجزا تماما عن تحريك يدي وساقي.. ثم قالت بسخرية بغيضة وبذات الصوت المبحوح المخيف الذي يشبه صوت العجائز كثيرا:

- سأخبرك بما سأفعله بك خطوة بخطوة.. سأهشم أصابع يديك بالمطرقة واحدا تلو الآخر!!!.. ثم سأقوم بحرق قدميك حتى تتعفنا.. وبعدها.. وبعدها سأذهب إلى عينيك.. سأقتلعهما من محجريهما بالسكين!!!.. وأخيرا سأقطع لسانك.. ستخرج من هذا المكان روحا بلا جسد!!!!.. فما الهدف من قتلك بسرعة إذا كنت أستطيع الاستمتاع بقتلك ببطء شديد؟!!.

طبعا كان ما قالته كفيلا كي أنسى تماما إصابة رأسي.. فرحت أصرخ بصوت مرتفع محاولا أن ألفت انتباه الجيران شاعرا أنني في الجحيم نفسه.. ولست في بيت لا يبعد كثيرا عن شقتي.. لكنها أخرستني بعد أن وضعت في فمي منديلا شديد القذارة.. وقامت بعدها بوضع شريط لاصق على فمي!!!.. من

أين جاءت بكل هذا؟!!.. يبدو أنها كانت مختبئة هنا وظلت تتربص بأي دخيل.. لا أعلم.

عزيزي القارئ.. لقد شعرت لأول مرة في حياتي أن هناك سقفا للمخاوف.. وقد أوصلتني تلك اللعينة إلى ذلك السقف بالفعل.. لذا أقولها لك بكل ثقة إنها كانت أشد اللحظات رعبا في حياتي بلا منازع.. سأتعرض الآن لعملية تعذيب بشعة.. إنني أكره ممارسة التعذيب حتى على أكثر من أكرههم في هذا العالم.. وأشعر أن من يقوم به أدنى من درجة إنسان.. بل لا يصح إطلاق لقب إنسان عليه أصلا!!!.

لكن.. انقطعت مخاوفي فجأة وظهر الأمل مرة أخرى حين رأيت رجلين يظهران من خلف (جود) ويمسكان بها محاولين تكبيلها والسيطرة عليها.. ألقيت نظرة سريعة على الرجلين.. إنه والدها.. مع رجل آخر طويل القامة كبير في السن كما بدا للوهلة الأولى.. إلا أنه بدا أيضاً بصحة جيدة للغاية قياسا لعمره.

لم أفهم ما يحدث وإن كنت قد شعرت باطمئنان كبير كوني نجوت من عملية التعذيب تلك.. الغريب أن (جود) كانت تقاوم بكل قوتها وهي تشتم والدها بأقذر الشتائم التي يخجل أقل البشر انحطاطا من التفوه بها أمام والده!!!.. وما زاد شتائمها بشاعة هو صوتها المبحوح المخيف الذي

باتت لا تتحدث إلاّ به وكأنه صوتها الحقيقي.. هل هو صوتها الحقيقي بالفعل؟!!.. لم أعد أعرف شيئا.

كان الاشتباك قويا مرهقا للرجلين كما هو واضح.. وكان فيه والدها الطرف الأضعف.. ولولا الرجل الذي جاء برفقته لربما وجدتم والدها مقيدا بالقرب مني لننال معا نفس المصير.. إنني واثق الآن أن هناك روحا شريرة تتقمص هذه الفتاة.. وأنها ليست مسؤولة عن تصرفاتها.. فنظرية التلبُّس التي أخبرتكم عنها تجيب على بعض التساؤلات حول ما يحدث.. وكأنني أعيش فيلم (طارد الأرواح الشريرة) الشهير!!!.. لكن هذا لا يجيب على كل شيء.. هناك ألغاز كثيرة ما زالت تحيط بهذه القصة.

بعد لحظات من الكر والفر.. تمكن الرجلان أخيرا من السيطرة عليها.. فوقع الأب أرضا وهو يلهث بقوة بعد أن تمزقت ثيابه.. أما الرجل الآخر فقد أخرج من جيبه حقنة وغرسها في ذراع (جود) لتتهاوى وتفقد وعيها بسرعة.. إنها إبرة مهدئة دون شك.. ثم قام بفك وثاقي وراح ينظر إلى جرحي.. قبل أن يقول بلغة إنجليزية:

- إصابتك ليست خطيرة لحسن الحظ.. ربما ستحتاج إلى غرزتين في الرأس.. يجب أن نخرج من هنا أولا.. سنذهب إلى بيت السيد (سعود)!!!.

السيد (سعود)؟!!.. يبدو أن هذا اسم والد (جود).. إنني لم أسأله عن اسمه أبدا كما تعلمون.. مهلا.. هذا الرجل أجنبي.. لقد تحدث بلغة انجليزية سليمة للغاية وبلهجة بريطانية واضحة.. لكن.. لا تبدو لي ملامحه أجنبية إطلاقا!!!.. طردت هذا الخاطر من ذهني.. فهناك ما هو أهم الآن.. خاصة حين قال والد (جود) -أو السيد (سعود) بعد أن عرفنا اسمه- بوهن:

- لا.. لا.. لا يمكن أن أذهب إلى بيتي.. لا أريد أن تراني زوجتي بهذه الصورة.. لقد تمزقت ثيابي في أكثر من موضع.. وهناك بعض الخدوش على ذراعي ووجهي.. لا أريد أن أخيفها.. المسكينة نالت من الرعب ما يكفيها في الأيام الماضية.

قلت وأنا ألهث واضعا يدي على رأسي بعد أن فك الرجل الآخر وثاقي:

- لنذهب.. لنذهب إلى شقتي.. إنني أعيش وحيدا.. سنكون بمأمن هناك من أعين المتطفلين.. آمل ألا يرانا أحد الجيران.. آمل ألا يرانا أحد الجيران!!!.

وكأن ما قلته لهما كان حبل النجاة.. إذ نظرا إلى بعضهما نظرة من طراز ((فلنسمع - كلام - هذا - الشاب - ونذهب - معه)).. وبالفعل.. نهضنا من مكاننا ونحن بأسوأ حال

ممكن.. كنت أمشي بصعوبة ورأسي يدور بقوة من شدة الألم وقد أخذت المنديل المتسخ الذي وضعته تلك اللعينة في فمي وغطيت به جرحي الذي لا يزال ينزف.. أما الأب فكانت ثيابه ممزقة بالكامل بالفعل وبدا منظره مضحكا إلى حد ما.. خاصة وهو يعرج بشكل واضح في مشيته.. يبدو أن ابنته أصابته في ساقه.. في حين كان الرجل الآخر أفضل حالا منا.. لذا حمل (جود) بيديه وكأنه يحمل طفلة نائمة.. متجهين جميعا إلى سيارة والدها.. سأترك سيارتي هنا وآتي غدا لأخذها.. المهم الآن أن أعالج رأسي وأفهم ما يدور حولي.

وصلنا إلى شقتي أخيرا.. فنزلنا من السيارة وصعدنا الدرج المؤدي إلى شقتي بسرعة وقلبي يدق بعنف خوفا أن يرانا أحد.. كيف سنفسر منظرنا المزري ووجود فتاة غائبة عن الوعي معنا؟!!.. لكن.. لحسن الحظ لم يرنا أحد.. لذا دخلنا الشقة وتنفسنا الصعداء أخيرا.. فقام ذلك الرجل الغريب الذي لا أعرف شيئا عن هويته حتى الآن بوضع (جود) على الأريكة وهي تغط بنوم عميق بفعل الحقنة.. ثم ارتمى كل منا على الأرض ونحن نزفر جميعا بقوة بعد تلك الليلة العصيبة!!!.

لمحت الرجل الغريب وهو ينظر حوله وكأنه يبحث عن شيء.. ثم نهض ليتجه نحو المطبخ دون استئذان.. بالطبع.. فالوقت غير مناسب أبدا لقواعد اللياقة.. المهم أنه عاد من

المطبخ بسرعة ممسكا بزجاجة ماء جاء بها من الثلاجة.. وسكب بعضا منها على منشفة نظيفة.. وراح بعدها يمسح وجهي.. ويمسح مكان الجرح على رأسي مما أشعرني بشيء من الانتعاش.. قبل أن يقول بلغة إنجليزية:

- هذا لا يكفي.. سأذهب الآن إلى أقرب صيدلية لأشتري لك كل الضمادات اللازمة.. لا تخشيا من (جود).. لن تستيقظ قبل 3 ساعات تقريبا من الآن.

ثم التفت إلى السيد (سعود) بسرعة وهو يكمل:

- سآتي لك بثياب نظيفة.. لا تقلقا.. سأعود في أسرع وقت ممكن.

خرج بعدها مسرعا ليأتي لنا بما نحتاجه ويتركني وحيدا مع السيد (سعود).. حقا لقد أنقذنا ذلك الأجنبي.. أنا مدين له بحياتي.. سأشكره لاحقا.. لكن.. يجب أولا أن أفهم كل أبعاد وتفاصيل هذه القصة الغريبة.. وعلى السيد (سعود) أن يشرح لي الكثير.. من الواضح أنه يمتلك الإجابة على كل تساؤلاتي!!!.

كانت الأجواء دافئة في شقتي بعيدا عن الزمهرير في الخارج.. كما أنني لم أنسَ واجب الضيافة رغم كل شيء ورغم إصابتي الشديدة.. فقد نهضت من مكاني واتجهت إلى المطبخ.. ممسكا بالمنشفة على مكان إصابتي في رأسي بيد.. وقمت بتحضير

كوبين من الشاي الأخضر بيدي الأخرى.. و.. جلست أخيرا مع السيد (سعود) في صالة شقتي الصغيرة الدافئة وفي إضاءة خافتة أعشقها رغم خوفي منها أحيانا.. والآن.. حانت لحظة الحقيقة!!!.

ألقيت نظرة جانبية على (جود) التي كانت فاقدة الوعي بفعل الحقنة المخدرة.. ثم.. سألت السيد (سعود) بهدوء شديد بدد السكون من حولنا وقد شعرت أنني أفضل حالا بعد الضماد المؤقت الذي أوقف نزيف رأسي إلى حد ما:

- أريدك أن تخبرني بكل شيء.. إنني أستحق معرفة الحقيقة بعد كل ما عانيته بسبب ابنتك.. هناك أسرار كثيرة في حياتها تحتاج إلى تفسير.. في البداية لم أصدقها.. وشككت أنها ربما تعاني من حالة بارانويا متقدمة للغاية عندما أخبرتني عن سر خطير تخفيه أنت ووالدتها عنها.. ثم أثارت استغرابي أكثر حين توسلت إلي بحرارة أن أذهب معها إلى ذلك البيت المهجور لأنها تشعر في أعماقها وكأنه يناديها ويطلب منها الدخول إليه على حد قولها.. لكنها كانت تخشى الإقدام على تلك الخطوة وحدها!!!.. وعندما أصغيت لتوسلاتها وذهبت معها.. قادتني إلى غرفة مليئة بالمرايا المحطمة.. ثم إلى تلك الغرفة الصغيرة حيث طلبت مني أن أحفر في بقعة محددة منها.. لنعثر على بقايا جثة مدفونة منذ زمن بعيد!!!.. حينها أدركت أن هناك أمرا غريبا يحيط بـ(جود) بالفعل.. وأصدقك

القول.. لقد ظننت أن روح تلك الجثة قد تقمصت ابنتك بعد أن رأيت تصرفاتها الغريبة والصوت المخيف الذي تتحدث به دون وعي.. وقد جعلتني أميل بشدة إلى ذلك الاعتقاد حين أصرّت على أن الجثة تعود لامرأة عجوز .. فكل ما كانت تفعله (جود) يوحي بذلك.. ثم.. اتصالها بي وإبلاغي أنك ترغب بسجنها في غرفتها.. وانقطاع اتصالاتها عني فجأة بعد ذلك وهاتفها الذي ظل مغلقا بضعة أيام.. مما يؤكد شكوكها وكلامها لي بالفعل!!!.. وما تلا ذلك من أحداث لا تخفى عليك قتالها الشرس معك وإصابتي ومحاولة تعذيبي.. ولا ننسَ ما قالته لي ابنتك قبل بدء تلك الأحداث عن ذلك البريطاني الذي يزوركم بين الحين والآخر وتوترك الواضح أثناء وجودك معه.. فهل هو نفس الرجل الذي أنقذنا قبل قليل؟!!.. دعك من الأمور الأخرى التي تثير الكثير من التساؤلات أيضا.. والدتها التي باتت تكرهها فجأة بعد عودتكم من (بريطانيا) دون أن تفهم ابنتك السبب!!!.. تخرّجها من المرحلة الثانوية بتفوق.. لتعود بها إلى (الكويت) وتمنعها فجأة من استكمال دراستها.. أريد أن أفهم.. يجب أن تشرح لي!!!.

رد بوجه شاحب:

- يا بني.. لا ألومك على كل تساؤلاتك تلك.. فالقصة معقدة جدا.. والأمر أكبر بكثيييير مما تظنه.. سأثق بك

وأخبرك بكل شيء بعد ما عانيته ورأيته بنفسك.. لكن.. ما سأخبرك به هو سر عائلي نحاول الحفاظ عليه منذ سنوات طويلة حتى بات يشكل عبئا ثقيلا علي وعلى أفراد العائلة!!!.. وأنا أريدك أن تتذكر أولا وقبل كل شيء.. إن عائلتنا معروفة في (الكويت) وسمعتها طيبة للغاية.. أنت تدرك ذلك جيدا دون شك.. لذا فأنا أرجوك أن تحفظ السر.. ولو أفشيت به فتأكد أنني سأنكر كل كلامي.. خاصة وأنه لن يكون لديك أي دليل على ما ستسمعه مني.. الجثة هي الإثبات الوحيد الذي لديك وقد استخرجتها وخبأتها في مكان آخر لن تصل إليه أبدا.. سأخبرك بالحقيقة وإن كانت بالغة الغرابة.. وربما ستظن أنني أتلاعب بك.. لكن أرجوك تذكر.. لا يوجد ما يستدعي الكذب بعد كل ما علمته ورأيته بعينيك!!!.

قلت بوهن وأنا أضغط بالمنشفة على رأسي محاولا التأكد من تخفيف حدة النزيف:

- فلتعرف أولا أنني لم أتدخل في شؤونكم الخاصة إلا حين لجأت ابنتك إلي بعد أن حصلت على رقم هاتفي من البطاقة الشخصية التي قدمتها لك حين صدمتك بسيارتي.. كانت هذه الصدفة التي بدأت بالقصة كلها.. فقد عرفت ابنتك من خلال بطاقتي أنني طبيب نفسي وجاءت لتزورني في شقتي لتطلب المساعدة.. احم.. احم.. المعذرة لكن هذا ما

حدث.. وأنت تعرف على الأرجح باقي التفاصيل.

تنهد بعمق.. ثم قال باستسلام وهو يرمق (جود) بنظرة جانبية:

- سأخبرك بكل شيء.. لا أعتقد أن هناك أفضل من طبيب نفسي ليعرف أحداث قصتي الغريبة.. لكن أذكرك مرة أخرى.. أرجوك أن تجعل صدرك رحبا لتصدق ما ستسمعه.. لأن ما ستسمعه لا يصدق.. حسنا.. إن (جود) ليست.. ليست ابنتي!!!!.

لم يفاجئني كلامه إطلاقا.. فما رأيته خلال عملي أغرب بكثير من قصة أب يدعي أن ابنته ليست في الواقع ابنته.. المهم أنه أكمل قائلا:

- لقد فعلت كل شيء لأنقذها.. وظننت في البداية أنني نجحت.. لكن.. بدأت الخيوط تفلت مني رغم ذلك.. وبعد كل التضحيات التي قمت بها مع باقي أفراد العائلة!!!.

نظرت إليه دون فهم.. فقال وهو ينظر إلى أبعاد أخرى وكأنه يستذكر أمرا ما:

- القصة بدأت في أوائل خمسينيات القرن الماضي.. حين تزوج والدي -رحمه الله- مجبرا من قريبته وفي سن مبكرة للغاية بناء على أوامر جدي!!!.. أنت تعرف عاداتنا في الماضي..

فلا يمكن لابن أن يرفض أوامر والده في الزواج من الفتاة التي يفرضها عليه.. وكان سبب امتعاض والدي من تلك الزيجة هو علمه بإصابة قريبته بمرض الصرع*!!!.. بالطبع لم يكن زواجهما موفقا.. خاصة مع الأوقات العصيبة التي عاناها والدي بسبب نوبات الصرع التي تصيب زوجته بشكل دائم والتي أحالت حياته جحيما منذ بدايتها.. دعك من أن زوجته لم تكن قادرة -بسبب المرض- على ممارسة واجباتها الزوجية واهتمامها بشؤون البيت كحال أي زوجة.. حتى أن والدي لم ينجب منها سوى ولد واحد.. أنا!!!.

---

* يُعتقد أن الصرع هو أول مرض يصيب الدماغ تم اكتشافه في التاريخ.. إذ عثر على وثائق تاريخية تتحدث عنه وتعود إلى عام 2000 قبل الميلاد.. لكن ظل الناس لسنوات طويلة يرونه على أنه مس شيطاني وتلبس بالجن.. بل ورآه آخرون نوعا من الجنون المؤقت الذي يصيب الإنسان لسبب غير معروف.. وقد أطلق عليه البعض قديما اسم (المرض المقدس).. حيث أحيطت به أساطير شتى تنسبه إلى غضب الآلهة.. ولعل أبو الطب (أبقراط) هو أول من نزع عن الصرع قدسيته عندما أعلن أنه مجرد مرض كسائر الأمراض الأخرى.. له أسبابه وخصائصه وعلاجه الطبي ولا علاقة له بالسحر والشعوذة والأرواح الشريرة كما كان العالم بأكمله يظن وقتها.. ويعرف الصرع على أنه اضطراب شديد في أداء الدماغ.. فهناك طاقة كهربائية تنتجها خلايا الدماغ وتنتقل عبر الجهاز العصبي فتتحرك عضلاتنا كما نريد.. أما في حالة المصاب بالصرع فإن خلايا دماغ المريض تفشل في التحكم بتلك الطاقه الكهربائية لتنتج دفقات مفاجئة وعنيفة منها إلى الجهاز العصبي فتصيبه بارتباك شديد وتسبب نوبات تشنج حادة.. مع رجفة عنيفة يصاحبها تصرفات عشوائية كارتعاش الشفاه والبلع المستمر للعاب وبشكل ملحوظ.. وعدم تجاوب المريض مع محيطه الخارجي.. وبقي أن نقول أن هناك أسبابا عديدة للصرع.. منها عوامل وراثية تتمثل بخلل في الجينات أو حتى بيئية كتعرض الإنسان بكثافة لأنواع من الغازات الملوثة.. ولا ننسى أن نذكر أن نسبة الانتحار في حالات المصابين بالصرع مرتفعة للغاية في جميع أنحاء العالم تقريبا بسبب الاكتئاب الشديد الذي يصاحب المرض عادة.

أطرق برأسه حزنا.. ثم قال دون أن ينظر إلي:

- وبسبب إصابتها بالصرع ومحاولة أفراد العائلة إخفاء الأمر عن الناس كون المرض لم يكن معروفا كثيرا آنذاك ويصنفه البعض كنوع من أنواع الجنون.. فقد قام والدي بعزل والدتي تماما عن المجتمع.. ولم تكن تخرج سوى لزيارة أهلها الذين يعرفون أمر مرضها بطبيعة الحال.. في حين راحت تقضي معظم وقتها في البيت وفي غرفة المكتب تحديداً.. حيث تقرأ طوال الوقت من الكتب التي تشتريها لها قريباتها أثناء سفرهم إلى (مصر) آنذاك.. حتى اعتاد والدي على حياتها هذه وأصبح متزوجا من والدتي لكنه غير متزوج منها إن كنت تفهم ما أعنيه.. فلم يكن يقضي معها سوى أوقاتا قليلة للغاية.. خاصة وأنه رجل مشغول جدا كان يقضي جل وقته في تجارته التي تتطلب منه السفر أحيانا كثيرة.. وأنت تعرف بالطبع أن مشاق السفر في الماضي أكبر بكثير من الآن.

ظللت أستمع إليه وأنا أحتسي كوب الشاي شاعرا بدفء عجيب.. وأنني على أعتاب قصة مذهلة بحق إن كانت تمتد لهذه السنوات الطويلة.. و:

- المشكلة الحقيقية بدأت بعد سنوات من زواجهما.. ربما في فترة الستينيات حين اكتشف والدي أن والدتي أصابها نوع من الهوس لشراء المرايا.. فقد كانت ترسل الخدم إلى

الأسواق ليشتروا لها ما تريد من المرايا بمختلف أحجامها دون أن يعلم أحد سبب هوسها الغريب هذا.. والأغرب أنها راحت تعلّق كل مرآة تشتريها على جدران غرفة المكتب حتى امتلأت تماما بالمرايا!!!.. ولم تكن هذه سوى البداية فحسب.. إذ راحت والدتي فجأة تقوم بسلسلة من التصرفات المخيفة غير المفهومة.. كأن يستيقظ والدي من النوم في أوقات متأخرة من الليل ليقضي حاجته مثلا.. لكنه لا يعثر على والدتي بجانبه في الفراش!!!.. فيذهب إليها في غرفة المكتب -التي أصبحت مليئة بالمرايا- دون أن يجدها أيضا.. ليعثر عليها أخيرا في ساحة البيت الداخلية وهي تقف مقابلة للحائط بوضع مخيف دون أن تقوم بأي حركة.. وكأنها مسلوبة الإرادة!!!.. وأحيانا أخرى يجدها في المطبخ مختبئة خلف الباب مغمضة العينين متجمدة في مكانها دون سبب واضح!!!.. وكأن هناك قوة ما تسيطر على تفكيرها.. هل تعرف تلك النظرات الجامدة الباردة التي تصيبك بالرعب دون أن تفهم السبب؟!!.. لقد كان والدي يحاول أن يعيدها إلى وعيها ويخرجها من حالة السبات الغريبة هذه.. فتهتز بعنف وتفتح عينيها فجأة وكأن عقلها قد عاد للتو.. عاد من أين؟؟!!.. لم يكن يعلم.. وهذه التصرفات لا علاقة لها إطلاقا بمرض الصرع كما تعلم.. بل شيء آخر غير معروف!!!.. والغريب أيضا أن نوبات الصرع التي تصيب والدتي بدأت تقل شيئا فشيئا مع مرور السنوات دون

سبب واضح.. وبالمقابل.. ازدادت عندها حالة التوهان العقلي هذه وفقدانها الإحساس بكل ما هو حولها ومشيها دون وعي أو إدراك في أنحاء البيت.. بل إنها كانت تقضي حاجتها أحيانا في مكانها دون أدنى اعتبار لأحد!!!.

سكت قليلا مطلقا الصوت الجميل (شفففففففف) وهو يحتسي الشاي.. ثم أخذ نفسا عميقا ليكمل:

- وظلت الأمور تتطور للأسوأ في السنوات التالية.. خاصة حين بدأت والدتي تدريجيا تتحدث بصوت مختلف تماما عن صوتها الحقيقي.. صوت مبحوح وكأنها امرأة عجوز!!!.. أرجوك لا تنسَ أن والدتي كانت صغيرة آنذاك.. ربما في بداية الثلاثينيات من العمر.. وما كان يثير الذعر بصورة أكبر هو ملامحها التي كانت تتجهم بشكل مرعب عندما تتحدث بذلك الصوت.. مع عينيها اللتين تدوران حول محجريها بشكل مرعب بالفعل.. حتى ليذكرك الأمر بفيلم (طارد الأرواح الشريرة) الشهير.

هذا ما قلته بنفسي حين سمعت (جود) تتحدث بذلك الصوت.. هل تذكرون؟!.. من الغريب أنه يستخدم نفس التشبيه الذي استخدمته أنا!!!.. ما يقوله السيد (سعود) يعني أن روح الجدة قد عادت لتسيطر على الحفيدة.. هل يعقل ذلك؟!!.. سأعرف الإجابة الأكيدة بعد قليل كما يبدو.. و:

- كان الأمر مخيفا بالفعل.. وقد ظن أفراد العائلة كالعادة أن الأمر يتعلق بالجن.. لكن والدي -رحمه الله- كان رجلا عمليا للغاية.. إذ لم يكتفِ بهذا الظن.. بل راح يبحث في أغراض والدتي ويفتش كل ركن من دولابها وغرفة المكتب.. ليكتشف بعدها شيئا مريبا.. مجموعة كتب سحر قديمة تحوي كلمات وأرقام غريبة غير مفهومة للوهلة الأولى.. لم يكن من العسير أن يفهم الأمر.. فقد تبين أن والدتي تقضي وقتها في غرفتها بتعلم السحر وتحضير الأرواح*.. نعم.. مهما

---

* قامت فكرة تحضير الأرواح في (الولايات المتحدة الأمريكية) عام 1848م ثم انتشرت بعد ذلك في أوروبا وباقي دول العالم.. لتصبح مع مرور الأيام علما يدرّس في الجامعات.. وقد تعمق في فكرة تحضير الأرواح عدد كبير من الباحثين العرب.. بل وصدر في فترة الخمسينيات في (مصر) مجلة باسم (الروح).. حيث كان يحررها الدكتور (رؤوف عبيد) الأستاذ في كلية الحقوق في جامعة (عين شمس) وهو من أكثر الناس تحمسا لهذا الموضوع.. بل وله عدة مؤلفات أشهرها كتاب (الإنسان روح لا جسد).. ويقول كل الباحثين في مجال تحضير الأرواح إنه علم حقيقي وفن راق يقوم على أسس علمية غفل عنها الناس.. وإن طبيعة هذا العلم هي السيطرة على الأرواح في عالم البرزخ بعد موتها واستحضارها في أي وقت لتخبر عن حالها في عالم الأرواح الذي تعيش فيه أو حتى لتكشف أسرارا من الماضي.. يقال إن هناك طرقا عديدة لتحضير الأرواح.. منها (التقمص بالوسيط) وذلك بحلول الروح في جسد أحد الوسطاء بعد دخوله في غيبوبة والتكلم على لسانه.. ويقال إن الشاعر (أحمد شوقي) قد أملى بعد وفاته على وسيطة من المنصورة تدعى (مدام روفائيل) مسرحية شعرية تتكون من أكثر من ألف بيت اسمها (عروس فرعون)!!!.. أما الطريقة الثانية فهي التجسد: وهي أن تظهر الروح مجسدة في صورة مطابقة لصورة صاحبها قبل موته لتتحدث بنفسها وتحاور الناس وربما تخبرهم بما يريدون معرفته.. ويفسر المشككون بظاهرة تحضير الأرواح على أنها ليست سوى خدعة يتم خلالها استخدام الإيحاء النفسي والحيل العلمية والمؤثرات المختلفة مما لا يتيح للشخص أن يتبيّن حقيقة الأشياء.

بدا الأمر غريباً وغير قابل للتصديق.. لكن هذا ما كانت تفعله!!!.. لماذا؟!!.. لأنها كانت تبحث عن وسيلة لتبعد عن نفسها مرض الصرع ظناً منها أنه متعلق بالجن.. فهي تنتمي إلى الزمن القديم كما تعلم ولم تكن تصدق أنه مجرد مرض عضوي.. فبدأت بتحضير الأرواح من خلال وسيلة غير معروفة في عالمنا العربي.. وسيلة يطلق عليها اسم (سايكومانتيوم).. لهذا كانت تجمع المرايا وتقوم بتعليقها في غرفتها.. هل سمعت عن الـ(سايكومانتيوم) يا دكتور؟!!.

قلت مذهولا غير مصدق:

- أنا لم أسمع عن شيء كهذا من قبل رغم أنني قرأت عن بعض وسائل تحضير الأرواح في السابق.. سا - يكو - ما - نتيوم؟!!!.

رد بملل كحال أي إنسان يشرح معلومة يعرفها منذ زمن طويل:

- هذه وسيلة قديمة للغاية لتحضير الأرواح تعود إلى أيام الإغريق!!!.. يقوم من خلالها الفرد بملء الغرفة بالمرايا.. ويقرأ بعدها بعض التعاويذ السحرية.. ثم يبدأ بالتحديق بصمت بتلك المرايا فترة طويلة من الزمن وبظلام شديد مع ضوء خفيف متقطع كالذي يستخدم في التنويم المغناطيسي!!!..

هل تتخيل الأجواء المخيفة والمسمومة التي تصاحب هذا الفعل؟!!.. يقال إن هذه الوسيلة نوع من فنون السحر.. وتمكن الإنسان من الاتصال بعالم الأرواح ليرى من خلال المرايا حياة أصحاب تلك الأرواح قبل موتهم ويتفاعل معهم*!!!.. لا يوجد أي مزاح في الأمر.. فنحن لا نعلم أبدا حدود تلك الأمور كما تعلم.. ولا نعرف إلى أي مدى يستطيع الإنسان ممارسة السحر وأي قدرات ممكن اكتسابها جراء تلك الأفعال!!!.. كانت والدتي تفعل كل هذا لتعثر على وسيلة تبعد مرض الصرع عنها.

قلت بملامح مكتئبة شاعرا بعدم الأمان لما يحويه عالمنا من أهوال:

- لا أستغرب شيئا كهذا.. فقد مررت بتجارب سابقة أكدت لي أن السحر وتحضير الأرواح أمور ممكنة بالفعل.. لكن كيف عرفت والدتك كل هذا؟!!.. ومن أين حصلت على تلك الكتب المشؤومة؟؟!.

---

* كل ما ذكر عن طريقة تحضير الأرواح بواسطة الـ (سايكومانتيوم) (psychomanteum) حقيقي ومذكور في مخطوطات الإغريق الأثرية.. ويعتقد أنها إحدى أكثر الطرق الناجحة لتحضير الأرواح.. ولا ننسى أن نذكر أن الإغريق كانوا يستخدمون تلك الطريقة للاتصال بالأرواح بالفعل لكن باستخدام المياه للتحديق بانعكاساتهم كون المرايا لم تكن قد اخترعت في ذلك الوقت.. ويقول بعض خبراء علم النفس أن فكرة الـ(سايكومانتيوم) عموما لا تساهم بتحضير الأرواح كما يزعم البعض.. بل أنها في الواقع تسبب الهلوسة للإنسان وتغيب عقله فتخضعه لتخيلات كثيرة تجعله يظن أنه متصل بالأرواح.

مط شفتيه بوهن وهو يقول:

- معظم الكتب التي وجدها والدي في غرفتها كان يشتريها لها أقاربنا أثناء زياراتهم لـ (مصر) من الباعة المتجولين دون أن يتأكدوا من محتوياتها مع الأسف.. ظنا منهم أنهم يقدمون خدمة لوالدتي كونها كانت تقضي جل وقتها في القراءة كما ذكرت.. المهم أن العبث بتلك الأمور المخيفة من العسير أن يمر مرور الكرام دون عواقب.. إذ يبدو وكأن روحا ما قد تلبّست جسد والدتي بصورة تدريجية غير مفهومة!!!!.. روح امرأة عجوز شريرة.. مجرمة.. ساحرة.. لا أعرف.. لكنها أحالت حياتنا جحيما.. إذ راحت والدتي تتصرف بطريقة مخيفة مع مرور الأيام ولم تتوقف عند حالة التوهان التي أصابتها فحسب.. بل تحولت إلى امرأة أخرى شرسة تحاول قتل كل من يقترب منها.. وتشتم وتتوعد الجميع بالشر طوال الوقت والزبد يملأ أطراف فمها.. لقد فقدت سيطرتها على نفسها تماما.. ويبدو أن تلك الروح قد التهمت عقلها وكيانها تماما.. حتى اختفت شخصيتها مع مرور الأيام خلف شخصية الروح التي تلبستها وباتت تسيطر على كل تصرفاتها.. وراحت والدتي تنظر للعالم أحيانا تلك النظرة المبهمة لساعات طوال تقف فيها بطريقة متجمدة مخيفة دون أن تبدي أي حركة.. وتارة أخرى تجد الحياة تدب فيها فجأة.. لتصرخ بصوت

مبحوح مخيف وهي تضرب الباب بقبضتها وتتوعد بقتل الجميع وتطلق أقذر الشتائم!!!.. لقد كادت أن تقتل والدي في أكثر من مناسبة!!!.. بل وكادت أن تحرق البيت بأكمله أكثر من مرة أيضا!!!.. فأصبح من العسير جدا السيطرة عليها رغم أن والدي المسكين حاول علاجها بكل الوسائل.. وساعده بذلك أفراد العائلة.. لكن النتيجة كانت تفشل في كل مرة!!!.. عدد كبير من المشايخ وحفظة القرآن جاء بهم والدي من خارج (الكويت) لعلاجها.. وعدد لا حصر له من الأطباء جاء بهم من خارج (الكويت) أيضا حاولوا علاجها وفشلوا.. كان يخشى كثيرا أن ينتشر الخبر في البلد.. لذا استعان بأناس من الخارج.. لكن.. لم يتغير شيء على الإطلاق.. ليتخذ والدي مع أفراد العائلة قرارا بحبس والدتي في غرفة دون أثاث طوال العمر.. مع تخصيص خادمة دفعوا لها ضعفي الراتب الذي تستحقه.. فقط لتجلب لها طعامها وتنظف قاذوراتها أثناء نومها.. تحت شرط صارم للغاية.. ألا تقترب من والدتي لأي سبب أثناء استيقاظها!!.

كنت أستمع إلى السيد (سعود) وأنا أرتجف دون توقف.. بل وكدت أن أطلب منه أكثر من مرة التوقف عن سرد هذه القصة المرعبة التي ستظل محفورة في ذهني إلى الأبد.. لكن.. يبدو أن فضولي كان أقوى.. لذا بذلت جهدا رهيبا للسيطرة

على أعصابي.. المهم أن السيد (سعود) أكمل:

- وظلت والدتي لسنوات طويلة بهذه الصورة.. تخيل العبء الذي تحمّله والدي مع أفراد العائلة طوال تلك السنوات.. وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. بل ازدادت الأمور سوءا حين وقعت الكارثة الحقيقية في بدايات السبعينيات!!!.. فأثناء سفر والدي لظروف تجارته.. تمكنت والدتي في واحدة من ثورات هيجانها أن تخرج من غرفتها بعد أن نسيت الخادمة أن تقفل الباب.. فهجمت على الخادمة المسكينة ومزقت عنقها بأظافرها!!!.. نعم يا دكتور.. بأظافرها.. كانت الدماء تفور من رقبة الخادمة ووالدتي لا تتوقف عن غرس أظافرها فيها بكل قوتها إلى أن زهقت روحها!!!.

سألته بغيظ وقهر:

- لماذا لم ينهِ والدك المسكين هذه المأساة؟!.. لماذا لم يطلق والدتك ويعيدها إلى أهلها ليرتاح هو على الأقل؟!!.

رد بأسف:

- لم يكن هذا سينهي المشكلة كما تظن.. فوالدتي قريبة والدي كما أخبرتك في البداية.. وكان جميع أفراد العائلة -بمن فيهم والدي- يخشون الفضيحة.. أنت تعلم أن بعض أقاربي كانوا أعضاء في مجلس الأمة واحتلوا مناصب قيادية هامة في

البلد.. ووالدي نفسه احتل أكثر من منصب سياسي رغم كل هذه الظروف.. تخيل أن يعرف الناس أن ابنة هذه العائلة وشقيقة الوزير الفلاني وعضو مجلس الأمة الفلاني هي مجرد امرأة مجنونة تسكنها أرواحا شريرة.. بل وقاتلة أيضا!!!.. صدقني أمر كهذا كان كفيلا بالقضاء على مستقبل العائلة بأكمله.. دعك من أن الطلاق في ذلك الزمن كان أمرا بغيضا يتجنبه الناس كالطاعون.. وليس كما هو الحال الآن.. كان الحل بالسرية المطلقة فحسب.

سكت قليلا وهو يتنهد بأسى.. قبل أن يكمل:

- كنت أقول أن والدتي قد ارتكبت فعلا شنيعا وقتلت الخادمة!!!.. وقد كان يفترض أن يأتي شقيق والدتي الأكبر -خالي- بين الحين والآخر ليتفقدها بسبب سفر والدي.. ففوجئ بها مختبئة متربصة تريد قتل أول من يدخل بيتها.. لحسن الحظ أنها لم تقتل خالي أيضا رغم أنها كانت قريبة للغاية من ذلك.. فقد تمكن من الإمساك بها وتكبيلها وهي تحاول مقاومته بشراسة غريبة.. ليحبسها في غرفتها مرة أخرى ويقفل الباب عليها.. وعندما بحث عن الخادمة.. وجد جثتها مرمية في صالة البيت بعد حوالي يومين من ارتكاب والدتي لجريمتها!!!.. بالطبع أصيب بذعر هائل.. لكنه تمالك أعصابه سريعا.. وفكر بحل لهذه المصيبة.. فلم يجد إلا أن يدفن الجثة

في غرفة المخزن درءا للفضيحة.. هل فهمت يا دكتور؟!!.. الجثة التي استخرجتها أنت مع (جود) هي جثة الخادمة.. لقد استخرجتم جثة عمرها حوالي 40 عاماً!!!.. فهذا البيت هو بيت والدي.. وهو إرث عائلي لم نبعه منذ ذلك اليوم خوفا من أن يشتريه أحدهم ويكتشف وجود جثة الخادمة.

اتسعت عيناي وشهقت من هول المفاجأة.. لم أتوقع هذا إطلاقا!!!.. يا لي من أحمق.. لم أهتم كثيرا بالبحث عن هوية مالك ذلك البيت.. كان هذا سيوفر علي الكثير من العناء ويقربني أكثر من الحقيقة!!!.. إن ما أسمعه غريباً.. مخيفاً.. حتى أن نظراتي تصلبت وأنا أحدق بالسقف بتوتر واضح.. لكن السيد (سعود) لم يبالِ بذلك.. وكأن الرعب قد أصبح مملا بالنسبة له بعد أن عاشه كل يوم في حياته كما يبدو.. لذا فقد أكمل دون مبالاة:

- لقد عرف والدي بما حدث بعد بضعة أيام وحال عودته من السفر.. لك أن تتخيل صدمته حينها.. لكنه تفاهم مع أشقائه وأبناء عمه.. واتفقوا على حل رآه الجميع مناسبا آنذاك!!!.. فقد أخفوا أمر جريمة القتل هذه درءا للفضيحة.. وقدموا بلاغا في المخفر عن هروب الخادمة.. ثم اتصل والدي بأهلها لاحقا وأخبرهم -كذبا بالطبع- أنها هربت من البيت ولا يعرف مكانها.. لكنه أرسل لهم مبلغا ضخما من المال

قياسا لعملتهم بسبب شعوره القاتل بتأنيب الضمير دون أن يفهم أهل الخادمة سبب إقدامه على هذا التصرف.. وظل البلاغ في المخفر حتى يومنا هذا.. مجرد قضية اختفاء خادمة طوى عليها النسيان ولم يعد يتذكرها أحد.. حتى أفراد أسرتها اعتبروها في عداد الموتى بعد مرور كل هذه السنوات.. إذ قلت اتصالاتهم شيئا فشيئا مع مرور الأيام للسؤال عن أي جديد يخص قضية اختفائها.. وبالطبع لم يرغب والدي في قضاء ليلة واحدة في هذا البيت المشؤوم بعد ذلك!!!.. فاشترى بيتا جديدا وترك هذا البيت مهملا منسيا إلى يومنا.

سألته باستغراب:

- ماذا عنك؟!.. ما هو دورك في كل ما حدث؟!!.. وماذا حدث لوالدك بعد ذلك؟!.

قال بحزن بالغ:

- لقد حدث كل ما حدث وأنا طفل صغير لا أدرك شيئا مما يدور حولي.. إذ قضيت معظم أيام طفولتي في منزل عمتي كي لا أرى جنون والدتي وأفعالها أو أسمع صرخاتها وتهديدها للجميع بالقتل.. لكني رغم ذلك.. كنت أدرك أن هناك شيئا غير عادي يدور حول أسرتي.. وكنت أسأل عمتي بين الحين والآخر عن غياب والدتي الدائم وعدم مجيئها لقضاء بعض

الوقت معي.. أو عدم ذهابي لأعيش بين والديّ كحال أي طفل آخر.. فكانت تخبرني أن والدتي مريضة وأن مرضها خطير وتحتاج عناية كاملة من والدي.. لكنها ظلت تؤكد علي ألا أخشى شيئا.. خاصة وأنها تغمرني بحنانها طوال الوقت.. كما أن والدي لم يقصر معي أبدا رغم كل مشاغله والهموم التي أثقلت كاهله.. أتذكر أنني سمعته ذات مرة يتحدث مع أشقائه وأبناء عمومته أن الوقت قد حان ليستخرج (ما هو مدفون) ويخفيه في مكان آخر ليتمكن من بيع البيت الذي أثقل كاهل العائلة وبدا وكأنه كابوس يجثم على صدر الجميع.. لكنه لم يقدم أبدا على هذه الخطوة.. ربما لم يكن أحد يرغب بدخول البيت مرة أخرى واستخراج جثة الخادمة وإخفائها في مكان آخر.. ربما لم يكن أحد منهم يثق حتى بإيعاز الأمر لأحد العمال مثلا للقيام بهذه المهمة.. دعك من ثرائنا الشديد وعدم حاجتنا للبيت أصلا.. مع رغبتنا الشديدة بدفن ذكرياته المريرة وعدم نبشها مرة أخرى.. إذ لم يدخل أحد من أفراد العائلة هذا البيت منذ خروج والدي منه.. وقد أخبرني والدي -بعد أن كبرت ووصلت إلى سن تؤهلني للحفاظ على أسرار العائلة- بالقصة بأكملها وبأمر جريمة القتل التي ارتكبتها والدتي.. لن أخبرك عن دهشتي وصدمتي من كل ما سمعته وعرفته.. فهذه أمور مفروغ منها بالطبع.

غرقت تماما في تفاصيل هذه القصة العجيبة.. وشعرت للحظة أنني أجلس وحيدا في قاعة سينما وأشاهد فيلما من خلال شاشة ضخمة!!!.. حتى إنني نسيت ثيابي الملطخة بالدماء ورائحة العرق والقذارة التي تفوح مني.. بل ونسيت الجرح في رأسي وأنا أنصت إلى السيد (سعود) باهتمام بالغ عالما أن هناك المزيد من التفاصيل.. فما أخبرني به لا يفسر كل شيء بعد!!.. وبالفعل.. استرسل قائلا:

- كما ترى.. صحيح أن والدي قد انتقل لبيتنا الحالي وترك كل الذكريات المريرة في البيت القديم.. لكنه لم يتخلص من المشكلة الحقيقية!!!.. والدتي التي ساءت حالتها كثيرا رغم تقدمها في السن.. حتى أنها كادت أن تقتل والدي إحدى المرات.. بل وكادت تقتلني أنا بعد أن حاولت الاقتراب منها ذات مرة للتحدث إليها!!!.. لم نكن نعرف كيف نتصرف.. فلم تكن فكرة إيداعها في مصح عقلي واردة أبدا.. نحن نتحدث هنا عن فضيحة عائلية وعن جريمة قتل وروح شريرة وتحضير أرواح ومرض الصرع الذي بدأ مأساة حياتها كلها و.. إلخ!!!.. لذا ظل الجميع يبحثون لسنوات طويلة عن حل مناسب لما يحدث لوالدتي.. شرط أن يبقى هذا السر في أحضان العائلة.. لا أنكر أنهم فكروا بقتلها ذات يوم.. لكن ارتكاب جريمة قتل ليس أمرا سهلا كما تعلم.. كما أنها واحدة منهم مهما كان حالها.

سكت طويلا وهو ينظر إلى سقف شقتي بشرود واضح.. ثم عقد حاجبيه باهتمام وكأنه سيخبرني بأهم ما بقصته الغريبة هذه.. و:

- نسيت أن أخبرك أنني كنت قد تزوجت في بدايات الثمانينيات من قريبتي التي كانت تعلم بقصة والدي بأكملها.. وقد انتقلت للإقامة معي في بيت والدي بطبيعة الحال.. فلم يكن بالإمكان أن أتركه وحيدا مع والدتي كما تعلم.. لا يمكن أن أجعله يتحمل هذا العبء بمفرده بعد أن كبرت وأصبحت رجلا قادرا على تحمل المسؤولية.. وقد حذرت زوجتي كثيرا من الاقتراب من غرفة والدتي.. لذا كانت المسكينة تعيش حالة رعب دائمة في البيت.. وتتأكد مائة مرة في اليوم أن باب غرفة والدتي مغلق بالمفتاح خوفا من أن تتكرر مأساة الخادمة.. لقد تزوجتني بعد قصة حب استمرت سنتين تقريبا.. وكانت حينها على استعداد للقيام بأي تضحية من أجلي.. لكن.. وبعد أن تحول حلم الزواج إلى واقع.. انتبهت إلى حجم تضحيتها.. من العسير يا دكتور أن تضحي براحتك في بيتك!!!.. هذه أقسى وأصعب تضحية يقدمها الإنسان في حياته.. إلا أنني حاولت أن أكسب رضاها قدر الإمكان وأشعرها بالطمأنينة بوجودي الدائم معها وخروجي معها أحيانا كثيرة لتغيير أجواء البيت المسمومة.. فقط كي لا تسمع صراخ وشتائم والدتي وتهديدها

للجميع بالقتل!!!.. حتى إنني شعرت بالشفقة الحادة على والدي مع هذا الهم والتوتر والكآبة التي عاشها طوال حياته في بيته!!!.. أتذكر أنني بكيت كثيرا عند وفاته لأنني كنت أعلم جيدا أنه مات حزينا مثقلا بالأمراض.. وما زاد من حزني وهمومي هو يقيني أنني سأعيش أنا أيضاً لسنوات محتملا هم والدتي ووجودها في البيت.. تماما كما فعل والدي!!!.. لم يكن هناك أي مؤشر إلى أن والدتي ستموت قريبا.. فقد بدت لي دوما قوية وبصحة هائلة رغم وصولها لأواخر الستينيات من العمر.. خاصة مع التلبُّس الذي أصابها ومنحها المزيد من القوة.. وجعلها قادرة على أن تعيش ربما 20 عاما أخرى قبل أن تموت وترتاح.. ونرتاح معها.

سألته بحذر:

- هل قتلت والدتك؟!!.. آمل ألا تكون قد فعلتها مهما كان سوء حالتها؟!.

نظر إلي بشيء من السخرية الحزينة بمزيج لم أرَ مثله من قبل.. ثم أكمل:

- ليت القصة بهذه البساطة يا بني.. أرجوك استمع إلي بدون مقاطعة وستعرف كل شيء.. كنت أقول إنني عشت أجواء كئيبة للغاية مع زوجتي.. خصوصا بعد وفاة والدي..

إذ تخللت حياتنا الزوجية شجارات عديدة كادت أن تعصف بزواجنا وتؤدي إلى الطلاق.. إلى أن جاء الفرج فجأة بعد كل هذه السنوات.. وتحديدا في عام 2008!!!.. كان هذا حين اتصل بي ابن عمّي ذات يوم ليخبرني عن جرّاح بريطاني شهير مختص في المخ البشري وحاصل على أعلى الشهادات العلمية ولديه عدد ضخم من الأبحاث العلمية المنشورة باسمه.. تعرف عليه ابن عمّي منذ سنوات بسبب سفره المتواصل إلى (لندن) وأصبح مع مرور الأيام أحد أقرب أصدقائه.. فوثق به وأخبره بمشكلة والدتي كاملة.. وقد اتصل ذلك الجرّاح بابن عمّي ذات يوم وأخبره أن لديه حلا جيدا للمشكلة.. لكنه حل غير عادي أبداً.. حل غريب.. مذهل.. لا يصدق للوهلة الأولى!!!.. بل ولم يكن ابن عمّي ليصدقه لولا علاقته الوثيقة به ومعرفته الجيدة بسمعته وإنجازاته العلمية.

سألته باستغراب:

- لكن.. لم أفهم حتى الآن علاقة تلك القصة بـ(جود).. خاصة وأنك قلت في بداية حديثك أنها ليست ابنتك!!!.

قال وهو يلوح بيده وكأنه يريدني أن أخرس تماماً:

- كنت أقول إن ما سمعه ابن عمّي من ذلك الجرّاح لا يصدق.. لا يصدق أبدا.. بل وربما يندرج تحت بند الخيال

العلمي.. والواقع أنني ما زلت أحيانا لا أصدق ما حدث حين أنفرد بنفسي وأفكر بتفاصيل هذه القصة العجيبة.. المهم أنني اضطررت للسفر مع ابن عمّي إلى (لندن) لمحادثة ذلك الجرّاح وجها لوجه وفهم ما يريد فعله بصورة أكبر!!!.. فقد كان الحل الذي اقترحه علينا يحتاج إلى الكثير والكثير من التفكير قبل تنفيذه.. لأنه يحوي عواقب لا حصر لها.. لكنها بكل تأكيد أقل ضررا من بقاء والدتي بهذه الحالة لسنوات قادمة يعلمها الله!!!.

ثم.. أكمل بحذر شديد وكأنه يترقب ردة فعلي:

- لقد كان الحل.. لقد كان الحل يتمثل بإعادة برمجة عقل والدتي.. أمر كهذا ممكن بواسطة جلسات طويلة من التنويم المغناطيسي كما قال لنا الجرّاح.. لكن.. يستحيل تطبيق التنويم المغناطيسي على امرأة مهتاجة مسعورة لا تملك وعيها وتحاول قتل كل من يقترب منها.. لذا فقد اقترح الجرّاح حلا آخر تمهيديا قبل جلسات التنويم المغناطيسي تلك.. الحل يتمثل بـ. بـ. أوووووف.. لا أعرف كيف أقولها.. فلتتهيأ لهذه المفاجأة أرجوك ولا تظن أنني أكذب عليك.. حسنا.. كان الحل يتمثل بتجميد جسد والدتي.. نعم.. تجميد جسدها بالكامل.. وذلك لإجراء عملية جرّاحية مذهلة تتطلب شهورا من العمل المتواصل دون توقف تقريبا.

حسنا.. أنا أمام مخبول حقيقي إذاً!!!.. قلت متهكما:

- أنت تتحدث مع طبيب وإن كنت طبيبا نفسيا.. أرجوك لا تهين عقلي بهذه الطريقة الساذجة.. فالتجميد سيتسبب بقتل والدتك مباشرة.. أما لو كنت تقصد التجميد بمصطلحه العلمي (Cryonics)*.. فهو يندرج تحت بند الخيال العلمي.. وأنا لن أسمح لك بـ....

---

* تجميد الإنسان (cryonics) فكرة ظهرت أول مرة في قصة الخيال العلمي (الرجل ذو الأذن المكسورة) للكاتب الفرنسي المعروف (إدمون دابون) عندما تحدث عن تجميد مريض لا أمل في شفائه.. وذلك من أجل إعادته إلى الحياة يوما ما بعدما يتوصل العلم إلى العلاج اللازم لحالته.. فألهمت هذه الفكرة مخيلة العلماء وبدأوا يدرسون مميزاتها وإمكانية تنفيذها.. فتجميد جسد الإنسان سيمنح الأطباء كامل الوقت لإنقاذ المريض المصاب بالسرطان الذي يلتهم جسده مثلا.. أو المصابين بسبب الحوادث الطارئة الناتجة عن أعيرة نارية والطعن بالخناجر وحوادث السيارات.. إلخ.. فعن طريق تجميد أجسادهم.. سيتوقف نشاط أنسجة الجسم.. وستكون هناك إمكانية لحماية دماغ الإنسان وأعضاء جسده الداخلية من التلف.. كما أن هذه الطريقة تقلل من التكلفة الباهظة لأجهزة التخدير والتنفس الصناعي وغيرها التي توضع لكل مريض بحالة خطرة.. وقد قام بعض العلماء بتجارب ناجحة كلها تشير إلى إمكانية حدوث ذلك في المستقبل القريب بالفعل.. بداية بتجربة العالم (ميرمان) الذي قام بتجميد بعض الفئران في درجة حرارة وصلت إلى (197-) درجة مئوية.. واستطاع بعدها أن يعيدها إلى الحياة، حتى أنه فوجئ بأن الفئران قد احتفظت بذاكرتها القديمة، فكانت تتذكر كل ما تعلمته قبل التجميد!!.. مما شجع على ممارسة التجارب على كائنات أكثر تعقيدا للوصول إلى تجربتها على الإنسان مستقبلا.

قاطعني دون أي اعتراض لتهكمي الواضح رغم فارق السن بيننا.. فقال بشيء من الصبر:

- أنت تعرف بالطبع أن العلم لم يتوصل بعد لطريقة تجميد جسد الإنسان ومن ثم إنعاشه متى ما استوجب الأمر دون إصابة خلاياه بالضرر الذي سيؤدي إلى وفاته حتمياً.. فالإنسان كائن من ذوات الدم الحار.. وتجميده يؤدي إلى وفاته مباشرة*.. هذا ما أخبرنا به الجرّاح البريطاني.. لكنه ابتكر وسيلة لذلك بالفعل.. إلا أنه لم ينشر أبحاثه أبدا لسبب ستعرفه لاحقا.

قلت معترضا:

- لا يمكن يا سيد (سعود).. لا يمكنني استيعاب أمرا كهذا.. التجميد لا يصلح إلا لقصص الخيال العلمي فحسب.. هذا الجرّاح يضحك عليكم..

رد بحدة:

- يبدو أنك لم تسمع عن القفزات الهائلة التي توصل إليها العلم في هذا المجال في السنوات الأخيرة!!.. ربما لم تسمع

---

* حقيقة.

عن تجربة إحياء الكلب الميت التي حدثت مؤخرا*!!!.. دعني أخبرك بالسر.. صديقنا الجرّاح البريطاني هو من منح العلماء مفاتيح إجراء تلك التجربة التي نجحت نجاحا ساحقا.. تستطيع البحث عبر عشرات المراجع العلمية ومواقع الانترنت للتأكد أن هذه التجربة قد أجريت بنجاح بالفعل!!!.

تجربة إحياء كلب ميت؟؟!!!.. نعم.. أتذكر أنني قرأت عن شيء كهذا بالفعل مهما بدا غريبا وغير قابل للتصديق!!!.. تخاذلت كثيرا وأنا أومئ برأسي إيجابا وأخبره مغمغما أنني على علم بهذه التجربة.. فانفرجت أساريره وهو يقول بانتصار:

- هذا عظيم.. لقد سمعت بذلك إذاً.. كما قلت لك.. لقد منح ذلك الجرّاح البريطاني أسرار تلك التجربة للعلماء

---

* تجربة حقيقية جرت تفاصيلها في بدايات القرن الحالي.. وقد هزت الأوساط العلمية هزا.. عندما أحيى بعض العلماء في (الولايات المتحدة الأمريكية) كلبا ميتا توقف قلبه عن النبض وتوقف دماغه أيضا عن إعطاء أي إشارات تدل على الحياة طوال ساعتين.. لا يوجد تجديف ولا كفر ولا كذب في هذا الكلام.. فقد قام العلماء أولا بسحب دماء الكلب الميت من جسده.. وملئوا جسده بالمقابل بمحلول ملحي لبعض الوقت.. ثم أخرجوا المحلول من جسده.. وأعادوا ضخ الدم إليه.. وقاموا بعدها بتعريض الكلب لعدة صدمات كهربائية مع كميات ضخمة من الأكسجين إلى أن عاد إلى الحياة في واحدة من أهم تجارب البشرية.. وقد أعلن الأطباء أن تلك التجربة سيتم تطبيقها على الإنسان في المستقبل القريب بالفعل!!!.

وها هم قد توصلوا إلى سر التجميد بالفعل بعد تجربة الكلب الناجحة.. لكنهم ما زالوا بحاجة إلى الكثير ليتمكنوا من تجميد الإنسان دون إصابة خلاياه بالضرر.. وخصوصا خلايا الدماغ التي تحمل ذاكرة ومعلومات وشخصية الإنسان.. المهم أن الجرّاح لم يكن ينظر للتجميد كما ينظر إليه أقرانه العلماء الذين كان جل طموحهم هو منح الأطباء الوقت الكافي لمعالجة الحالات المستعصية والطارئة.. بل كان يطمح لشيء آخر تماما.. وهو استبدال خلايا دماغ والدتي بخلايا جديدة!!.. لكن أمرا كهذا مستحيل لأن تجميد والدتي سيطول كثيرا في هذه الحالة بسبب صعوبة العملية والوقت الذي ستستغرقها كون الجرّاح سيقوم بفتح دماغها واستبدال كل خلاياه.. هذا سيتطلب شهورا من العمل مما سيتسبب بالكثير من التلف لخلايا جسدها.. فهو لم يتوصل حتى الآن لإنجاح التجميد على الإنسان لفترة طويلة دون تعرض الخلايا للضرر ومن ثم الموت الحتمي.. لذا فقد اقترح حلا آخر لهذه المشكلة.. لكنه سيزيد المهمة صعوبة!!!.. أعلم أنه تناقض غريب!!!.. إذ اقترح استبدال كل خلايا جسد والدتي بخلايا جديدة وليس فقط خلايا دماغها!!!.. وهذا سيؤدي لنتيجة مذهلة في النهاية.. ستبدو هيئة والدتي الخارجية وكأنها فتاة في سن المراهقة.. سيعيدها إلى مرحلة المراهقة بالفعل.. حتى ليصبح عمرها

البيولوجي مختلفا تماما عن عمرها الزمني*.. أنت تعرف بالطبع الفارق بين العمر البيولوجي والعمر الزمني.

قلت بتحفز شديد:

- نعم.. نعم.. أعرف الفارق بينهما.. أكمل بالله عليك!!!.

برقت عيناه بإعجاب وكأنه ظن أنني لست على علم بما يتحدث عنه.. بكل تأكيد يا سيدي.. فأنا لا أبيع الطماطم.. أنا دكتور ورجل علم.. المهم أنه أكمل:

* العمر الزمني للإنسان هو الذي يحمل تاريخ مولده بطبيعة الحال والذي نقيسه بالشهور والسنوات.. إلا أن العلماء قد اكتشفوا مؤخرا أن هناك عمراً آخر للإنسان.. ويطلق عليه اسم (العمر البيولوجي).. وعمرك البيولوجي ليس واحدا كما هو الحال مع عمرك الزمني.. بل يختلف حتى في أجزاء الجسد الواحد.. فعلى سبيل المثال.. لو كان عمرك الزمني 30 عاما فإن العمر الزمني لقبضة يدك سيكون 30 عاما أيضا بطبيعة الحال.. ولكن عمرها البيولوجي قد يكون 20 عاما فقط!!!.. أي أصغر بـ 10 أعوام من عمرها الزمني لو كنت تهتم بصحتك وتمارس أي رياضة تحافظ على قوة ذراعيك ويديك.. أو أن يكون العمر الزمني لعمودك الفقري هو 30 عاما في حين أن عمره البيولوجي 50 عاما مثلا بسبب كثرة جلوسك أمام شاشة الكمبيوتر وقلة ممارستك للرياضة.. وهكذا.

- لكن.. كيف سيفعل ذلك؟!!.. فللوهلة الأولى سيبدو مستحيلا أن يستبدل مئات المليارات من خلايا والدتي بخلايا جديدة.. ومن أين سيأتي بخلايا جديدة لجسدها أصلاً؟!!.. كان

هذا هو اكتشافه الأساسي الذي توصل إليه قبل التوصل إلى سر التجميد.. نعم.. فقد كان التجميد بالنسبة له هو مجرد مرحلة للوصول إلى مراده الحقيقي.. وهو استبدال كل خلايا الإنسان بخلايا جديدة.

قلت بحيرة:

- إن استبدال كل خلايا الإنسان بخلايا جديدة أمر مستحيل علميا.. كيف سيفعل هذا؟!!.. بل كيف ستساعد تلك العملية والدتك أصلا لتقضي على ما أصابها من تلبّس شيطاني والصرع الذي كانت تعاني منه طوال حياتها؟!.

أومأ برأسه بهدوء وهو يقول:

- هل تعرف الخميرة يا دكتور؟!!.. بكل تأكيد.. الكل يعرف الخميرة.. ذلك الكائن الحي المجهري ذو الخلية الواحدة.. لكن.. يجهل أغلب الناس خاصيته الفريدة الرائعة.. فخلايا الخميرة خالدة لا تموت أبدا.. بل تستمر في النمو والانقسام طالما لديها ما تتغذى عليه.. وقد طرح العلماء منذ سنوات سؤالا بالغ الأهمية.. ماذا لو توفرت تلك المقدرة عند

الإنسان أيضا*؟!!!.. فلو فهمنا آلية عمل الخميرة.. وحاولنا أن نطبقها بأقرب صورة ممكنة على الكائنات عديدة الخلايا.. وأهمها البشر طبعا.. عندها قد نصنع المعجزة.. قد نعيد الإنسان العجوز إلى مرحلة شبابه.. ونجعله يعيش سنوات طويلة للغاية!!!.

مهلا.. كل ما يقوله السيد (سعود) يؤدي إلى نتيجة حتمية وأمر مذهل جعلني أقف مشدوها رغم عني.. أخشى

---

* كل ما هو مذكور عن الخميرة حقيقي تماما.. ونستذكر هنا كيف بدأت الفكرة في عام 1985 عندما طرح العالم الشهير (بول نيرس) (Paul Nurse) سؤالا بالغ الأهمية وإن كان يبدو خيالا جامحا في ذلك الوقت.. فماذا لو تمكنا من منح الإنسان تلك المقدرة المذهلة التي تمتلكها الخميرة؟!!!.. إن هذا يعني مقدرة الإنسان أن يعيش بدوره سنوات طويلة للغاية تتجاوز عدة قرون بدلا من دورة حياتنا الحالية التي تتراوح بين 70 - 90 عاما في أغلب الأحيان.. لكن (بول نيرس) كان يعلم جيدا أن الانتقال من كائن وحيد الخلية كالخميرة إلى كائن معقد متعدد الخلايا كالإنسان هو قفزة هائلة دون شك تحتاج إلى دراسات وأبحاث وتجارب شاقة.. لكنه بدأ مشوار الألف ميل بالفعل حين قام بخطوة مذهلة.. وهي زرع الجينات البشرية في بعض خلايا الخميرة التي وضعها في ظروف معينة أصابتها بالضرر.. فماذا حدث بعد ذلك؟!!.. لقد استفادت خلايا الخميرة من جينات الإنسان وانتعشت من جديد لتستمر في حياتها الأبدية!!.. نعم.. لقد أثبتت تلك التجربة أن خلية الخميرة وخلايا الإنسان يعملان بنفس الطريقة.. وهذا ما جعل (بول نيرس) يضع يده على بداية اكتشاف علمي خطير للغاية مما شجعه على الانخراط أكثر وأكثر في هذه الأبحاث عله يصل إلى الاكتشاف الذي سيغير مجرى تاريخ البشرية.. وهو إطالة عمر الإنسان لسنوات قد تصل إلى ألف عام دون أي مبالغة.

أنني بدأت أفهـم!!!.. المهم أنه أكمل دون أن يكتـرث لوقـوفي بهذه الصورة المفاجئة:

- هناك شخص واحد قد توصل إلى هذا الاكتشاف المذهل بالفعل وحقق سبقا علميا رهيباً يسمح له أن يعيد الإنسان إلى مرحلة شبابه مرة أخرى بدمج خلايا جسده بخلايا الخميرة*.. هذا الشخـص هـو الجرّاح البريطـاني صديـق ابـن

---

* نستذكر هنا أيضاً السؤال الشهير الذي طرحه بعض العلماء: كيف يمكن أن تتباين دورة حياة الكائنات الحية التي يزخر بها كوكبنا بتلك الصورة الغريبة؟؟!!.. فبعض الببغاوات مثلا تعيش 10 أضعاف السنوات التي يعيشها الفأر مع أنها كائنات تتشابه بالحجم تقريبا!!!.. لقد اكتشف هؤلاء العلماء أن هناك عنصرا فعالا في جميع الكائنات الحية تقريبا -من ضمنها الإنسان- هو الذي يبقيها حية لسنوات متباينة.. وهو مادة الـ(ميتوكوندريا) (Mitochondria).. فهي بمثابة محطة الطاقة التي تمد الكائن الحي بالنشاط والحيوية.. لكن المشكلة أن هناك جزيئات من هذه المادة تتسرب من الخلايا وتصطدم بالحمض النووي (DNA).. هذا التسريب يحدث بنسب متفاوتة بين الكائنات الحية.. لهذا نرى بعضها يعيش 150 عام تقريبا كقنفذ البحر حيث يقل عنده معدل تسريب تلك المادة.. والبعض الآخر من الكائنات يحدث عندها التسريب بصورة أكبر بكثير فيعيش عاما واحدا فقط.. كالفئران مثلا.. وقد تحدث العالم الشهير (أوبري دي جراي) (Aubrey de Grey) رسميا أمام شاشات التلفزيون إنه من الممكن جدا في المستقبل إصلاح هذا الخلل في تسرب مادة الـ(ميتوكوندريا) من خلايا الإنسان ليعيش بعدها سنوات طويلة للغاية من الشباب الذي قد يمتد مئات أو حتى آلاف السنين.. لا نتحدث هنا عن المستقبل البعيد كما قد يظن الجميع.. بل ربما خلال الـ 30 سنة القادمة.. هل يعقل أن يحدث هذا بالفعل وأن يعيش الإنسان كل هذه السنوات؟!.. نعم.. هذا ما يقوله العلم ويؤكده العلماء.. وسيكون هذا أحد أكبر الاكتشافات في تاريخ الجنس البشري بكل تأكيد.. لكن لا ننسى جوانبه السلبية أيضا.. إذ سيتسبب الأمر أيضا بانفجار سكاني مخيف في كل أنحاء العالم.. وربما ستضع دول العالم قوانين صارمة جدا تحتم وتفرض على الأسرة عدد معين من الأبناء.. لكن العلم لا يهتم لذلك.. بل ينظر للأمر من الناحية الأخلاقية وهي إنقاذ الناس من الموت وتأخير شيخوختهم.

عمّي الذي أخبرتك عنه.. وهو نفسه الرجل الذي كان معنا منذ قليل والذي خرج ليأتي لنا بما نحتاجه من ثياب وعلاج لإصابة رأسك!!!!.. ما أقوله لك هو الحقيقة يا ولدي.. لقد سبق ذلك الرجل كل أقرانه العلماء بالتوصل إلى هذا الإنجاز العلمي الذي لا يصدق.. لكنه لم يعلن عن اكتشافه لأحد سوى عدد محدود من الناس.. منهم ابن عمّي.

يا إلهي.. إن ما يقوله غريب.. غريب إلى درجة أنني لا يمكن ألاّ أصدقه!!!.. جملتي الأخيرة متناقضة وأنا أعلم ذلك.. لكني أعي جيدا ما أقوله.. فعادة ما يكون الكذب بأمور قابلة للتصديق.. ولا أظن أن أحدا سيكذب عليك بقصة غير مقنعة ولا يقبلها عقل كهذه!!.

ازدردت لعابي أكثر من مرة وقد شعرت أن صدري يهبط ويعلو بقوة.. لأن ما قاله هو مجرد تمهيد لمفاجأة أخرى أكبر حجما كما أتوقع.. يبدو.. يبدو أن ظني في محله.. سألته بصوت مرتجف:

- لقد قلت في البداية أن (جود) ليست ابنتك.. هل هذا يعني أنها في واقع الأمر.. هل هذا يعني أنها.. أنها والدتك؟!!!!.

أومأ برأسه إيجابا بثبات.. فلم أتمالك نفسي من الجلوس على الأرض مرة أخرى بعد الصدمة وشعرت بدوار شديد

يجتاح عقلي وكأنه لم يتمالك استيعاب معلومة مذهلة كهذه.. فأكمل السيد (سعود):

- نعم.. (جود) هي في الواقع والدتي وليست ابنتي!!!.. وعمرها الزمني حوالي 70 عام تقريبا.. لقد فعلت ما فعلته لأنقذها وأمنحها الفرصة لبدء حياة جديدة طبيعية بعد أن أفنت عمرها بأكمله في عذاب لا ينتهي وحياة كابوسية أخبرتك بمعظم تفاصيلها عن الصرع والمَس الشيطاني المخيف الذي أصابها.. لقد قام ذلك الجرّاح بإجراء العملية على والدتي بسرية تامة وتكلفة باهظة دون أي ضمان بالطبع كونه لا يعرف عواقبها أو آثارها الجانبية وكونها عملية تجرى لأول مرة في التاريخ!!!.. وقد أخبرنا أن الهدف الأساسي من تلك العملية هو استبدال كل خلايا دماغ (جود) وإخراج القاذورات التي ملأت عقلها وجعلتها ما هي عليه الآن.. وهذا سيعني إصابتها بفقدان ذاكرة كامل بالطبع كون خلايا دماغها ستكون جديدة بأكملها.. لتصبح (جود) كطفل رضيع لا يعرف كيف يتعامل مع أي شيء في هذا العالم.. مما سيجعل عقلها مفتوحا تماما لجلسات مكثفة من التنويم المغناطيسي والذي سيتم من خلاله غرس معلومات كاملة في ذهنها من جديد.. كتعليمها القراءة والكتابة.. وفنون الحياة.. ثم ستقوم بقراءة الكثير من الكتب المدرسية أثناء فترات التنويم المغناطيسي.. ولن تنسى

أبدا ما ستقرأه بعد الاستيقاظ.. فالمعلومات ستظل محفورة في ذاكرتها الجديدة إلى الأبد بهذه الطريقة.. لكن.. أمرا كهذا ليس سهلا بكل تأكيد.. لذا ظلت (جود) حبيسة مختبر الجرّاح البريطاني أكثر من 6 شهور استبدل خلالها بعمليات جرّاحية معقدة كل خلايا جسمها بخلايا جديدة.. وقد قمت بتعيين ممرضة خاصة لها لتطعمها وتسقيها وتنظف قاذوراتها كون عقلها قد أصبح كعقل طفلة رضيعة.. ودفعت مبالغ أخرى فادحة بعد ذلك لإخضاعها لجلسات من التنويم المغناطيسي تحت إشراف أطباء نفسيين استمرت أكثر من ثلاث سنوات وبصورة يومية تقريبا لتتم إعادة برمجة دماغها وتلقينها كل ضروريات الحياة.. فغرسوا في عقلها قصة ملفقة عن ماضيها.. ومنحوها ذكريات كاذبة لم تحدث أصلا.. لكنها راحت تتعامل مع العالم بأكمله على أساس صحة تلك الذكريات.. أظن أنها أخبرتك أنها أنهت تعليمها الثانوي في مدارس (بريطانيا).. بينما في الواقع هي لم تكمل تعليمها المتوسط أصلا!!!.. أخبرتك بأنها في الثامنة عشرة من العمر رغم أن عمرها الحقيقي يتجاوز الـ70 بقليل.. أخبرتك عن حياتها أيام الدراسة في (بريطانيا) وعن ذكريات كلها مزيفة رغم ثقتها أنها ليست كذلك.. وهكذا!!!.

هذا أكبر مما أحتمل.. أكبر بكثير.. سألت الأب مصعوقا:

- لكن كيف؟!!.. كيف فعلتم ذلك؟!!.. كيف زور صديقك هذا ذاكرة كاملة في عقل ابنتك.. أ.. أ.. أعني والدتك؟!!!.. بل وكيف جئت بها إلى (الكويت) وأخفيت أمرا كهذا عن الجميع؟!!!.. ألم يسألك أحد عن سبب ظهور ابنة في حياتك بهذه الصورة المفاجئة؟!!!.

قال بحزن:

- لقد أخبرت الجميع أنها مجرد فتاة تبنيتها في الغرب.. فالتبني غير مسموح به هنا وأعلم أنه محرم شرعا.. لكن لم يكن لدي خيار آخر!!!.. خاصة وأن الجميع يعلم أنني لا أنجب.. لأنني مصاب بعقم لا علاج له مع الأسف الشديد.. فلا يمكن أن أكذب وأقول أن (جود) هي ابنتي التي أنجبتها من زوجة ثانية تزوجتها في الخارج مثلا!!!.. المهم أنني دفعت للمرة الثالثة مبلغا طائلا لأشتري لها جوازا كنديا يحمل اسمها الحالي حتى تكون لها وثيقة جديدة تحمل صورتها الحالية دون أن يعلم أحد بالسر المخيف الذي تخفيه عن العالم أجمع.. ثم جئت بها أخيرا إلى (الكويت) منذ بضعة شهور.. لكن (جود) لا تعلم ذلك بالطبع ولا تعرف أي شيء عن حياتها السابقة أو عمرها الحقيقي.. كل ما تعرفه الآن هو مجرد ذكريات جميلة مزيفة زرعها الأطباء في ذاكرتها بواسطة التنويم المغناطيسي..

إن ذلك الجرّاح البريطاني لرجل مذهل عبقري كما ترى.. وهو بالمناسبة من أصول باكستانية.. لهذا تبدو ملامحه شبيهة جدا بنا.

اختلست النظر إلى (جود) التي لا تزال فاقدة الوعي بفعل الحقنة المهدئة.. وشعرت بقشعريرة عجزت عن إيقافها.. ثم غمغمت منبهرا غير مصدق ما أسمعه:

- هذا.. هذا يشرح الكثير بالفعل.. وإن كانت القصة مذهلة لا يصدقها عقل.. لحسن حظك يا سيد (سعود) أنني مررت بتجارب غريبة للغاية بدوري.. ورأيت ما ظننته يوما مستحيلا.. لذا فإن عقلي منفتح تماما ليصدقك.. إن ما تقوله يملأ كل ثغرات هذه القصة في عقلي.. الآن أفهم لماذا لا تحب زوجتك (جود) وتخشاها بشدة.. لأنها ليست ابنتها.. بل والدة زوجها!!!.. أمر معقد سيصيبني بالصداع دون شك كلما أفكر به.. لقد حاولت أن تمحي من دماغ (جود) سنوات طويلة من الذاكرة المتراكمة باستخدام تقنيات علمية مذهلة تسببت بإعادة شبابها إليها.. لكنك بالمقابل نسيت مبدأ إنساني بسيط للغاية يا سيدي!!!.. لقد كذبت على والدتك بطريقة غير مباشرة كما ترى.. وهذه كارثة حقيقية.. فمن يكذب كذبة لا يدرك فداحة خطئه.. لأنه مجبر بعدها على اختراع عشرين

كذبة أخرى لكي يحافظ على الكذبة الأولى!!!.. لهذا انكشف كل شيء فجأة وعدتم إلى نقطة الصفر.. لقد حاولت أن تنقذ والدتك.. ووضعت نفسك في مأزق أكبر.. حاولت أن تنقذ امرأة في الـ 70 من العمر.. فأرجعتها إلى عمر بيولوجي شاب لا علاقة له بعمرها الزمني.. والآن عليك أن تحتمل جنونها لسنوات تفوق عمرك أنت دون شك!!!.. لقد أصبحت (جود) إرث عائلي ثقيل جدا!!!.



عض شفتيه قهرا ليقول:

- إنها إرث عائلي ثقيل بالفعل.. تخيل أن والدي احتمله طوال حياته.. ويبدو أن هذا سيكون قدري أيضا.. ولو لم تكن (جود) والدتي لفضلت أن تنتظر أمر ربها وتموت بطريقة طبيعية.. أو ربما سأقتلها.. لكنها والدتي رغم كل شيء.. وأنا أخشى الله سبحانه وتعالى كثيرا.. ففي أي عرف أو دين تستطيع أن تقتل والدتك يا بني؟!!.. وقد كان يحزنني كثيرا أنها عاشت طوال عمرها تقريبا مصابة بالصرع وتتقمصها روح شريرة أصابتها بالجنون ومنحتها شهوة غريبة للقتل وتعذيب الناس.. لقد حاولت أن أنقذها من خلال ذلك الجرّاح وتجربته الغريبة.. أردت منح والدتي فرصة ثانية للحياة.. لكن.. مع الأسف انهار كل شيء.. وبدأت والدتي تسترجع ذاكرتها بعد

أن رأت بالصدفة البيت الذي عاشت فيه لسنوات طويلة منذ زواجها من والدي حيث ارتكبت فيه جريمة قتل ودفنت ضحيتها (الخادمة) هناك!!!.. رغم أن الجرّاح قد أكد لي أكثر من مرة أنها لن تسترجع ذاكرتها القديمة أبدا بعد استبدال كل خلايا مخها.. لكنه كان مخطئا في هذه النقطة.. هناك مكان مجهول في مخها كان يحمل جزءا من تلك الذكريات ولكن في منطقة مظلمة لم نكن نعلم بوجودها رغم استبدال كل خلايا مخها!!!.. فالعلم يجهل حتى الآن كيف يعمل الدماغ.. أو كيف يمنح كل منا شخصيته المختلفة؟!.. وكل ما يقال هو مجرد اجتهادات لم تتأكد صحتها بعد.. ويبدو أن ذاكرة والدتي كانت تعود إليها مبعثرة في البداية.. لذا ظننت أن الجثة لامرأة عجوز رغم أن الجثة كانت للخادمة كما أخبرتك.. ومن قتلها في الواقع هي المرأة العجوز (والدتي).. عموما.. أنا لا أستطيع أن ألوم الجرّاح على إقناعنا بإجراء تلك العملية ظنا منه أنها ستنجح.. إذ كانت عملية صعبة للغاية كما ترى ولم يتم تجربتها على أي إنسان من قبل.. الأرقام والدلائل كانت تقول إننا سننجح.. وبدا وكأننا نجحنا في البداية بالفعل.. قبل أن تظهر بوادر الفشل فجأة وراحت والدتي تسترجع ذاكرتها وشخصيتها الحقيقية المصابة بالصرع والمتلبسة بالروح الشريرة!!!.. وقادتك إلى غرفة المكتب المليئة بالمرايا والتي كانت تمارس فيها تحضير

الأرواح.. ثم قادتك إلى مكان الجثة.. ليتغير صوتها شيئا فشيئا وتتلبّسها تلك الروح المجهولة مرة أخرى بطريقة غير مفهومة حتى الآن.. لقد عادت إلى طبيعتها المخيفة.. لكنها هذه المرة ستعيش طويلا.. إن عمرها البيولوجي الآن هو الثامنة عشرة فحسب.. وأنا في أواخر الخمسينيات من العمر.. سأموت دون شك قبلها بسنوات طويلة.. لا أعرف ما سأفعله!!!.. لهذا تراني عابسا حزينا طوال الوقت.. حتى إنني كنت على وشك الاعتداء عليك حين اصطدمت بسيارتي بسبب حالة الضيق التي أمر بها.. فوالدتي بدأت تشك أن هناك شيئا ما أخفيه عنها مع زوجتي.. إذ ظل الجرّاح البريطاني يزورنا على فترات متقاربة فقط ليطمئن على حال والدتي ويعرف مدى نجاح عمليته.. فبدأت تشعر بالريبة من زياراته وكثرة أسئلته.. بل وبدأت تشك أنه يرغب بالزواج منها.. ربما أخبرتك بهذا.. لكني ظللت أكذب عليها وأخبرها أنه مجرد صديق قديم ويراها كابنته تماما.. دعك من كراهية زوجتي لها.. فهي ليست ابنتها كما علمت الآن.. ولم تكن تستطيع أن تعاملها بحب رغما عنها.. لا يمكن أن تمثل أنك تحب شخصا ما طوال الوقت.. خاصة إذا كان يعيش معك في بيت واحد!!!.. إنني أعيش حالة لا تصدق من اليأس والحزن يا ولدي.. حتى أبناء عمومتي يعيشون حالة الاكتئاب والقلق تلك.

سألته بإشفاق:

- ماذا عن الصرع؟!.. لم تجب على هذه النقطة.. هل عولجت من الصرع؟!!.

قال بملل:

- بالتأكيد.. ما الذي تظنه؟!!.. لقد قام الجرّاح باستبدال كل خلايا جسدها بخلايا أخرى تم صنعها واشتقاقها من الخميرة.. فتجدد جسدها بأكمله وانتظمت النبضات الكهربائية التي تسري في دماغها بسبب ذلك.. لقد عولجت تماما من الصرع.

سألته سؤالا ظننته بديهيا:

- أعرف أن صديقكم الجرّاح لا يستطيع إجراء تلك العملية على نفسه بطبيعة الحال.. لكن.. لماذا لم تطلب منه أن يجريها عليك أنت مثلا حتى تعيش مع والدتك نفس المدة.. فمن الذي سيرفض أن يعود شابا ويعيش سنوات طويلة كوالدتك؟!!!.

هز رأسه نفيا وهو يقول:

- مستحيل يا ولدي.. إنها تجربة حديثة الولادة لا نعرف توابعها على المدى البعيد.. كما أنك تتحدث عن شهور من

التجميد الذي سيضعنا على حافة الموت.. مع عملية طويلة الأمد تمتد لعدة شهور.. من سيقبل أن يظل بين الحياة والموت ورأسه مفتوحا طوال تلك المدة ليعبث به الجرّاح كما يريد.. والأهم من كل هذا أن ذكرياتنا تمثل حياتنا بأكملها.. كيف سيغرس التنويم المغناطيسي كل ذكرياتك وأسرارك الشخصية مرة أخرى في عقلك؟!!.. سيتوجب عليهم غرس معلومات مزيفة كما حدث مع والدتي.. هذه ليست نعمة.. بل لعنة يا بني.. وجميع أفراد الأسرة الذين يعرفون بالأمر يرفضون تلك الفكرة تماما.. صدقني لم أكن لأوافق على أمر كهذا لو لم يكن ما فعله ذلك الجرّاح هو الحل الوحيد.. لقد أبهرتني الفكرة في البداية.. لكني أدركت حجم الخطأ بعد فوات الأوان.

لم يعد هناك ما يقال بعد كل ما قيل.. فقد انتهى السيد (سعود) من قصته الرهيبة أخيرا.. إلا أنني ظللت أطرح عليه عدة أسئلة أخرى.. لكن إجاباته لم تخرج عما أخبرنا به.. قبل أن يقطع حديثنا صوت أحدهم يطرق الباب بعد حوالي ساعتين استمعت فيهما إلى هذه القصة المذهلة!!!.. نظرت إلى الساعة.. ووجدتها تتجاوز منتصف الليل بقليل.. نهضت مترنحا لأفتح الباب.. و.. إنه الجرّاح العبقري الذي صنع المعجزة وإن لم تحقق مهمته النجاح المرجو.. كان يحمل كيسا كبير الحجم أخرج منه بعض الثياب التي أعطاها

للسيد (سعود) والذي توجه بدوره إلى الحمام ليرتديها بدلا من ثيابه الممزقة.. وانشغل بعدها الجرّاح بمعالجتي وتضميد جرح رأسي وأنا أشعر برهبة شديدة بسبب وجودي مع هذه العقلية الفذة!!!.. حتى انتهى أخيرا.

أخبره بعدها السيد (سعود) بكل شيء.. أخبره أنني علمت بتفاصيل هذه القصة.. ليقول الجرّاح بهدوء شديد لا يخلو من هيبة العلماء وباللغة الإنجليزية طبعا:

- ما تعرفه سر لن تبوح به لأحد.. وصدقني لو أفشيت به فسيضحك الجميع عليك ويتهمونك بالجنون.. لقد كنت أنوي الإعلان عن أبحاثي تلك للعالم أجمع.. لكن.. بعد ما حدث لـ (جود).. أدركت فداحة ما صنعت.. فثمن إنجازي العلمي سيكون لعنة حقيقية على العالم!!!!.

سألته بانجليزية سليمة:

- لماذا تقول ذلك؟!!.. إن (جود) حالة نادرة بسبب ما أصابها من صرع ومس شيطاني غير مفهوم.. لكنك لو مارست العملية على أناس طبيعيين فستنجح بكل تأكيد.. ستعيد للعالم شبابه.. وستنتهي الشيخوخة و....

قاطعني بهدوء شديد وهو يقول:



- وسيفقد الناس كل ذكرياتهم وأسرارهم الشخصية.. وسينفجر كوكب الأرض بسبب الكثافة السكانية.. إن الانفجار السكاني يهز العالم حاليا رغم كل الحروب والأمراض والكوارث الطبيعية.. فما بالك لو منحنا العالم بأكمله شبابا طويل الأمد كهذا؟!!.. لم أفكر بذلك في البداية.. كان كل ما أنظر إليه إنقاذ الناس من الموت فحسب.. لم أنتبه إلى أن الموت نفسه هو جزء من الحياة!!.. وأنه بموت الملايين كل يوم سيكون هناك مكان لملايين المواليد الجدد.. مع الأسف لم أعِ خطورة هذا الاكتشاف سوى الآن.

هذا غريب.. بعد سنوات من الأبحاث والتضحيات.. وبعد النجاح المذهل الذي حققه.. هذا كل ما لديه ليقوله؟!!.. إنه مخطئ فحسب ويريد أن يخفي تجاربه عن العالم؟!!.. لم ينتبه لخطئه الفادح هذا سوى الآن؟!!.. حقا أن العلماء غريبوا الأطوار.. أعلم أنه ليس العالم الوحيد الذي تراجع عن اختراعه وندم عليه.. فعلها (نوبل) قبله حين صنع الديناميت الذي كان النواة الأساسية لكل قنبلة تم اختراعها فيما بعد.. ثم شعر بالأسى لاختراعه هذا وبالغباء أيضا كونه لم يفكر للحظة أن العالم سيقوم بإساءة استخدام اختراعه لقتل الناس*!!!..

---

* حقيقة بالطبع.

دعكم من العلماء الذين يخترعون الأدوية والعقاقير الطبية وكل ما يساهم بإطالة حياة الإنسان وعلاجه من الأمراض.. وفي نفس الوقت يساهمون بانفجار سكاني رهيب ستدفع البشرية ثمنه يوما دون شك.

المهم أن الجرّاح قال هذا.. ثم توجه إلى (جود) وحقنها مرة أخرى بحقنة مهدئة.. يريدون إبقاءها نائمة كما يبدو لأطول فترة ممكنة.. ليقول بعدها السيد (سعود) بتوتر واضح:

- سنسافر مرة أخرى إلى (بريطانيا) بعد أيام قليلة من الآن بطائرة خاصة بعيدا عن أعين الناس.. هناك بعض الحلول المتاحة.. منها محاولة علاج (جود) مرة أخرى وبرمجة عقلها

مرة أخرى أيضا.. لكن مع الانتقال إلى مكان آخر جديد تماما عليها حتى لا ترى فيه ما قد ينعش ذاكرتها كما حدث هذه المرة.. هل سننجح؟!!! لا أعلم.. هل سنبحث عن حل آخر؟!!.. لا أعلم أيضا.

قال هذا.. وودعني الرجلان بحرارة.. لكني رجوت السيد (سعود) قبلها أن يتواصل معي هاتفيا ويخبرني بتفاصيل ما سيحدث لاحقا.. فأومأ برأسه موافقا.. ثم خرجا بحذر شديد كي لا يراهما أحد والجرّاح يحمل (جود) فاقدة الوعي.. كنت أنظر إليهما ومشاعر غريبة مخيفة تضرب عقلي من كل اتجاه

بعد كل ما سمعت وعرفت!!!.

ظللت أنظر إليهما وهما ينزلان من الدرج متجهين إلى سيارتهما قبل أن يختفيا عن أنظاري.. وكانت هذه المرة الأخيرة التي أراهم فيها.. السيد (سعود).. (جود).. الجرّاح الذي لم أعرف اسمه حتى الآن ولا أي شيء آخر عنه سوى أنه من أصول باكستانية.

أعترف أنني ظللت بعدها لبضعة أيام مترقبا اتصالا هاتفيا من والد (جود) -أو ابنها بعد أن عرفنا الحقيقة- لكنه لم يتصل أبدا.. وهذا ما توقعته بالفعل.. فمن أنا حتى يتواصل معي ليخبرني بالمزيد عن أهم أسرار عائلته؟!!.

لكني لم أيأس.. فبعد حوالي 3 أسابيع.. اتصلت على هاتفه النقال لكن جهازه كان مغلقا.. وبعدها بأسبوعين آخرين.. ذهبت إلى بيته كمحاولة أخيرة للتواصل معه.. لكن.. خرج لي شخص لم أره في حياتي ليخبرني أن السيد (سعود) قد باع بيته وهاجر إلى (بريطانيا) مع زوجته و.. و(ابنته)!!!!.

أتذكر أنني انسحبت عائدا إلى شقتي والخواطر تملأ رأسي دون أن تتوقف حتى هذه اللحظة.. فما زلت أرى صور أقرباء السيد (سعود) في الصحف وأشاهدهم في التلفزيون.. تعلمون أنهم ينتمون لعائلة عريقة وثرية جدا.. تعلمون أيضا أن بعض

أقاربه يحتلون مناصب عليا في البلد.. لذا تجدني في كل مرة أسمع اسم عائلتهم.. أو أرى صورهم.. أتذكر أحداث تلك التجربة التي عشتها وأخبرتكم بأدق تفاصيلها.. وأتذكر السر الذي تخفيه تلك الأسرة عن الجميع سواي!!!.

هذه هي نهاية القصة عزيزي القارئ.. نهاية مبهمة غير واضحة.. نهاية لا تجيب عن كل الأسئلة وعلى مصير (جود) أو السيد (سعود) وزوجته التي تحملت عبئا هائلا رغم أننا لم نتحدث عنها كثيرا.. فمن التي ستحتمل وجود فتاة مخيفة كهذه في بيتها؟!!.. من التي ستحتمل فتاة هي في واقع الأمر صنيعة المختبرات والتجارب العلمية السرية حبيسة أدراج العلماء؟!!.. بل وكان لزاما على الزوجة أيضا أن تبدي لمسة حنان على (جود) كي تشعرها بالأمومة.. تخيلوا هذا!!!.. لا ألومها إن كانت تشعر بالخوف منها وتكرهها.. لا ألومها أبدا.. كما أنني لا أعرف إن كان من المفترض أن نلوم (جود) على ما فعلته بنفسها.. أم نلتمس لها العذر لإصابتها بالصرع وعدم معرفة أفراد عائلتها كيفية التعامل معها.. عموماً.. ما حدث لـ (جود) يطرح تساؤلا مهما طالما راودني.. فإذا كانت ذكرياتنا تحدد شخصياتنا.. إذا كنا خلاصة ونتاج ذكرياتنا.. ما الذي سنكونه حين تضيع تلك الذكريات؟!!.

لقد حاولت كثيرا أن أنهي تلك القصة بنهاية واضحة تكشف مصير (جود).. إلا أنني عجزت عن ذلك صراحة.. فكيف أكتب نهاية أجهل تفاصيلها؟!!.. لكني على كل حال.. حمدت الله كثيرا أن الأمور قد انتهت عند هذا الحد.. ربما سأحصل على إجازة طارئة أسافر فيها لأسبوعين أو أكثر.. حتى أتعافى من إصابة رأسي ولا أجعل والدتي وأفراد العائلة يروني مصابا هكذا.. علي أن أعود بعد ذلك إلى حياتي الطبيعية وإلى عملي في المستشفى.. فسماع مشاكل المرضى -مهما كانت غريبة- أهون بكثير مما عانيته في هذه القصة بالذات.. فهي المرة الأولى التي أدنو فيها كثيرا من الموت وبطريقة بشعة.. لولا العناية الإلهية وتدخل السيد (سعود) وذلك الجرّاح العبقري في اللحظات الأخيرة.. أعتذر منكم مرة أخرى على تلك النهاية المفتوحة التي لا تكشف كل شيء.. لكني أنقل لكم ما عشته فقط دون تزوير وتزييف للحقائق.. وأحيانا لا تكون الحقائق بالمتعة التي نريدها.. فلا يستطيع أحد أن يقول إن الحرب العالمية الأولى تافهة ومملة مثلا.

هل سيكون هناك جزء ثالث لمذكراتي؟!.. هل سيكون هناك (حالات نادرة 3)؟!.. وهل سيكون الجزء الثالث مع مراهقات كويتيات أيضا؟!.. لا أعلم.. فما زلت مستمتعا بنشوة النجاة من المغامرة الأخيرة رغم لمسة الحزن التي

أصبحت تلازمني كثيرا مؤخرا.. ربما سأفكر بإصدار جزء ثالث فيما بعد.. المهم الآن أنني نجوت من أصعب مغامرة تعرضت لها في حياتي.. وإن كنت لم أعرف كل التفاصيل القادمة والتالية لهذه القصة الغريبة.. لأنها بالفعل قصة غريبة.. و.. قضية معقدة!!!!.



إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المُعقَّد (2019)
22) حالات نادرة 5 (2020)
23) جرعة زائدة (2020)

للتواصل مع المؤلف

Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

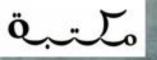
Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

Instagram : **abdul_alrifaee**

Snapchat : **alrifaee**

Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**



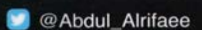


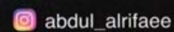


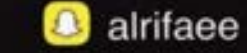
حالات نادرة (2)

ربما يكون عنوان الكتاب مألوفاً لديكم.. نعم.. أنا الطبيب النفسي الذي سردت لكم مذكراتي سابقاً وتحدثت فيها عن قصص وتجارب مذهلة تعيشها المراهقات في (الكويت).. ففي كل مرة تقريباً تجلس أمامي فتاة في سن المراهقة.. أجدها تروي لي أسراراً لا تصدق وأكتشف المعارك التي تدور في ساحة روحها.. وكيف تتصارع مكونات شخصيتها مع بعضها بعضا حتى تكاد تلتهم كيانها نفسه!!!.. فرغم تفوقي في مجال عملي.. ما زلت أكتشف يوما بعد يوم أنني مجرد طفل يلهو بجانب بحيرة النفس البشرية دون أن أجرؤ على الغوص فيها.

أرجوكم اقتربوا قليلا كي لا أرفع صوتي.. ودعونا ندخل إلى عالم تلك الحكايات.. إنها حكايات من الأعماق.. ليست أعماق البحار.. ولا أعماق الكون.. بل هي أشد تعقيدا.. إنها أعماق قلوب المراهقات وأسرارهن.. والحالات النادرة منها.. بجزئها الثاني!!!.









www.novapluskw.com @novakw

